ما يقوله القرآن

في سورة يس

ما يقوله القرآن في

سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

الجزء السادس

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ
الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ

يس/ ٧٠

الشاعر والمنذر والهادي

ترتبط هذه الآية بالآية السابقة عليها وبصدر السورة ارتباطاً موضوعياً بثلاثة أمور:

الأول: تعليل عدم تعليم النبيّ الشعر، ووصفه بأنه ذكر وقرآن مبين ليكون جواباً لسؤال مقدَّر يدور في الأذهان إنه إذا كان رسولاً من الله والله سبحانه لا يحرم عبده من فيض خيره وعِلمه فلماذا لم يعلِّم نبيّه ذلك؟ فأجابت بأنه ما علَّمه الشعر وإنه ذكر وقرآن لأجل أن يكون منذراً للناس ومعلِّماً ومربيّاً، وهذه صفة النبيّ صلى الله عليه وآله والقرآن، ولا تناسبها صفة الشعر والشاعر.

والفرق بين الشاعر والمنذر أنّ الشاعر يخلق الكلام من نفسه اتِّباعاً لهواه وخيالاته، ويقول ما يستهوي قلوب الناس لإرضائهم ونيل المنافع الدنيوية، وأمّا المنذر فلا يخلق الكلام بل يخبِر عن الحقائق الإلهية، وينفِّذ أوامر ربه، ويجاهد نفسه، ولا يطلب رضا الناس، بل هدايتهم عبر تخويفهم من مساوئهم.

الثاني: بيان أنّ الذي يؤمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله وتعليمه هم أصحاب القلوب والعقول الحيّة، أي التي تذعن للحقيقة وتؤمن بها، وأمّا أصحاب القلوب الميتة وهم المعاندون المكابرون الذين كابروا على أنفسهم ووصفوا النبيّ بالشاعر بالرغم من إذعانهم بأنّ ما جاء به ليس من الشعر فلا يستحقون إلّا العذاب والهلاك فإنَّ الإنسان له حياتان وموتان حياة الجسد وحياة الروح،

وموت الجسد وموت الروح والحياة الحقيقية للأرواح وليست للأجساد، وحياة الأرواح بالإيمان والهداية والخُلُق العالي.

والنكتة اللطيفة أنّ الآية وصفت المؤمنين بالأحياء ولم تصف الكافرين بالأموات، بل وصفتهم باستحقاق القول وهو العذاب، ولعلَّ السبب هو أنّ الكفار أسوأ حالاً من الأموات، لأنّ الميت لا يدرك ولا يحس فلا ينتفع ولا يتضرر، بينما الكافر يضر نفسه بنفسه بكفره.

وبذلك يتضح أنّ الناس ينقسمون إلى قسمين قسم يتبعون الأنبياء وهم أهل الإيمان والعقول النيّرة والقلوب المنيرة، وقسم شعريون يميلون لأهوائهم وهم أهل المكابرة والعناد، فإنهم في الغالب يكونون شعراء في أوصافهم؛ لأنهم يخلقون آراءهم، ويبنون مواقفهم على الخيالات وهوى النفس، فإلههم هواهم وطلبهم الدنيا؛ لذا يتهمّون الأنبياء والصالحين استناداً إلى الأوهام، فما رموا به النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من وصف أي الشعر هو في الحقيقة وصفهم وحالتهم.

الثالث: تلخيص مهمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بين الناس في أمرين:

أحدهما: إنذار أصحاب العقول والقلوب الحيّة.

ثانيهما: إتمام الحجة على الأموات منهم بناءً على أنّ (الواو) في قوله: ﴿**وَيَحِقَّ الْقَوْلُ**﴾[1] عاطفة، وهذه ذاتها هي مهمّة القرآن الكريم، فإنه كتاب إنذار وتعليم، وهو حجة على الخلق.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٠.

وبهذا البيان يظهِر الترابط الموضوعي مع صدر السورة والآية التي سبقتها، إذ ابتدأت السورة في الحديث عن الرسول والقرآن إذ قال سبحانه: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾(١) والسورة في صدرها أشارت إلى التلاحم في الجوهر بين النبيّ والقرآن، وفي هذه الآية أكَّدت ذلك ووصفته صلى الله عليه وآله بأنه ذكر وقرآن مبين مُهمَّته الإنذار لأهل القلوب الحيّة، وإتمام الحجة على أهل القلوب الميتة.

وقد ورد ذلك كله بعد رحلة طويلة في بيان الحقائق والآيات والتعاليم التي تهدي الناس إلى الحقّ من آيات سماويّة وأرضيّة وأنفسيّة، وتخويف بالموت والآخرة، وتشويق إلى الجنّة. لخّصت لهم مهمّة النبيّ بذلك لكي يبيّن لهم أنّ الغاية هو هداية الناس وإيصالهم إلى منافعهم وسعادتهم، وليس من وراء ذلك مصلحة أو منفعة، فيدفع بذلك عنهم الشكوك والأوهام والاتهامات الباطلة، وبذلك يكون بمثابة الإعلان عن ختم الحوار معهم؛ لأن الأدلة أُقيمتْ عليهم.

وذكر النبيّ صلى الله عليه وآله كل ما يدعو إلى الإيمان، وخاطب فيه فطرهم وعقولهم وقلوبهم، وأقامَ الشواهد الحسية الوجدانية على ذلك، فإذا لم يؤمنوا لم يبقَ إلّا العذاب ليُطهِّرهم من هذا العمى والعناد المستولي عليهم، ولذا أخذ في الآيات البعدية بيان لطف الله وامتنانه ورحمته بهم؛ إذ أبقاهم أحياء يعيشون ويتنعَّمون، وأجَّل عذابهم للآخرة، وتفصيل دلائل الآية يقع في مباحث:

---

(١) سورة يس: الآية ١-٦.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿لِيُنذِرَ﴾

(اللام) للتعليل، و(الإنذار) إخبار فيه تخويف يستدعي التوخّي منه في مقابل التبشير الذي هو إخبار في سرور يطلب حصوله[1]، وهو أخصّ من الإعلام، لأنه يعمّ ما فيه تخويف وتبشير وإرشاد، والمنذر من يحمل الإنذار وهو النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله.

ويدل عليه:

أولاً: صدر السورة؛ إذ لخّصت مهمّته صلى الله عليه وآله بالإنذار.

وثانياً: الآية السابقة.

وثالثاً: قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[2] إذ حصرت مهمّته بذلك، وفي رواياتنا المعتبرة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المُنذِر وعليّ الهادي، أمَا والله ما ذهبتْ منّا وما زالتْ فينا إلى الساعة»[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٩٨٤، (نذر)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٩٧، (نذر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٩١، (نذر).

(٢) سورة الرعد: الآية ٧.

(٣) الكافي: ج١، ص١٩٢، ح٤؛ كتاب الغيبة (للنعماني): ص١١٠، ح٤٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٤٨٤، ح٢٣.

والوجه في ذلك هو أنه صلى الله عليه وآله يخوّفهم من الكفر وعذاب الآخرة، ومن ذلك بكفرهم بعلي عليه السلام، والمصير الذي يلاقونه بالتخلّي عنه، فإذا استجابوا وآمنوا واتّبعوا أمر النبي صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام هداهم إلى صراطٍ مستقيم.

فالإنذار علَّة محدِثة للهداية، والهداية عِلَّة مبقية للإنذار؛ لذا لا تزول عنهم عليهم السلام، وبهذا يتّضح بعض السرّ في مجيء الكثير من الروايات المُحذِّرَة من ترك الولاية والبراءة، وأنّ الأعمال كلها مرهونة بهما، وأنّ من خالف الولاية والبراءة كان من أهل النار؛ إذ لولا الخوف لا تكون هداية عادة.

هذا وقد نقلت قراءات عديدة ذكرها بعض أهل التفسير لكنك عرفت بطلانها[١]، وذكروا لفاعل الإنذار قولين آخرين:

الأول: أنه القرآن بدعوى أنه وصف ثان للقرآن المبين في الآية السابقة، وتضمّنه للإنذار احتمله بعض المفسرين من الفريقين[٢].

الثاني: أنه الباري عزّ وجلّ بواسطة القرآن[٣]، وضعفه ظاهر لمخالفته للظهور، والحق هو ما ذكرناه، وعليه الأكثر[٤]، على أنّ المعنيين الآخرين

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٥٠؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٧؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٦.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٥٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٧؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٨.

(٣) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٥٩؛ تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٦٦.

(٤) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٧؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٧٩؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٨؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٧.

يجتمعان في رسول الله ﷺ؛ لوضوح أنّ القرآن يكون مبيناً برسول الله ﷺ، والباري عزّ وجلّ إنما يُنذِر البشر بواسطته، وإنما خصص وصفه ﷺ بالإنذار مع أنه مُبشِّر أيضاً ومُعَلِّم؛ لأنّ المحاورة مع الكفار والمعاندين، وقد وردَ ﴿لِيُنذِر﴾ بصفة ضمير الغائب لا بضمير الحاضِر (لِتُنذِر) لتنزيه النبي ﷺ عن تقوّلاتهم فيجعل الحوار عنه لا معه.

المفردة الثانية: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾

(من) من أدوات العموم بمعنى كل، و(كان) للتحقيق يعبر عنها بصيغة الماضي لبيان حتميّة الوقوع والجزم فيه و(الحيّ) مقابل الميت، ويحتمل معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي باعتبار أنّ الحياة الحقيقية للبشر بأرواحهم حتى حياة الأجساد وحياة الروح بالإيمان والمعرفة والأخلاق، وبالقياس المنطقي تثبت أنّ الحياة الحقيقية بهذه الثلاثة، لأنّ حياة البشر بالروح وحياة الروح بهذه الثلاثة فحياة البشر بهذه الثلاثة فمن اتَّصف بها كان حيّاً وإن افتقدها كان ميتاً في روحه وإن كان بجسده يزاول الحياة، والفرق كبير بين الحيّ وبين مَن يزاول الحياة.

ولو أردنا أن نقرِّب هذا المفهوم إلى الأذهان نمثِّل له بالإنسان الآلي الذي يتحرَّك وينطق بالطاقة الكهربائية المودعة فيه، فإنه يزاول الحياة وليس بحيّ، وهكذا مَن يفقد الإيمان والمعرفة والأخلاق.

الثاني: المعنى المجازي، فيكون اللفظ مستعاراً، والمراد من الحيّ صاحب العقل من باب إطلاق لفظ الكل على الجزء، أو السبب على

المسبَّب؛ لرجوع العقل إلى الروح، ويراد به التعريض بالمعرضين عن النبيّ، ودلائل القرآن بأنهم كالأموات لهم عقول لا ينتفعون بها، وقلوب لا يبصرون بها، وحياة جسدية لا يستثمرونها لمنافعهم ودفع الأضرار عن أنفسهم؛ لذا وصفهم الباري عزّ وجلّ في آية أخرى بقوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾(١).

ونلاحظ أنّ نفي الاستماع لم يكن بسبب فقدان الآذان بل تولّيهم وإدبارهم، فهم أموات في صورة أحياء، ومعهود في الاستعمالات العرفية تسميّة الجاهل والغافل والعاصي بالميت، والعاقل وصاحي الضمير بالحيّ.

والحق هو الأول؛ لأن الألفاظ موضوعة ومستعملة في المعاني الحقيقية، والحمل على المجاز لا يكون إلاّ لسببين:

أحدهما: وجود المانع من الحمل على الحقيقة.

ثانيهما: وجود القرينة الصارفة، والأول سبب للثاني، والحمل على المعنى الحقيقي غير ممنوع فيحمل عليه، وهو متضمن للمعنى المجازي؛ لأنه أعم مع عدم التنافي بين المعنيين.

وفي الأخبار الشريفة ما يدل على ذلك، ففي مجمع البيان عن أمير المؤمنين عليه السلام فسّر الحي بالعاقل(٢)،وفي تفسير القمّي فسّر المؤمن بحي القلب(٣).

---

(١) سورة النمل: الآية٨٠.

(٢) انظر مجمع البيان: ح٨، ص٢٨٨.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص١٩١؛ تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٩٥.

ومعلوم أنّ العاقل وحي القلب لابد وأن يكون مؤمناً مدركاً ومذعناً للحق؛ لأن العقل والقلب كليهما يتعاضدان ويدعوان إلى الإيمان، وفسّر البعض الحي بحي البصر؛ لأنه يتخذ من نظره عبرة يتعلم من الآيات والآثار ما يهديه إلى الحق، وهو يعود إلى العقل والقلب؛ لأن النظر ليس محل التدبر والتعلم، بل آلة العقل والقلب، وبقرينة تعدد المعاني الواردة في الروايات تحمل على بيان المصداق أو أجلى المصاديق فلا تنافي المعنى الحقيقي.

ويتلخص: أن مرجع جميع المعاني المذكورة للحي وهو المعنى الحقيقي؛ لأن الروح هي مرجع جميع الإدراكات والآثار، فإذا كانت حيّة كان العقل والقلب والبصر وكل الحواس والمدارك حيّة، والروح الحية هي روح المؤمن، ولذا قسّموا الحياة إلى مادية وهي حياة الجسد، ومعنوية وهي حياة الروح، والقيمة العظمى للحياة في الدنيا والآخرة هي حياة الروح، وإليها تعود كل القيم والآداب والإنجازات والحضارات البشرية، وأمّا حياة الجسد فلا قيمة لها، وإنما تشبه حياة البهائم، ومثله يكون ميت الروح؛ لأنه لا يعقل ولا يدرك ولا يسمع ولا يرى الحقائق والآيات، فمثله مثل الميت وفاقد الإحساس.

المفردة الثالثة: ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(الواو) عاطفة على (لينذر) فـ(اللام) للتعليل كما ذكرنا، وربما يتضمَّن معنى العاقبة، ومفادها إنَّ عاقبة الإنذار هي إحقاق القول على الكافرين، ومقابلها إحقاق الحياة للمؤمنين فيفوزون بالسعادة، و(يحق) أي يثبت ويجب، فالحق يقال له حق لأنه ثابت وواجب[١].

وفي المفردات يقال الحق للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يحق[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[٣] وصيغة المضارع تدل على ثبوت الحق عليهم والتأني في تنفيذه ليقع في الآخرة، فيكون الإعلان عنه بمنزلة إمضاء التقدير لمصيرهم بذلك.

و(القول)، المعنى الذي يبرز بالنطق ولعله المتبادر منه، وهو أخص من الكلام؛ لأنه يشمل ماله معنى وما ليس له[٤].

ومن هنا يطلق القول على الكلام وعلى الصور الذهنية قبل إبرازها باللفظ، وعلى الرأي والاعتقاد[٥]، وعلى الفعل الشامل للقانون التكويني الذي يوصل المؤمن إلى السعادة، والكافر إلى الشقاء، كما يطلق القرآن

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٢٢٧، (حق).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٦، (حق).

(٣) سورة يونس: الآية٣٣.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٤٣٨، (١٧٦٢)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٨٣٩، (قول).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم:ص٦٨٨، (قول).

الكلمة على المخلوق؛ إذ وصف عيسى عليه السلام بأنه كلمته، وإنما عبر عن استحقاق العذاب بالقول لأنه سبحانه قال: ﴿**حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾(١) فالقول كلمة العذاب التي أوجبها الباري عزّ وجلّ على نفسه للكافرين، كما أشار إليها في قوله سبحانه: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾(٢).

في أول السورة أخبر عن حالهم وأنهم لا يستجيبون لنداء العقل والنبوّة فقال: ﴿**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(٣) فلولا الإنذار لا يحق العذاب عليهم لوجود العذر.

ويتلخص: أنّ الباري عزّ وجلّ أعدَّ النبيّ صلى الله عليه وآله ليكون مُنذراً لإحياء العقول والقلوب، وحجة على الأموات ليكون عذابهم بالاستحقاق.

---

(١) سورة السجدة: الآية١٣.

(٢) سورة الزمر: الآية٧١.

(٣) سورة يس: الآية٧.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: الوحدة الموضوعية للآيات والسور

إنّ الآية المباركة أكدت ثلاث حقائق ابتدأت سورة يس بها:

الأولى: أنّ أوصاف النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة هي أنه (**يس**) أي الإنسان الكامل، أو السامع للوحي أو كلاهما، وأنه قرآن ومنذر فتبطل كل الأقوال الأخرى التي فسرت (يس) بغير ذلك.

الثانية: أنّ الكفار حق عليهم العذاب؛ لأنهم معاندون، وعلامة عنادهم قوله تعالى: ﴿**وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1] فهم أموات لا يشعرون ولا يدركون ولا يتفاعلون مع الحق. يزاولون الحياة وليسوا بأحياء، ولكنه أنذرهم لإسقاط العذر عنهم، وهذه حكمة إلهية عظيمة؛ إذ لا يعذبهم مع استحقاقهم للعذاب، إلّا أنْ يتم عليهم الحجة، وفي ذلك تعليم عظيم لأهل القرار وأصحاب الأمر والنهي ومَن بيدهم القضاء، فلا تكون حجة إلّا بعد سقوط العذر، وهذا يُصحِّح قول بعض الأصوليين بتعريف الحجة بما يوجب سقوط العذر.

---

(١) سورة يس: الآية ١٠.

الثالثة: أنّ الحيّ من الناس هو المؤمن، وعلامة حياته قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ**﴾(١) فالحيّ هو الذي يتبع النبيّ ﷺ في ظاهره، ويخشى الرحمن في أعماله وأقواله في باطنه، ومثله يكون نيّر العقل ونقي القلب صالح العمل، فعلى الناس أنْ يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الحياة لا تكون بالطعام والشراب واللباس الجيد والسيارة الفارهة والقصور المشيدة. هذه حياة الأجساد، وهي حضور في الحياة وليست بحياة.

فإن الحياة بالإيمان والمعرفة والأخلاق واتبّاع النبي ﷺ وخوف الله سبحانه، فالقصور إذا خَلَتْ من الإيمان والأخلاق كانت خراباً، والأكواخ والبيوت الصغيرة إذا اعتمرت بالإيمان والتقوى كانت قصوراً، وهكذا القلوب والأرواح.

وبهذا تتّضح الوحدة الموضوعية في هذه السورة التي هي نموذج لباقي سوَر القرآن، فلا يتصوَّر البعض التفكك الموضوعي بين الآيات والسوَر.

اللطيفة الثانية: وجود المنذر ضرورة مستمرة

الآية لخّصت غاية بعثة النبي ﷺ بالإنذار، والقاعدة العقلية تقتضي أن يكون الإنذار مستمرّاً مع البشر إلى يوم القيامة، ليتميَّز الأحياء عن الأموات، ومن يستحق الثواب ويستحق العقاب، وإلّا كان للناس حجة، وهذا غير متحقق؛ لانقطاع إنذاره ﷺ برحيله عن الدنيا.

---

(١) سورة يس: الآية ١١.

فالعقل يقضي بلزوم وجود منذر آخر يقوم مقام النبيّ في الإنذار دفعاً لنقض الغرض، ولا يمكن أن يكون هو القرآن؛ لأنه يحتاج إلى مبيِّن وشارح يفصِّل ما يوجب التخويف والتحذير، ولا يمكن أن يكون العالم والمبلِّغ والخطيب وأمثالهم؛ لأنهم هم الآخرون يفتقرون إلى مَن ينذرهم ويعلمهم، وفاقد الشيء لا يعطيه، فيتعيَّن أن يكون المُنذر شخصاً هو نفس النبيصلى الله عليه وآله ويحمل صفاته وخصائصه وليس إلّا الإمام المعصومعليه السلام؛ إذ به يبقى النبيّ حاضراً بين الناس والقرآن هادياً ومعلِّماً، ولولاه لاندرست معالم النبوّة، وضاعت تعاليم القرآن. هذا ما يحكم به العقل وتضافر به النقل[1].

اللطيفة الثالثة: من هم أحياء القلوب؟

في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾[2] (مَن) موصولة وتعني الذي كان حيّاً أي قبل الإنذار ينفعه الإنذار، وهما صنفان من الناس صنف مَن كان حيّاً بالفعل، أي عقله وقلبه ونظره نور ومعرفة مثل جعفر الطيارعليه السلام الذي كان قبل الإسلام مهتدياً لقوّة عقله وقلبه، فلم يفعل القبيح والمعصية كما ورد في بعض الأخبار[3]، وأمثاله كثيرون كأبي طالب وخديجة، وصنف مَن كان حيّاً بالقوّة، أي يحمل القابلية والاستعداد لتقبُّل الإنذار وهم أكثر الناس، فالإنذار يزيد الأول نوراً وعلماً وهداية، ويوقظ الثاني ويهديه إلى الحق.

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص١٥٤، ح١؛ صراط النجاة: ج٣، ص٤٢٢.
(٢) سورة يس: الآية ٧٠.
(٣) انظر الاحتجاج: ج١، ص١٨٨، الهامش؛ الغدير: ج١، ص١٦٠؛ إحقاق الحق (الأصل): ص٣٢٥.

والنسبة في قوله: ﴿مَن كَانَ﴾ إلى الشخص تفيد أنّ حياة العقول والقلوب اختيارية وليست جبرية، وصيغة العموم الاستغراقي تفيد أنّ الحياة والموت يعودان إلى كل شخص شخص، وأنّ الإنذار يجب أن يصل كل شخص منهم فلا يكتفى بحياة الجماعة في الجملة، ولا الإنذار إلى بعض الجماعة في الجملة، بل قد يكون إنذار الجماعة طريقاً لوصول الإنذار إلى الأفراد، وبذلك تثبت حقائق:

الأولى: أنّ الإنذار يصل إلى جميع البشر بالتساوي، فلا تمييز ولا تفريق من جهة المنذر، وإنما الناس باختيارهم يتمايزون، فبعضهم يحيي عقله وقلبه، وبعضهم يميته، فلذا يكون الجزاء بالعدل والعذاب بالاستحقاق.

الثانية: أنّ مَن كانت سجيَّتُه الموت وعدم القابلية أنْ يبدِّل ذلك ويخرج نفسه من الظلمات إلى النور وبالعكس، ولذا باب التوبة والاستغفار مفتوح لا ينغلق، وللبشر أن يرجعوا إلى ربهم في أي وقت يريدون، وباب العقوبة كذلك مفتوح لمن اتّبعوا الهوى والشيطان، فلا ينبغي أن ييأس الناس من التوبة، ولا ينبغي أن يطمأنوا بعدم التراجع والخروج من نهج الإيمان، فإنّ هذه الحالة المتوسطة ركيزة أساسية من ركائز الإيمان والصلاح وفتح باب الأمل والرجاء الدائم، وهذا لطف إلهي عظيم؛ لأنّ اليأس من التوبة والثقة الزائدة بالصلاح كلاهما يفسدان البشر، فالأول يوجب تماديهم في الشر، والثاني يوجب فتور هِمَمِهم عن المواصلة في إصلاح النفس وطلب مزيد الخير.

الثالثة: أنّ النتائج والآثار تظهر على حسب القابلية والاستعداد، فالإنذار لا يحيي الأموات الذين جبلوا على الموت، بل الأحياء، فيزيدهم حياة ومعرفة وسموّاً، لذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾(١) وقال: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾(٢) أي قبور أجسادهم ونفوسهم؛ لأن ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾(٣) أي لهم أجساد تزاول الحياة وليسوا بأحياء.

وهذا تعليم لسائر الناس، فإنّ التغيير والإصلاح في الحياة الشخصية أو الاجتماعية لا يكون بالهِبَة الإلهية وبالمجان، بل لابد أن يوفِّروا في أنفسهم القابلية حتى ينالهم الإصلاح، فالزوجان إذا طلِبا السعادة لا تتحقق بالدعاء وحده، بل بإصلاح النفوس وتغييرها يوفقها الله لذلك؛ لذا قال: ﴿**إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا**﴾(٤) فالتوفيق متأخِّر عن إرادتهما وتابع لهما، وكذلك في التغييرات الاجتماعية؛ لذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾(٥) فإرادة التغيير وتوفير القابلية عِلَّة لإيجاد التغيير من قِبَل الله تعالى، وهكذا الحال في سائر شؤون الحياة.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٤) سورة النساء: الآية ٣٥.

(٥) سورة الرعد: الآية ١١.

اللطيفة الرابعة: العذاب بالاستحقاق

قوله تعالى: ﴿يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[(١)] يدل على أنّ العذاب بالاستحقاق، ونسبته إلى الثبوت (يحق) يدل على أنّ الباري عزّ وجلّ جعل للعذاب قانوناً، وبمقتضى المقابلة يفهم أنّ الثواب كذلك، والإنسان هو الذي يختار الدخول في أحد القانونين، والكفار هم الذين اختاروا الدخول في قانون العذاب بعنادهم وتكبّرهم، وبمقتضى مفهوم المخالفة يُستفاد إنّ غيرهم اختاروا قانون الثواب، فالمؤمنون باختيارهم دخلوا الجنة، والكافرون باختيارهم دخلوا النار.

وبهذا يتّضح السرّ في التعبير بقوله: (يحقّ) ولم يُعبِّر (يُعذِّب) و(يُجازي) ونحو ذلك من مفردات تفيد العقوبة، فإنّ العقاب يكون بالاستحقاق ونتيجة لسوء أعمالهم[(٢)].

لماذا يخلدون في العذاب؟

ولو سأل سائل: أنّ استحقاق العذاب يكون من سوء أعمالهم إلّا أنّ الخلود فيه ليس منهم؟ فإنّ أعمالهم مهما بلغت فهي محدودة، فلماذا يكون عذابهم غير محدود؟

---

(١) سورة يس: الآية ٧٠.

(٢) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٩١.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنّ الخلود ناشئ من تجرّيهم وتماديهم، فإنهم أُعلِموا من قبْل وأُنذِروا بأنّ مصير الكفر هو الخلود في العذاب ورغم ذلك لم يستجيبوا، فباختيارهم لذلك يكونون قد طلبوا الخلود وأرادوه، والباري عزّ وجلّ يعطيهم ما أرادوا وعزموا عليه، فهم من هذه الجهة يستحقون، ورغم ذلك فإنه لا يُخَلّد الجميع في العذاب، فالخلود المُطلق ليس لجميعهم بل لأصولهم؛ لأنّ العذاب يراد به تطهيرهم من نواقصهم وخبائثهم الروحية، فإنهم لم تنفعهم الدلائل العقلية ولا الإنذارات ولا الإرشادات السماوية بسبب عنادهم وتماديهم في الكفر، وقد صار الكفر ذاتهم، والنار تُطهِّر كل خبيث، وتنفي الكدورات، وتُبَدِّل الحقائق وتُغيّرها، فمَن لم يكن مستحقاً للخلود الدائم منهم يمرُّ بفترة العذاب ليُطهَّر ثم تناله الرحمة والشفاعة فيخرج من العذاب، وكيف كان فإنّ الخلود هو اختيارهم، والله سبحانه يُعطيهم ما يختارون.

الوجه الثاني: لأنّ نواياهم كانت ثابتة ومستقرة على الخلود في الكفر، ولو عاشوا في الدنيا آلاف الأعوام فإنهم لا يستجيبون لنداء عقل ولا فطرة، ولا لإنذار النبيﷺ، وكانت اعتقاداتهم كذلك، فخلود النيّة والعقيدة الباطلة عِلَّة تامّة لخلود العذاب، وهو ما وردت به الأخبار الشريفة، ففي الكافي والعلل عن أبي عبد الله‹ قال: «إنّما خُلِّدَ أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أنْ لو خُلِّدوا فيها أنْ يعصوا الله أبداً، وإنّما خُلِّدَ أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أنْ لو بقوا فيها أنْ يُطيعوا

الله أبداً، فبالنيّات خُلِّدَ هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾(١) قال: على نيَّته»(٢).

الوجه الثالث: ما تقدَّم غير مرة من أنّ الاعتقادات والأعمال تصبح مَلَكات وسجايا في النفوس، وبعض الأعمال تتجسّم في الواقع، ومُعتقدات الكفار وأعمالهم لا تخلو من النوعين، فأعمال الشر تُصيِّر النفوس كذلك، وتصبح ذاتياً لها، وبعض أعمالهم تتجسّم عذاباً وناراً تحيط بهم لكنها لا تظهر للحسِّ في الدنيا، وإنّما تُدرَك بالأثر، أي بالشقاء والتعاسة والأمراض وسوء الحال الذي يعيشونه، لكنّها في الآخرة تظهر لهم وتكون محسوسة فيعيشون فيها خالدين؛ لأنّها البيئة التي صنعوها لأنفسهم، فمثلهم مثل مَن يزرع الأرض ويعيش فيها، فإنّ عمله قد يكون مؤقتاً لكن آثاره تبقى ملازمة ينتفع منها. هذا إذا زرعها بالطعام الطيّب، ولو زرعها بالخبيث فكذلك يكون عيشه خالداً فيه.

فالإنسان يحشر في الآخرة ويعيش بملَكاته ومزارع أعماله، فالعمل قد يكون محدوداً لأنّ له زماناً ومكاناً خاصاً ولكن آثار الأعمال ليست محدودة وتبقى خالدة وهو خالد فيها.

ويتحصّل: أنّ الخلود في العذاب ليس من تقدير الله للعاصين، بل من تقديرهم لأنفسهم واختيارهم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٨٥، ح٥؛ علل الشرائع: ح٢، ص٥٢٣.

اللطيفة الخامسة: هل العذاب لأصناف الكفار؟

قد يقال أنّ الكافرين عنوان عام يشمل الكافر في المُعتقَد سواء الكافر بالله سبحانه أو بالنبيﷺ أو بالإمامعليه السلام، والكافر في العمل أي العاصي، والكافر بالنعمة أي المطيع الذي لا يشكر ما لديه من النِعَم، ويشمل غير القنوع والطامع والبخيل وغيرهم من ذوي السجايا السيّئة، والآية تُشير إلى عذابهم أجمع؛ لانطباق عنوان الكفر عليهم، وهو خلاف الضرورة والإجماع والأدلة المتواترة التي تنفي عنهم ذلك؟

والجواب:

أولاً: أنّ الآية قالت حقَّ العذاب على الكافرين لبيان الاستحقاق، والاستحقاق لا يلازم العذاب؛ لإمكان العفو والغفران والشفاعة، ولذا اتفقت الكلمة على أنّ الوعيد غير واجب الوفاء.

ثانياً: أنّ الآية صنَّفت الناس صنفين هما: الأحياء والأموات، والعذاب يحق على الأموات، وأمّا الأحياء فلا، والعاصي وكافر النعمة منه؛ لأنّ إيمانه بالله والنبيّ والإمام حياة للقلب فيُدرجه في الحيّ إلّا أنّ أعماله سيئة، وإليه تشير أدلّة الشفاعة التي تناله، كقولهﷺ: ﴿ادَّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي﴾[١] وأمّا من كذَّب بها فلا تناله[٢]، فلا يندرج في فعلية العذاب إلّا القسم الأول، وكذلك في الخلود فيه.

---

(١) البحار: ج٨، ص٦٢، ح٨٦؛ نور البراهين: ج٢، ص٤٢١، الهامش؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٢٠٧، ح٣٩٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٦٥، ح٢٩٢.

ثالثاً: حتى الكافر في المعتقد يُصنَّف إلى عامد وجاهل، والجاهل هو الآخر قاصر ومقصِّر، وفعليَّة العذاب وخلوده يختصّ بالعامد فقط، وأمّا الجاهل فالقاصر تناله الشفاعة أو الاختبار، والمقصِّر لا يخلد في العذاب، وهو ما دلت عليه الأخبار المعتبرة[1].

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٢٠٧، ح٣٩٧-٣٩٨.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: كيف نعيش حياتين؟

الآية صنَّفت الناس إلى أحياء وأموات، والأموات ليسوا مَن كانوا في القبور، بل هم أحياء على الأرض ولكن دفنوا في أجسادهم، ولو كانوا في القبور ما خاطبهم، لكنهم كانوا فوق الأرض يعيشون ولكنهم ليسوا بأحياء، وهذا يدل على أنّ للحياة ظاهراً وباطناً وبهذا الاعتبار تنقسم إلى حقيقتين: حقيقة بشرية دانية وحقيقة إلهيّة راقية فهي بالمفهوم البشري حيوانية، وبالمفهوم الإلهي ملكوتية.

وهذا التقسيم لو أدركه الناس وواكبوا مفاهيمهما وقيمهما عاشوا سعداء في الدنيا وفي الآخرة، وزالت الكثير من المفاسد والظُلامات بين الناس، وساد العدل والسلام في ربوع الأرض، وإذا غفلوا عنه وأهملوه عاشوا الشقاء والتعاسة على الصعيد الشخصي والعام.

وتوضيح ذلك: أنّ الكيان البشري له أكثر من حياة لو التفت اليها وتوازن معها عاشها جميعاً.

الأولى: الحياة البدنية وتتقوَّم بنوعين من الحياة هما:

أولاً: الحياة النباتية وهي المعنيّة بنموّه وغذائه وسلامته البدنية، فإنّ قانون النبات والخصائص النباتية في النموّ والغذاء والتطوُّر والذبول حاكم على البدن البشري؛ لأنّ الإنسان نوع من النبات ينبته الباري على الأرض وبدنه من تراب الأرض، وتكوينه من ثمارها. يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾[١] وهذه دورة حياة النبات تبدأ من الأرض وتعود إليها، ولكن طريقة النشأة أنّ النطفة تتكوَّن من طعام الأرض في صلب الأب، ثم تُبذَر في رحم الأم، فالرحم بمنزلة الأرض التي تبذر فيها، ولذا وِصِفَت النساء بالحرث للأزواج؛ لأنّ البذور تُلقى فيها وتتهيّأ للإنبات[٢]، فهي مزرع الولد[٣].

فالأم أرض للولد تحمله معها حتى تضعه، والنخلة تشبه الإنسان في الولادة؛ لأنها تحمل فسائلها معها حتى تكتمل ثم تنفصل عنها وتُزرَع، وحتى في التلقيح فإنها تُشابه الإنسان فيتمّ بواسطة ملاقح ذكرية للنخلة الأنثى، وفي بعض الخصائص يشبه اللقاح البشري، وهناك وجوه عديدة للتشابه بين الإنسان والنخلة؛ لذا حثَّ الشرع على محبَّة النخلة وإكرامها[٤]، وهذه الحياة النباتية للإنسان قهرية يمرّ بها الجميع لا خيار لهم فيها.

---

(١) سورة نوح: الآيتان ١٧-١٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٢٦، (حرث).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٢٤٠، (حرث).

(٤) الفقيه: ج٤، ص٣٢٧، الهامش؛ مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٥٨ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٩١، ح٢٠٢٨٣؛ البحار: ج٥٧، ص١٨١، ح١٢.

وثانياً: الحياة الحيوانية، وهي المعنيّة بالإحساس والشهوة والحركة الإرادية، وهذه الحياة مقوِّمة لحياته المادية، ولولاها لا يمكن أن يعيش ويبقى، وبها يحيا البدن، وتلبّى حاجاته، وبها يشترك مع سائر الحيوانات لاسيّما البهائم، فإنها تحس وتمارس الشهوات وتتحرَّك، فإذا انحصرت اهتمامات الإنسان ببدنه وصارت كل غاياته في الحياة أن ينمّي هذا البدن وينعّمه ويطعمه ويكسيه ويعطيه ما يشتهيه من الطعام والشراب والمناكحة ونحوها لم يفترق عن البهيمة في شيء، ولذا يصف الباري عزّ وجلّ من يعيش على هذه الشاكلة بالأنعام بقوله سبحانه: ﴿**أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[1] ووصفهم بالغافلين أيضاً؛ لأنهم يعيشون حياة الأنعام كل همومها طعامها وشرابها ونكاحها، وغافلون عن أنواع من الحياة الأخرى التي هي أرقى وأسمى وأليق بسماتهم الإنسانية.

الثانية: الحياة الروحية، وهي الأخرى تتقوَّم بنوعين من الحياة هما: حياة العقل وحياة القلب، والأولى معنيّة بهدايته وعقلنة فكره وسلوكه، والثانية معنية بنزاهة نفسه وضميره وتفتيح بصيرته، وبهاتين الحياتين يكون الإنسان إنساناً ويتفوَّق على سائر المخلوقات، وبهما يرتقي ويصبح نبيّاً ووليّاً وأعظم من الملائكة، ويكون خليفة الله في الأرض.

ولهاتين الحياتين طعام وغذاء ولباس وسعادة تختلف عن أطعمة البدن، طعام العقل العِلم والحكمة، وطعام القلب التقوى والأخلاق، وكساؤهما

---

(١) سورة الأعراف: الآية١٧٩.

العفّة والزهد والقناعة والحياء وغيرها من الفضائل، وهذه الحياة تصيّر الإنسان ملكوتياً، والحياة الملكوتية هي الحياة الحقيقية للبشر، وهي تتلخص بحياة العقل والقلب، ولذا خصصت الآية المباركة بالحياة الذين يستجيبون لنداء الباري ويسمعون للنبي صلى الله عليه وآله فقالت: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾(١) ومعنى ذلك أنّ الذين لا يسمعون ولا يستجيبون لذلك هم لا يعيشون الحياة الروحية، بل هم بدنياً أحياء لكنهم روحيّاً أموات، وهذا المعنى يتطابق مع مضامين الآيات والروايات الكثيرة.

ففي بعض الأخبار: «الحكمة حياة للقلب الميت وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصمّاء، وريّ للظمآن، وفيها الغِنى كله والسلامة»(٢).

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشدّ من مرض البدن مرض القلب، ألا وإنّ من النعم سعه المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب»(٣) و سبب صحة البدن بالتقوى أنها تجعل البدن متوازناً مع السنن الإلهية في الطعام والشراب والمنام والكلام ونحوها، لأنّ هذه مُمْرِضات إذا تخرج عن التوازن؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث آخر: «مَن كثر كلامه كثر خطؤه، ومَن كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومَن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومَن قلَّ

---

(١) سورة يس: الآية ٧٠.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص١٦، الخطبة ١٣٣.

(٣) نهج البلاغة: ج٤، ص٩٣، كلمة ٣٨٨.

ورعه ماتَ قلبُه﴾[١] وفي حديث آخر يقول: ﴿فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، فذلك ميت الأحياء﴾[٢].

وأسباب الحياة والموت الروحييَّن كثيرة أشارت إليها الآيات والروايات.

هذا كله ما يتعلّق بالحياة الشخصية للإنسان، ومن أبرز خصائص الحياة الملكوتية الخلود، وهي حياة دائمة؛ لأن أسبابها دائمة، فإنّ الحياة البدنية محصورة بالبدن، فإذا ضعُفَ ضعُفَتْ، وإذا فنى فنيَتْ، وهذا ما نجده واضحاً في نوعين من الناس:

الأول: النجوم في الرياضة وأمثالهم، فإنهم يعيشون حياة خاصة بهم فيها شهرة ومال ورفاه ما داموا في مقام النجوميّة، فإذا ضعُفَت أبدانهم وهزلت زالت شهرتهم، وطواهم النسيان، ولعلَّ الكثير منهم يركن في زاوية لا يُعرَف عنه شيء.

الثاني: الحكام والأمراء والوزراء وأصحاب المناصب الدنيوية، فإنهم ما داموا في سلطانهم لهم حياتهم الخاصة، فإذا زال سلطانهم زالت عنهم تلك الحياة، ولو كانوا من الظَلَمَة وأعوان الظَلَمَة قد لا يجدون مكاناً يستقرّون فيه؛ لأنّ حياة الأبدان تدور مدار البدن، فإذا ضعُفَ أو فنى فُنيَتْ معه، بخلاف حياة الأرواح فإنها باقية وخالدة؛ لأن الروح لا تفنى ولا تموت ولا

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٨١، الكلمة ٣٤٩.
(٢) نهج البلاغة: ج١، ص١٥٣، الخطبة ٨٧.

تضعف، بل هي دائماً في قوّة وارتقاء، وإذا مات البدن وانفصلتْ عنه الروح صارت أقوى وأعظم، وحتى آثارها وإنتاجها فإنها تبقى ولا تندثر؛ لذا العلماء باقون ما بقيَ الدهر، وآثارهم تبقى، وكذلك الشهداء والأنبياء والأولياء، وما ينتجه العقل والقلب فإنه باقٍ ولا يزول.

وحياة الروح تلازم الإنسان في الدنيا فتعطيه البصيرة بالأمور، والسلامة في العيش، وفي الآخرة النعيم المُقيم، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يَمُتْ مَن ترك أفعالاً يُقتدى بها من الخير، و مَن نشرَ حِكمة ذُكِرَ بها»[1].

الثالثة: الحياة الاجتماعية، وهي في مقابل الحياة الشخصية، وهي الأخرى لها حياتان: بدنية وروحية، فإنّ للمجتمع بُنية جسدية هي الأركان التي يقوم عليها، وعمدتها ثلاثة: هي الأسرة والجماعة القائمة على الأرحام و الجيران والصداقات المعبَّر عنها بالمحيط والمؤسسات التي ترعى الصالح العام، وتنظم الحياة الاجتماعية، وأهمها الدولة بوزاراتها ومديرياتها ونحوها، ولكل ركن من هذه الأركان حياتان بدنية وروحية أيضاً. تقوم الأولى على الأحكام والقوانين والتعاليم التي تنظم العلاقات و الروابط بين أركان المجتمع، وتقوم الثانية على القيم والآداب العامة مثل المحبة والاحترام والعدل وحرية الرأي والاختيار ونحوها من مبادئ ترتقي بالمجتمع، وتنمي طاقاته وخبراته، و لذا وصف الباري عزّ وجلّ القصاص كواحد من أسباب إيجاد الحياة الاجتماعية؛ لأن القتل والظلم والعدوان

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ١٥ من أبواب الأمر والنهي، ص٢٢٩، ح١٣٩٥٨؛ البحار: ج٢، ص٢٤، ح٧٧؛ كنز الفوائد: ص١٦٢.

يهدد حياة المجتمع و أمنه و سِلْمه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[١] وللبحث في هذا مجال آخر.

ويتلخص مما تقدم: أن الناس يشتركون في حياة الأبدان ولكنهم يتفاوتون في حياة الأرواح؛ لأن الأولى جبرية والثانية اختيارية، وعلى هذا الأساس يكون الاختبار والثواب والعقاب والمدح والذم يقوم على الحياة الثانية لا الأولى.

وإن السعادة والشقاء كذلك يدوران على الثانية، والمؤمن هو الذي يعيش الحياتين معاً؛ لذا يكون سعيداً في دنياه وأُخراه، وقد ورد أنّ الذِكْر الجميل أحد العمرين[٢]، والعلم إحدى الحياتين[٣]، واكتسبوا العلم يكسبكم الحياة[٤]، والتوحيد حياة النفس[٥].

وأما غيره فلا يعيش إلّا حياة واحدة هي حياة البدن، وحياة البدن لا تحقق السعادة؛ لأن الأبدان محدودة وتصاب بالخمول والكسل والفتور والملل.

وأما حياة الأرواح فدائماً في شوق وتَوْق وتوثب وارتقاء؛ لأن المعنويات لا حدّ لها ولا ملل منها، ولذا قال تعالى عن حياة المؤمنين:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٢) روائع نهج البلاغة: ص٢٣٠.

(٣) روائع نهج البلاغة: ٢٣٠.

(٤) غرر الحكم: ح١٦١٢، ح١٦٢٦، ح٢٤٨٦؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٩٢، وفيه: ((اكتسبوا العلم يكتسبكم الجاه)).

(٥) عيون الحكم والمواعظ: ص٤٠؛ غرر الحكم: ح٥٤٠.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[١] فطيْب العيش الذي يبحث عنه الناس ويأخذ جُلَّ همومهم واهتمامهم ويبذلون له جهودهم ويتحملون لأجله المشاق والمتاعب ليس في الطعام والشراب واللباس والسيارات والقصور، بل بالإيمان والمعرفة والحكمة، أي بحياة الروح، وهي لا تكلِّف مالاً، ولا توجب الهمَّ، بل تفرِّغ من الهَمّ، ولا تسبب الشقاء بل السعادة، فعلى الإنسان أنْ يعرف أنه إذا سعى أكثر من الضرورة والحاجة إلى طعامه ولباسه وسكنه ورفاهيته فإنه سعى إلى موته وشقائه، ولو سعى إلى تعلمه وتهذيبه وهدايته فإنه سعى إلى حياته.

التعليم الثاني: قواعد للمبلّغين و المربين

وهي ثلاث قواعد هامة في التأثير و إصلاح النفوس أشارت إليها الآية:

القاعدة الأولى: وجوب التعريف بالغايات للأوامر والتعاليم والأنظمة لضمان النجاح وبيانها، وهذه القاعدة هامة للمعلم والمدرس والقائد، بل حتى في تربية الأطفال، فإن بيان الغاية في كل معلومة وتحليلها أو بيان الغاية من القانون والأمر و النهي يحقق فيهم الاستجابة، ويضمن أمرين:

الأول: ارتفاع مستواهم الفكري.

والثاني: ضمان انسجامهم النفسي مع التعليم وحضور الدافع الذاتي للالتزام عن قناعة.

و بخلاف ذلك إذا لا تعرف الغاية فإنه يُجابَه بأمرين:

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

الأول: الرد والإنكار وربما التمرّد.

والثاني: جمود المستوى. وضمان النجاح في كل تعليم وإرشاد يتم باستجابة المتعلمين، والاستجابة الذاتية لا تتحقق إلّا إذا عرف المتعلِّم الغاية والهدف منها، ولذا ورد في الحديث: «الناس أعداء ما جهلوا»[(١)].

هذا التعليم تعلِّمنا به الآية؛ إذ علَّلت بعثة النبيﷺ بالإنذار لإحياء القلوب وإتمام الحجة لأمواتها، وبهذا يزول جهل كبير كان غالباً ما يثيره الكفار وأتباعهم عن فائدة بعثة النبي، ومن باب المثال نقول: لو أنّ المعلم قال لتلاميذه لا تأكلوا الجبن فإنّ الكثير منهم ربما لا يستجيب، ولكن إذا قال لا تأكلوه لأنه يسبب ضعف الذاكرة فإنّ الكثير منهم يستجيبون، وهكذا الطبيب، وحتى قرارات الحكومة إذ بينتها من قبل وذكرت دواعيها وأغراضها فإنها قد تجد تفهماً من قبل الناس وتعاوناً معها، وبهذا تكون أقوى وأقدر على تنفيذ الخطط والمشاريع، وأما إذا انعزلت عن الناس ولم تطلع المجتمع على غاياتها ودواعيها فإنها قد تجد الكثير من الاعتراضات والمخالفات بسبب عدم المعرفة.

القاعدة الثانية: عند الحوار والتفاوض والمداولات العلمية والفكرية ينبغي اختيار أحياء القلوب لتكون المحاورات مثمرة، وتعطي النتائج الإيجابية، وأما أموات القلوب فلا يكون الحوار معهم إلّا جدلاً عقيماً.

وعلامة حياة القلوب قبول الإنذار والاستجابة للحق والاتعاظ من المواعظ، وأما أموات القلوب فلا تؤثر فيهم آيات الله ولا دعوات أنبيائه،

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٤٢، الحكمة ١٧٢؛ عيون الحكم والمواعظ: ص٦١.

ولذا يحق عليهم القول وتتم الحجة. نعم لهم أسلوب آخر في الحوار لسنا بصدد بحثه هنا.

القاعدة الثالثة: أنّ أفضل خطاب ووعظ وتعليم للبشر هو ما كان مستمدّاً من القرآن والسنّة حتى يكون مؤثراً ومفيداً لهداية الناس والارتقاء بهم، وأما الأفكار والمعلومات الأخرى فتجب أن تكون معززة ومؤيدة، فإنّ القرآن والسنّة يحييان القلوب أولاً ثم يهديانها، وهما معلمان للمؤمنين ومنذران لغيرهم، وبهذا يتّضح الجواب عن سؤال غالباً ما يثيره بعض أهل الدنيا ومن يعيشون بأبدانهم لا بأرواحهم ماهي فائدة وجود النبي والإمامعليهما السلام؟ وبالتبع ما فائدة وجود العالم والمبلّغ والخطيب؟ فإن الجواب يتلخص في أمرين هما: إحياء القلوب ليعيش الناس بأرواحهم فينالوا حياتين في الدنيا وحياة خالدة في الآخرة، وإتمام الحجة الإلهية على أموات القلوب.

التعليم الثالث: أركان الحجة

إنّ العذاب يكون بعد إتمام الحجة لاتمامها لتكون المؤاخذة بالاستحقاق، ولولاه كان ظلماً، وإتمام الحجة يتم بثلاثة أركان:

الأول: أن تتوفر على المقتضي للتصديق بأن تكون الحجة حقيقية واضحة لا خفاء فيها ولا إبهام وغموض.

الثاني: أن تصل إلى العباد ويعلموا بها.

الثالث: أن ترتفع الموانع من قبولها، فإذا كانت الحجة في نفسها حقاً وتامة ولكن لم تصل أو وصلت ولكن مشوهة فإنها لا تكون حجة

كاملة، ولذا جعل الباري عزّ وجلّ حجته المعصوم عليه السلام، وبعثه إلى العباد ومن أنفسهم، وجعله منزّهاً عن النواقص والأهواء والقبائح لكيلا يقع خلط وتشويه في الحجة، فقد نصَّ عليه القرآن في آيات عديدة؛ إذ جعل العذاب يدور على الاستحقاق، والاستحقاق يدور على إتمام الحجة لاتمامها كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾(١) وبمقتضى مفهوم الغاية أنّ عدم البعث ينفي العذاب، والغاية تفيد الوصول والوضوح، وبذلك تتّضح حقيقتان هامَّتان:

الأولى: صحة قول الأصوليين بإجراء البراءة في كل حجة لم تصل أو كانت مجملة غير واضحة الدلالة.

الثانية: بطلان جميع الدعاوى والفِرَق التي تدّعي شيئاً من المعنويات والمذاهب والأفكار، وتقوم على حُجَج خفيّة أو غامضة أو مُجمَلة ويَلفُّها الغموض، وبذلك تثبت علامة لعموم الناس في كشف أصحاب الادّعاءات الباطلة والفِرَق الضالَّة بأنه لا يمكن تصديق كل مَن يدّعي ويأتي لمدّعاه بأمور واهية واهنة ويلفّها الغموض والإبهام؛ لأنّ الله سبحانه إذا يريد أن ينصر عبداً ينصره بالحجج البيّنة والواضحة التي يدركها الجميع، كما يظهر بطلان السحر وأقوال السَحَرة وأمثالهم الذين يتبعون الطرق الخفيّة لإغواء الناس.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ
مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا
فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ

يس/ ٧١

لماذا ماتت أرواحهم؟

وردت بمنطوق الاستفهام الاستنكاري المقترن باللطف والرحمة لفتح صفحة جديدة من الحوار معهم بعد لسان التهديد والتحذير في الآية السابقة، والغاية من ذلك تعود إلى وجوه:

الأول: تصديق قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[1] إذ وصفَ بأنه ذِكْر لكن لسانه في الآية السابقة هو الإنذار لا التذكير وكان منذِراً، فجاءت هذه الآية بعدها ولسانها التذكير لإتمام الوصف وقطع العذر، وبهذا يتّضح الترابط الموضوعي للسياق.

الثاني: بيان سبب موتهم الروحي والإجابة عن سؤال قد يخطر في الأذهان ما هو سبب موتهم؟ والآية تجيب عن ذلك بأنهم لم يتّعظوا ولم يتعلَّموا حتى من أقرب الأشياء عندهم وهي الأنعام، فإنّ وجدانهم يشهد بأنهم لم يصنعوها ولم يُسخرِّوها ولم يُوجِدوا منافعها، وإنما هم مُنتفعون بها، كما لم تصنعها أصنامهم التي يعبدونها، ولا كبراؤهم الذين أضلوهم السبيل فاتَّبعوهم، وإنّما صانعها خالق عظيم ليس من البشر ولا من الأصنام، فلابد وإنْ يفكروا فيه لكنهم عموا عن ذلك وغفلوا، أو تغافلوا فكانوا أمواتاً يمشون على الأرض؛ لأنّ الذي لا يتفاعل مع الحقائق المحيطة به لا يفترق عن الميت.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

الثالث: بيان سبب عذابهم، وقد وردت بلسان الاستفهام الاستنكاري للإلفات إلى استحقاقهم لذلك، ومنطوق قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾[١] يحاكي منطوق قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ﴾[٢] فإنهما يشتركان في بيان استحقاق الذمِّ والمؤاخذة، لكن الغاية في تلك الآية الحثّ على الإيمان بلسان التحذير من ملاقاة المصير الذي لاقته الأمم السابقة عليهم، وهو عذاب الاستئصال في الدنيا فضلاً عن عذاب الآخرة، وفي هذه الآية الحث عليه بالتذكير بالنِعَم، وكلاهما يقومان على ركنين أساسين يشكلان دوافع البشر نحو الفعل والاستجابة هما: دفع الضرر وجذب النفع، والناس إذا حذروا خافوا واستجابوا، وإذا ذكروا شكروا واستجابوا وهذا ما ورد مضمونه في قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «لو لم يتوعَّد الله على معصيته لكان يجب أنْ لا يُعصى شُكراً لنِعَمِه»[٣] لكن هؤلاء لم يستجيبوا لا لنداء التحذير ولا للتذكير فكان عذابهم مستحقاً.

الرابع: بيان شدة الموت الروحي الذي يعيشون فيه وعمق الخواء العقلي والقلبي الذي يعانون منه؛ لأن حتى أهل الدنيا يحبون مَن يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضرر ويتبّعونه اتِّباع انقياد وطاعة، وهذا قانون حاكم حتى في الحيوان، فإنه يطيع ويتبع مَن يطعمه ويسقيه ويريحه، ولكنهم لم

(١) سورة يس: الآية ٧١.

(٢) سورة يس: الآية ٣١.

(٣) نهج البلاغة: ج٤، ص٧٠، قصار الحكم ٢٩٠؛ تفسير الكاشف: ج٦، ص٣١٤.

يعملوا حتى بطريقة أهل الدنيا ولا بطريقة الحيوان؛ إذ أعرضوا عن الأنعام الحيّة المدركة والنافعة لهم وعبدوا الأصنام والأوثان وهي لا تُدْرِك ولا تَسمع ولا تَعقل ولا تَدفع لضرّ، ولا تأتيهم بنفع، ولو يجري العاقل -في حدود عقل أهل الدنيا- مقارنة بين عبادة الأنعام وعبادة الأصنام فإنه يجد أنّ عبادة الأنعام أولى؛ لأنّها متفاعلة معهم ونافعة لهم، ولو تجردوا عن محدودية عقول أهل الدنيا وانطلقوا إلى آفاق العقول الإنسانية الكاملة لتوصلوا من الأنعام إلى خالقها وموجدها الذي سخرها لهم ونفعهم بها، لكن هؤلاء تركوا ما ينفعهم وعبدوا ما لا ينفعهم، وهو نوع انحدار عميق في الفكر والفهم نزلوا به إلى دون مستوى طريقة الحيوان.

ومعلوم أنّ هذه علامة تكشف عن مستوى هؤلاء الذين حاورهم النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، وهو نموذج مَن يماثلهم في التفكير كالماديين الملاحدة، بل الملاحدة أدنى رتبة منهم؛ لأنهم ينفون وجود الخالق. هؤلاء على ما لهم من انحدار في مستواهم الفكري ما أنكروا وجود خالق للأشياء لكنهم اشتبهوا في التطبيق في العبادة، فعبدوا الأصنام بدلاً عن عبادة الله سبحانه، فلم ينكروا وجوده. أما الملاحدة ينكرون الوجود وهذا هبوط أعمق في الفكر.

وتفصيل هذه الحقائق يتم ببيان مباحث الآية:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾

(الهمزة) للاستفهام، و(الواو) عاطفة، و(لم) نافية، ومجموعها تفيد الاستفهام الاستنكاري على عدم الرؤية أي المشاهدة بأقسامها الثلاثة البصرية والعقلية والقلبية، ومتعلق الرؤية هو الخلق والخالق، وهذا من لطائف التعبير؛ لأنه علَّق الرؤية على أمر غير محسوس؛ لأن الناس لا يرون كيفية الخلق ولا يرون الخالق وإنما يرون المخلوق فيشاهدونه ويتعاملون معه، فلماذا ذمَّهم على أمر لم يروه؟

والجواب: أنّ رؤية الخلق والخالق ممكنة وحاصلة بطرق ثلاثة:

الأول: طريق العقل، فإنّ العقل السليم يدرك أنّ الخلق والمخلوق لم يكن من نفسه ولم يكن من مثله، فلا إنسان صنعهُ ولا صنم، ولا هو صنع نفسه، فلابد أنْ يكون له صانع أعظم وأكمل فيرى الخالق بالخلق.

الثاني: طريق القلب؛ لأنّ الإنسان بالفطرة يدرك وجوده وأنه ليس من نفسه، ولا يمكن أن يكون من مخلوق مثله، فلابد وأنْ يكون من غيره، ولابد وأن يكون الغير أكمل وأقوى وأعلم منه.

الثالث: طريق الحسّ عبر المشاهدة الحسيّة للمخلوق وخصائصه وكيفية وجوده ونموّه وفنائه كالأنعام فإنه يدرك بأنه ليس من صنع الإنسان ولا من صنع الأصنام ولا من صنع حيوان مثله، فلابد وأن يكون من صانع أعظم وأكمل من ذلك كله.

والنتيجة: أنّ الرؤية ممكنة التعلق بالخلق والخالق سوى أنّ رؤيتها الأولى والثانية مباشرة؛ لأنها تدرك بالعقل والقلب، وأمّا الرؤية الثانية بالواسطة لأنها حسيّة.

والفرق أنّ العقل يبصر العلاقة الضرورية بين العلة والمعلول، والقلب يدرك بواسطة الانجذاب الفطري إلى مَن أحسنَ إليه، والبصر عبر رؤية البدن وخصائصه ونظامه، وهذه هي أدوات المعرفة والإدراك. هذا وقد فسَّرَ البعض الرؤية بالعلم[1]، والمعنى أولم يعلموا، وهو ضعيف من وجوه:

الوجه الأول: أنه خلاف النصِّ والظهور.

والوجه الثاني: أنه خلاف قاعدة أصالة الحقيقة، فلا يحمل اللفظ على المجاز إلّا مع القرينة وهي مفقودة.

والوجه الثالث: أنه ممتنع في نفسه؛ لأنه مبني على أساس العِلم المسبق بالخالق حتى يعلموا بخلقه، وهو خلاف منطوق الآية التي وصفتهم بالكفر على أنّ العلم لا يشترك فيه جميع الناس؛ إذ ينقسمون إلى عالم وجاهل، ولو أريد به العلم لكانت الآية حجة على العالم، وكان للجاهل أنْ

---

(١) انظر التبيان: ج٨، ص٣٦٠؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٨؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٨.

يقول في جواب الاستفهام (أولم يعلموا) أن يقول: لا لم أكن أعلم، وهو خلاف غرض الآية، بخلاف الرؤية العقلية والقلبية والحسية فإنها مشتركة بين جميع البشر، وأسبابها متوفرة لديهم، وهم يختلفون فيها من جهة الاهتمام وعدمه، فأحياء القلوب يهتمون بذلك وينظرون في الحقائق للوصول إلى الحق، وأما أمواتها فيهملون ذلك ولا يبالون فيكونون مقصرين في كفرهم؛ لذا يستحقون العذاب. هذا والذمُّ على عدم الرؤية يتضمَّن دلالتين:

الأولى: أنّ المرئي موجود وحاضر يمكن إدراكه إذا توفرت أداة الرؤية، وكلاهما كانا موجودين، ورغم ذلك هؤلاء لم يؤمنوا، ومعنى ذلك أنهم كانوا يملكون الأدوات ولكن قلوبهم وعقولهم ميتة لا تدرك ولا تبصر ما ترى، فهم أحياء بأبدانهم وأموات في أرواحهم، ولذا لا يكون جزاؤهم إلّا جهنم، وهو ما أخبرَ عنه الباري عزّ وجلّ بقوله: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[(١)].

الثانية: أنّ الرؤية توصل الإنسان إلى حقائق عالَم الغيب إذا راعى موازينها استناداً إلى البرهان الإنّي الذي ينتقل فيه من معرفة المعلول وحالاته إلى معرفة العلة وخصائصها، فالقصور في الإيمان وعدمه ليس في ذات المرئي ولا في أداة الرؤية بل في الرائي، ولذا يُحاسَب ويُجازى على تقصيره فيها.

---

(١) سورة الأعراف: الآية١٧٩.

وضمير الجمع (نا) في قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾[١] يشير إلى جمعية الصفات الإلهية أو العلل التوسيطية، والثاني أقوى؛ لتنزهه سبحانه عن خلق الأشياء الدانية بالمباشرة، والمستفاد من النصوص أنّ المخلوق الأول الذي خلقه سبحانه في عالَم الدنيا وحياة الأرض مباشرة هو آدم عليه السلام[٢]، وفي عالَم الوجود مَن هو أكمل منه وهم محمد وآل محمد عليهم السلام؛ إذ قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٣] على تفصيل لسنا بصدده هنا.

وبقرينة قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[٤] يستفاد أنّ المراد المعنى الثاني أي الخلق بواسطة العلل التوسيطية، والخلق يُطلق على معنيين الإبداع أي إيجاد الشيء من غير أصل ولا احتذاء كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٥] أي أبدعهما، والصنع أي إيجاد الشيء من الشيء[٦] كما في قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٧] والأول ينطبق على خلق أصول الأنعام أي الأب والأم لكل صنف فيها، والثاني ينطبق على أولادها؛ لأنها مخلوقة منها، وقد اصطلح أهل المعقول على ما يخلقه الباري عزّ وجلّ بكلمة

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.
(٢) انظر سورة الحجر: الآية٢٨-٢٩.
(٣) سورة الرحمن: الآيتان ٣-٤.
(٤) سورة يس: الآية ٧١.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١؛ سورة يس: الآية٨١.
(٦) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٦، (خلق).
(٧) سورة النحل: الآية٤.

(كن) بعالَم الأمر؛ لأن قوله: (كن) أمر، وعلى ما يوجده الباري بالأيدي والأسباب بعالَم الخلق[١]، و(اللام) للغاية، وتتضمَّن الفضل والامتنان والتكريم لهم؛ لأنهم غاية لخلق الأنعام، فلولاهم ما خُلِقَتْ، بل جميع الأشياء لولاهم ما خُلِقَتْ، فإنّ كل ما في الأرض خُلِقَ لأجل الإنسان. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[٢] وكل ما في السماء مسخّر لخدمته. قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾[٣].

ولعلّه جعل مخلوقات الأرض غاية ومخلوقات السماوات مسخَّرات؛ لأن الأولى يمكن أن تنالها يد الإنسان ويوظفها لخدمته في المنافع المادية والمعنوية، فهي مملوكة له، بخلاف ما في السماوات فإنها لا تملك لتعذُّر حيازتها، ولكنها مُسخَّرة له، فتمكين الانتفاع بآثارها منفعة مادية كالشمس والقمر والمطر، أو منفعة علميّة.

ويتلخص: أنّ الأشياء مخلوقة للبشر، فهو غاية لتكوينها وإيجادها، وينتفع منها بمنافع ثلاث:

الأولى: منفعة تغذية وتنمية وطعام وكساء وشراب ودواء.

الثانية: منفعة ترفيه وترويح وسكونة قلبية ونفسية، فإنّ الإنسان بحاجة إلى ذلك، وطريق ترويحه سائر المخلوقات.

---

(١) تفسير الكاشف: ج٢٣، ص٣١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية٢٩.

(٣) سورة لقمان: الآية٢٠.

الثالثة: منفعة علمية توصله إلى الحقائق والمعارف الغيبية، فإنّ المخلوق طريق معرفة الخالق، ونظمها وآثارها دلائل حكمة صنعه ودقته.

والأنعام هي أكثر ما تفيد الإنسان هذه الفوائد الجمّة؛ لأنها جامعة لسائر المنافع، بخلاف غيرها فربما بعضها يفيد في الغذاء ولا يفيد في اللباس، أو يفيد في اللباس ولا يفيد في الدواء، وبعضها قد ينفع في التغذية ولواحقها ولكن لا ينفع في الترفيه، وبعضها قد ينفع في الترفيه ولا ينفع في غيره، إلّا الأنعام فإنها جامعة لكل المنافع، وفي عين الحال هي قريبة منه، فحجيتها عليه تكون تامّة؛ لأنها حق واضح وأصل بلا تشويه كما عرفته في الآية السابقة.

وفي ذلك دلالة هامّة على حقيقة أنّ الإنسان هو محور الوجود الإمكاني، وهو غايته، وهو الأحق بخلافة الله سبحانه في الأرض لا الملائكة ولا الجنّ ولا غيرهما من المخلوقات، ومن هنا كان الأنبياء والأولياء من البشر وليسوا من غيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**خَلَقْنَا لَهُم**﴾[١] في مقام الذمِّ دلالات أخرى هامة:

الأولى: لتحريضهم على التجرُّد من الصفات الأنعامية في أبدانهم والارتقاء إلى الصفات الإنسانية، فقول ﴿**أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ... أَنْعَامًا**﴾[٢] فالأنعام هي مخلوقة لهم وهم غايتها، فلا ينبغي أنْ يكونوا مثلها في الصفات

(١) سورة يس: الآية ٧١.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

والخصائص يعيشون حياتهم البدنية همّهم الطعام والشراب والشهوة ولا يعيشون الحياة الروحية.

الثانية: أنّ الأنعام خُلِقَتْ وسيلة لهم لأجل نفعهم وإيصالهم إلى أفضل المصالح المادية في الطعام، والمعنوية في الرفاه والعلم والمعرفة، فلا ينبغي أنْ يجعلوها غاية لهم تأسرهم ثرواتها أو صفاتها.

الثالثة: أنا خلقنا الأنعام رحمة لهم ولطفاً بهم، فيجب أن يشكروا هذه النعمة بعبادتنا لا عبادة شهواتهم وصفاتهم الحيوانية.

فإنّ الصفات الحيوانية تميت قلوبهم وعقولهم، وتوجرهم بالنار، وأمّا صفاتهم الرحمانية فترتقي بهم إلى صفات الإنسان الذي يليق بمقام الخلافة الإلهية في الأرض.

المفردة الثانية: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾

(من) يمكن أن تكون تبعيضيّة، أي من بعض ما عملت أيدينا، وهو كل عالَم الإمكان. والبعض هو الأنعام خلقها لهم وهو الأظهر، ويمكن أن تكون ابتدائية فتفيد الإبداع في الخلق، فتدل على أنّ أصول الأنعام خُلِقَت مباشرة، وأما أولادها بالتوالد كما هو الحال في البشر؛ إذ خلقَ آدم وحواء أولاً، ومنهما بَثَّ رجالاً ونساءً: **﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء﴾**[(١)] وتتضمَّن الإشارة إلى ابتداء نعمة

---

(١) سورة النساء: الآية١.

الايجاد، قبل استحقاقها وهي من أفضل النِعَم، ولا تنافي بينها وبين التبعيضية، ويمكن أن تكون جنسية، والمعنى خلقنا لهم من جنس ما خلقنا أنعاماً، وهو بعيد عن الظهور، بل ممتنع؛ لاستلزامه تحصيل الحاصل لعدم وجود جنس آخر غير مخلوق له حتى يتميَّز ما خلقه عمّا لم يخلقه. والحق هي التبعيضية، وتتضمَّن الإبداع في الخلق.

و (ما) إمّا مصدرية أو موصولة، وهي الأظهر والأوفق بمعنى الآية؛ لأن المصدرية مبهمة، بخلاف الموصولة فإنها تعود إلى ما هو معروف وهو الأنعام، و (التاء) في (عملت) للتأنيث، و (العمل) الفعل الصادر عن علم وقصد وإرادة؛ لذا لا يطلق إلّا لما يفعله الباري عزّ وجلّ أو الإنسان والجنّ والمَلَك، فهو أخصُّ من الفعل[١].

(أيدينا) الأيدي جمع يد، وتطلق على معان هي: الجارحة والنعمة والقوة والنفوذ والمُلك والسلطان وغيرها من المعاني[٢]، والأصل فيها كما قيل الجارحة[٣]، وأطلقت على غيرها مجازاً من باب علاقة السببيّة والمسببيّة أو التشابه في الأثر، فإنّ اليد مظهر القوّة والفعل والتأثير، وبها يحوز الإنسان ويمتلك الأشياء ويتصرَّف فيها.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٢، (١٢٩٠).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩٠، (يد)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٨٨، (يدا)؛ المعجم الوسيط: ج٢، (١٠٦٣)، (يداه)؛ وانظر التبيان: ج٨، ص٣٦٠.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٩، (يد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٩، (يد).

وفي حديث محمد بن عبيدة قال: سألت الرضاعليه السلام عن قول الله تعالى لإبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾[١] قالعليه السلام: ﴿يعني بقدرتي وقوتي﴾[٢] وهو من التأويل؛ لامتناع إطلاق الجارحة عليه سبحانه، والمعنى ألم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت قدرتنا.

والجمع في (أيد) والإضافة إلى ضمير الجمع (نا) يتضمنان فوائد:

الأولى: تكريم المصنوع بكرامة الصانع وعلوّ قدره، وفيه دلالة على احترام الأنعام وكرامتها عند الله سبحانه، ولذا ورد في الأخبار أنها من موجبات البركة في الرزق والتواضع في الأخلاق والصبر والرزانة في المشي والإيمان والمعرفة؛ لأن كل شيء فيها يدل على الله سبحانه، وهو نافع لا ضرر فيه[٣].

الثانية: الإشارة لجمعية الصفات الإلهية.

الثالثة: الإشارة إلى أنّ الخلق لم يكن بالمباشرة بل بالأيدي، وهي بالعلل التوسيطية، والجمع يفيد الكثرة؛ لأنها ثلاثة أقسام:

الأول: يد القوة، ويراد بها القوانين والسنن الطبيعية التي أودعها الباري في الوجود، ومنها تنشأ الأشياء وتتوالد، فلكل موجود قانون

---

(١) سورة ص: الآية ٧٥.

(٢) التوحيد: ص١٥٤، ح٢؛ وانظر البحار: ج٤، ص١٠، ح٢٠؛ تفسير البرهان: ج٤، ص٦٤، تفسير الآية المذكورة.

(٣) انظر روح البيان: ج٧، ص٤٣٠-٤٣١.

نافذ كما في المطر والشجر وإنبات الأرض ونمو الجبال وضمورها وهكذا، وهذا قانون تكويني حاكم في الأشياء، وهو يد الله سبحانه في الأشياء؛ لأن به يؤثر فيها.

الثاني: يد الفعل، ويراد بها وسائط التدبير الإلهي في الخلق والإيجاد وحوادثها كالملائكة التي يدبر الباري عزّ وجلّ أمور التكوين بها، وللأسماء الحسنى باعتبار أنّ كل أثر في العالَم يحدث بواسطة اسم خاص من أسمائه عزّ وجلّ[١].

الثالث: يد الأمر والسلطة، وهم أشرف مَن خلق وأكمل عباده محمد وآل محمدعليهم السلام؛ إذ جعلهم خلفاءه في خلقه وحججه على عباده، وأودعَ فيهم عِلمه وقدرته وإرادته فصاروا مظهر جماله وجلاله، وتتجلى فيهم إرادة الله وأمره ونهيه، وهم اليد الأولى لمشيئة الله في الوجود، ولهم يدان منفّذة هما: الملائكة والقوانين، فإنها طوع أمرهم وإرادتهم، وكذلك الأسماء الحسنى؛ لأنهمعليهم السلام مظهر أسمائه وصفاته كما تواتر في الأخبار.

والآية أشارت إلى أمرين هما الخلق والعمل، ونصَّت على أنّ خلق الأنعام تمَّ بأيد عاملة، والغاية هم ﴿**أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**﴾[٢] فلم يكن الخلق بالمباشرة، بل بواسطة الأيدي العاملة، كما أنّ نسبة الفعل إلى الأيدي يدل على التفويض والاختيار المطلق فيه، وهذا مفاد قوله: ﴿**هَذَا**

---

(١) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٩١؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٨.
(٢) سورة يس: الآية ٧١.

عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾[1] وما دلّت عليه الأخبار: ﴿إذا شئنا شاء الله﴾[2] فَيَدُهُم عليهم السلام مبسوطة في الخلْق، ومن الإضافة إلى ضمير الجمع يستفاد عدة دلائل:

الأولى: أنّ الأيدي العاملة في الوجود تنوب عن الخالق عزّ وجلّ في الفعل والتأثير، وهي ليست نيابة فعل فقط، بل نيابة تكريم وتشريف؛ لذا فاقت جميع المخلوقات في كرامتها وجلالتها عنده، وتولّت مقام الخلافة عنه سبحانه.

الثانية: أنّ قدرتها وإرادتها نافذة في الأشياء؛ لأنها تمثل قدرة الله وإرادته قد أعطاها الباري عزّ وجلّ هذه القدرة والكرامة.

الثالثة: أنّ فعلها وقولها وإرادتها تطابق فعل الله وقوله وإرادته، وبهذا تثبت عصمتها وسعة علمها وولايتها التكوينية على المخلوقات والتشريعية على الأحكام، كما يتّضح معنى الكثير من النصوص الشرعية التي دلّت على أنّ معرفة الله وعبادته وطاعته كلها تبدأ منهم وتنتهي إليهم عليهم السلام، وأن طاعة الله بطاعتهم، ورضاه برضاهم، ومعصيته بمخالفتهم، وعداوته بعداوتهم، وولايته بولايتهم.

والروايات بهذا المعنى متواترة:

منها: ما رواه الكليني قدس سره في الكافي عن مروان بن صبّاح قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إنّ الله خَلَقَنَا فأحسنَ خَلْقَنا، وصوَّرنا فأحسنَ صُوَرنا،

---

(١) سورة ص: الآية ٣٩.

(٢) البحار: ج٢٦، ص١٤، ح٢؛ مجمع النورين: ص٢١٤.

وجَعَلَنا عينهُ في عباده، ولسانهُ الناطق في خَلْقهِ ويَده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابهُ الذي يدلّ عليه، وخُزّانه في سمائه وأرضه. بنا أثمرَتِ الأشجار، وأينعَتِ الثمار، وجَرَتِ الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء، وينبت عُشب الأرض، وبعبادتنا عُبِدَ الله، ولولا نحن ما عُبِدَ الله»[1].

وفيه دلالات صريحة على التوازن في العقيدة الحقَّة، فلا ينبغي أنْ يتسَّرع متسرِّع فيقع في الإفراط والتفريط:

الأولى: أنه عليه السلام ينصّ على أنهم عليهم السلام مخلوقون مصنوعون لله سبحانه، فهم عباد لله سبحانه وليسوا معبودين، وهم مخلوقون لا خالقون.

الثانية: أنّ كل ما لديهم من الكرامات والآثار هي من الله سبحانه، هو الذي جعلهم عينه ولسانه ويده في خلقه، فكل ما لهم من الفضل ليس من أنفسهم بل من الله سبحانه.

الثالثة: أنهم خُزّان الله في سمائه وأرضه، أي في كل عالَم الإمكان؛ لأنّ هذا العالَمَ لا يعدو السماوات والأرضين، ومعنى أنهم خزانه أي على عِلمه وإرادته وأمره كما دلت عليه الروايات الأخرى[2].

الرابعة: أنّ (الباء) في قوله عليه السلام: (بنا) للسببيّة، فتفيد أنهم اليد الإلهية النافذة في الأشياء، وهو ما دلت عليه الآية المباركة، ومعلوم أنّ السببيّة غير

---

(١) الكافي: ج١، ص١٤٤؛ التوحيد: ص١٥١، ح٨.

(٢) انظر الكافي: ج١، ص١٩٢، ح١- ح٦.

العِّليّة فإنَّ السبب له جزء التأثير بخلاف العلّة فإنّ لها كل التأثير، وهم عليهم السلام أسباب ووسائط في الإيجاد والخلْق وليسوا علّته، فإنهم ما به الوجود أمّا هو سبحانه فمنه الوجود.

ومنها: ما رواه العلّامة المجلسي قدس سره في البحار أنه سُئِلَ الباقر عليه السلام لأي شيء يحتاج إلى النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام؟ فقال: «لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام. قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾(١) وقال النبي صلى الله عليه وآله: النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قَرَنَ الله عزّ وجلّ طاعتهم بطاعته فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(٢) وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون ولا يعصون، وهم المؤيَّدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم يعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض، وبهم يمهل أهل المعاصي ولا يعجِّل عليهم بالعقوبة والعذاب. لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه، ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين»(٣).

---

(١) سورة الأنفال: الآية٣٣.

(٢) سورة النساء: الآية٥٩.

(٣) البحار: ج٢٣، ص١٩، ح١٤؛ و انظر علل الشرائع: ج١، ص١٢٣، ح١.

وتضمَّنت دلالات على ما ذكرنا:

الأولى: أنّ وجود النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام سرّ بقاء العالَم الإمكاني وعدم زواله حدوثاً وبقاءً وغايةً. أمّا الأول فلأنه السبب المتصل بين الخالق والمخلوق، وأما الثاني فلأنه الحافظ له من الاختلال والانهدام، وأما الثالث فلأن الله سبحانه لا يخلق الكامل لأجل الناقص بل الناقص يُخْلَق لأجل الكامل، وهم عليهم السلام أكمل المخلوقات وأرقاها رُتبة.

الثانية: أنّ النجوم أمان لأهل السماء؛ لأنها سبب توازنها التكويني فلا تصطدم مع بعضها، ولا يختل نظامها، كذلك وجود الإمام عليه السلام على الأرض لولاه لأختل نظام الأرض واضطربت وساخت بأهلها، وبهذا يتضح الجواب عن أسئلة عديدة قد تدور في أذهان البعض منها ما هي فائدة وجود الإمام؟ ولماذا نحتاج إليه؟ ولماذا يجب أن يكون الإمام في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة؟ وأن يكون مسكنه الأرض لا مكاناً آخر؟

ومنشأ الخطر وعدم الأمان يعود إلى العذاب الإلهي الذي ينزل بالبشر بسبب كفرهم وجحودهم وعصيانهم، ولو التفت الناس إلى ما يُرتكَب على الأرض من ظلم وجور وجنايات لأدرك أنها تستحق نزول العذاب الإلهي بالاستئصال كما مرَّ على الأمم السابقة، إلّا أنّ أمّة الإسلام وببركتها سائر الأُمم نجت من عذاب الاستئصال ببركة وجود النبيّ والإمام عليهما السلام على الأرض، فإن قال قائل: لكننا نرى أنّ المؤمنين يمرّون بمشاكل وأزمات ويعيشون العذاب.

فالجواب:

أولاً: أنّ هذا العذاب بالنسبة للبعض ليس من الله بل من عند أنفسهم، وبالنسبة للبعض هو اختبار وامتحان لهم.

وثانياً: أنّ العذاب المرفوع هو عذاب الاستئصال الذي يفني ما على الأرض ويبيده.

الثالثة: أنّ (الباء) للسببيّة، فالله سبحانه هو الرازق المحيي ولكن بواسطتهم وبسببيتهم، كما أنّ بهم يمهل أهل المعاصي فلا يُعجِّل لهم العذاب مع أنهم الحجة التامة عليه، لكنهم في عين الحال هم رحمة الله ورأفته، فلا يعجِّل العذاب وهم على الأرض موجودون.

الرابعة: أنّ بركاتهم وآثارهم ناشئة من روح القدس التي أعطاهم الله سبحانه إياها، ومن آثار القرآن الذي لا يفارقهم ولا يفارقونه، فكل ما لديهم من الله وليس من عند أنفسهم.

ويتلخص: أنّ الآية المباركة دلت على أنّ الواسطة بين الله وبين خلقه وبها خلق الأنعام يتمتعون بمزايا إلهية عالية، وهم مظهر قدرة الله وإرادته ومجلى أسمائه وصفاته، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام كما نصَّت عليه الروايات المتواترة.

المفردة الثالثة: ﴿أَنْعَامًا﴾

الأنعام هي الإبل خاصة أو ما يشملها، والبقر والغنم والبهائم[١] قيل لا يقال لها أنعام حتى يكون في جملتها الإبل. سُمّيَت بذلك لأنها عندهم كانت أعظم نعمة[٢]، ومنافعها لهم عامّة، ولا يمكن الاستغناء عنها في تدبير معاشهم ومعادهم ويوميات حياتهم، بخلاف غيرها فإنّ أهم ما يحتاجه الإنسان في مؤونته السكن واللباس والطعام والشراب والحركة والسفر، وهذه جميعاً تؤخذ من الأنعام، فطيب العيش ورفاهه وصلاحه يتقوَّم بها[٣].

وهي في عين الحال تدلهم على ربهم وتهديهم إليه، وقيل سمّيَتْ أنعاماً لأنّ في سيرها وآثارها ليناً ونعومة، ولذا لا يدخل فيها الخيل والبغال والحمير لشدة وطئها وخشونتها، وفي عين الحال هادئة وديعة واثقة في مشيها، ورزنة في حركاتها، خاضعة متواضعة، وفي ذلك كله تعليم للبشر[٤] وتهذيب على خصال العبودية من التواضع والخضوع والرزانة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٩٩٧، (نعم).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٥، (نعم).
(٣) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٩؛ التفسير الأصفى: ج٢، ص١٠٤٢.
(٤) روح البيان: ج٧، ص٤٣٠-٤٣١.

المفردة الرابعة: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾

(الفاء) للتفريع وترتيب الأثر على الغاية، فإنّ غاية خلق الأنعام هو انتفاع البشر بها، ولا تتحقق هذه الغاية إلّا بتسخيرها لهم وامتلاك الانتفاع بها والتصرُّف فيها بمختلف التصرفات، وهو معنى المُلك، فإنّ المُلك هو السُلطة على التصرُّف بالشيء، والمالِك هو المتسلِّط على التصرُّف فيما يملك وله أثران:

أحدهما: أنه حرّ في تصرُّفه فيه وليس لأحد منعه منه.

وثانيهما: أنّ كل من يريد التصرُّف فيه يجب أن يستأذنه فيه[1].

وتنصُّ الآية على أنّ الأنعام المخلوقة للناس بما فيهم الكفار وهم مالكون لها قادرون على التصرُّف فيها بأنحاء التصرفات، وقوله: ﴿**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾ تحتمل أن تكون جملة خبرية كاشفة عن واقع الحال، أي هم يتصرفون بها تصرُّف المالِك بالرغم من أنهم لا يملكون سبب التمليك، وتحتمل أن تكون جملة إنشائية تفيد جعل الملكية لهم وإن كانوا في الواقع غير مالكين، وعلى الاحتمال الأول يكون تصرفهم فضولياً وهو قبيح، ولا يصح إلّا بإذن المالِك الحقيقي، وعلى الاحتمال الثاني تفيد جعل الإذن والاعتبار، ويحتمل أنْ تكون خبرية في مقام الإنشاء وهو الأوفق بالظهور والقواعد، بل الأول باطل، والثاني لا ينفي الثالث، فهي على كل تقدير تفيد الكرم والرحمة الإلهية بالعباد؛ إذ جعلتْ مَن لا يستحق المُلك مالِكاً وحُرّاً في التصرُّف فيما لا يملكه، وهنا سؤالان:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٤٧٣، (١٩٠٠).

السؤال الأول: أنّ الآية المباركة نصَّت على مُلكية الناس للأنعام وهو نوع جعل وعطاء وهبي إلهي لهم، وهذا يستدعي أن يثبت أن الواهب مالِك ثم يَهِبُ مُلكه للغير ولم تذكر الآية ذلك؟

والجواب: للاستغناء عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: لأن المُلك قسمان حقيقي واعتباري، والأول ينشأ من الخلق والإيجاد فالخالق الموجِد مالِك لذات المخلوق وسائر شؤونه، وبقوله: ﴿**خَلَقْنَا لَهُمْ**﴾(١) دل على الملكية الحقيقية، وقد أباح لغيره أنْ يتصرَّف فيما خلَق.

الوجه الثاني: لأن ملكيته سبحانه للأشياء بديهية لا تفتقر إلى دليل ولا جعْل واعتبار؛ لأنها حقيقية تكوينية، بخلاف ملكية غيره فإنها عَرَضيّة لا تحصل إلّا بالجعل والتفويض.

ومن ذلك يتّضح أنّ المُلك الحقيقي يتميَّز بمزايا ثلاث:

الأولى: أنّ سببه الخلق والإيجاد.

الثانية: أنْ يكون بالسلطة على الذات وشؤونها.

الثالثة: أنه حق ثابت لا يقبل الزوال ولا النقل والانتقال.

بخلاف المُلك الاعتباري الجعلي فإنه:

أولاً: سببه جعلي واعتباري ناشئ من تفويض المالِك الحقيقي له كما في البيع والشراء، فإنّ المالِك الحقيقي قرّرهما كسبب لنقل المُلكية أو الحيازة

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.

للمُباحات، فإنّ المالِك الحقيقي أذِنَ للعباد أنْ يتصرَّفوا فيما خَلَقَهُ وأوجدهُ تصرُّف المالِكين لأجل الانتفاع.

وثانياً: أنّ السلطة فيه تتعلق بالتصرف بالذات والانتفاع بها، ولا تكون للذات، فمثلاً الأرض والسماء والهواء والفضاء والمياه والحيوانات والأشجار والأثمار وكل ما في الوجود لا يملك البشر ذواتها، بل يملكون التصرف فيها؛ لأن ملكية الذات مختصَّة بالمُوجِد. أمّا ملكية التصرف فقد أباحها الموجِد لينتفع بها الناس، وهذا لطف عظيم منه.

وثالثاً: أنّ هذا المُلك متغيّر وليس ثابتاً ينتهي بموت المالِك ويزول بتلف المملوك، ويقبل الإنتقال بالمعاملات والعقود وصيغة اسم الفاعل في (مالكون) تدل على أنّ قانون المُلكيّة والتمليك جار في الوجود ولا يتغيَّر ولا يتبدَّل حتى يرث الله الأرض ومَن عليها، ويعود كل شيء إلى مالِكه الحقيقي.

السؤال الثاني: لماذا قدَّم الضمير العائد على الأنعام أي (لها) على المِلك فقال: ﴿**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾[(١)] ولم يقل(فهم مالكون لها) أو (يملكونها)؟

والجواب: للإشارة إلى أمور:

الأول: لإلفات الإنسان وجذب قلبه وإحساسه وشعوره إلى محبّة الخالق الواهب والخضوع له؛ لأن من طبْع الإنسان حُبّ التملُّك والاستملاك وانجذابه إلى ما ينفعه ويجلب له اللَّذة، وقد خلق الباري له

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.

الأنعام وجمعَ فيها كل ما ينفعه ويُطيّب عيشه ويُرفهه، وقد ملَّكه إياها لعلَّه يصحو من غفلته ويشكر نعمة ربّه.

كما يشهد له قوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾[1] و: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾[2] وإنّما خصَّ ضمير المخاطبين وهم الكفار والمعاندون بالذكر؛ لأنهم الذين يفتقرون إلى هذه الصحوة، وأمّا المؤمنون فهم مُذعنون.

الثاني: للإشارة إلى أنّ ملكيتهم لها ناشئة من تسخيرها وتطويعها لهم بحيث يقدرون على التصرُّف فيها كيفما يشاؤون، فلا تتمرَّد عليهم ولا تخالف لهم رغبة، ولو شاءت فعلَتْ، وحينئذٍ يتعذَّر على المائة من الرجال الأشدّاء تطويع جَمَل جامح أو ثور هائج، وبقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[3] كشفَ عن واقع الحال، وهي أنها مسخَّرة لهم فيملكون التصرُّف فيها، ولو قال: (فهم مالكون لها) لا يدل على هذه الحقيقة؛ لأنّ المالك قد لا يقدِر على التصرّف فيما يملك لخروجه من قبضته، كالطائر إذا فرَّ من يد صاحبه فإنه مالكه ولا يقدر على التصرّف فيه، وبهذا تظهر سعة رحمة الله ولطفه بعباده، فإنه لو لم يخلقها لهم لَمَا ملكوها، ولو لم يسّخرها لهم لما انتفعوا بها، ولتعذَّرَتْ حياتهم، ولو تمَّرَدَتْ عليهم جعل طريقاً لتذليلها وتطويعها لإرادتهم.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٢.

(٢) سورة يس: الآية ٧٣.

(٣) سورة يس: الآية ٧١.

ففي تفسير نور الثقلين عن الصادقعليه السلام قال: ﴿بينما هو في سفر إذ نظرَ إلى رجل عليه كآبة وحزن، فقال له: ما لكَ؟ قال: دابَّتي حرون – أي لا تنقاد فأتْعبَته – قال: ويحك اقرأ هذه الآية في إذنه: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾[(١)] ﴾[(٢)].

وفي ذلك دلالة على أنّ الدابة تفهم الخطاب القرآني – ولو في الجملة – وأنها تعلم بتسخير الله سبحانه لها، و تتذكر ذلك إذا نسيت، وتستجيب للتذكير

الثالث: لبيان استغنائه عن خلْقه، وإنما يوجد الأشياء ويتمّها ويسخِّرها للإنسان لأجل نفعه وإسعاده، ولذا لم يقل (خلقناها لهم ونحن لها مالكون) لأنه سبحانه غني عن الخلائق ومستغن عن الملك والمملوك.

ويتحصّل: أنّ الجملة المباركة دلت على أنّ الأنعام مملوكة بالمُلْك الحقيقي لله سبحانه بمقتضى الخَلْق والإيجاد، وبالمُلْك الاعتباري بالجَعْل والتسخير؛ لتكون آية للناس، وهذا التمليك لطف إلهي ونعمة عظيمة تستحق الذكر والشكر، وتدعو إلى الإيمان، ومجموع الآية تحيي العقول والقلوب، وتنبّه فيهم الوجدان ليلتفتوا إلى آيات ربهم ولطفه ورحمته فيعودوا إليه ويشكروا نعمه.

---

(١) سورة يس: الآيتان ٧١-٧٢.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٩٤، ح٨٢؛ طب الأئمةعليهم السلام: ص٣٦.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الحس دليل على الغيب

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾[1] الاستفهام تضمَّن الحثّ على الاستدلال والاستنتاج الصحيح من الأمور الحسيّة للوصول إلى الأمور الغيبية؛ لأنّ الحسَّ علامة على الغيب؛ لأنّ خصائص الخالق وسماته تظهر في مخلوقه، وقد قرر أهل المعقول أنّ كمالات العلة تظهر في معلولها، ولا يخفى أنّ التعبير عن الخالق العظيم بالعلة غير سديد، بل لا يليق؛ لأنّ العلّة تستبطِن الجبْر واللاقصد والإرادة في التأثير، وقد انطلقت الآية في الحثّ على التفكير من الأنعام؛ لأنها تلازم الحياة البشرية في وجودها وآثارها، فإنّ الناس لا يخلون إمّا أن يعيشوا معها وفي جوارها كأهل الأرياف والبوادي، أو ينتفعوا من لحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها وغيرها من منافع كأهل المدن، فإنّ وجود الأنعام وتسخيرها ومنافعها كلها آيات تدل على الخالق، وتدعو إلى شكره، فلو تأملوا فيها ورأوها رأي البصر الحسي ومنه انطلقوا

(١) سورة يس: الآية ٧١.

للتفكير لتوصلوا إلى الحقيقة، وإنّما حثَّ على الرؤية البصرية لأنها في الأمور المحسوسة أبلغ في الأثر من رؤية العقل والقلب؛ لأنّ العقل أداة الأذكياء فلا تنفع البُلداء والغافلين.

والقلب أداة النفوس الطاهرة والضمائر الحيّة، وهو في الغالب لا يأمن من الشكوك والإيهامات الشيطانية، فالأداة الوحيدة التي يشترك فيها جميع الخلق للانطلاق في التفكير هو البصر والمشاهدة الحسية، فإنها في متناول الجميع، ولا يتفاوت فيها الناس، ونتائجها بديهية؛ إذ بمجرد أنْ يشاهد الإنسان ما يرى من الأشياء يدرك أنها ليست موجودة من نفسها ولا هو أوجدها ولا آخر مثله، فلابد وأن يكون موجدها خالقاً عظيماً، وهو الذي يستحق الحب والشكر.

ومن هنا نلاحظ أنّ أكثر البراهين القرآنية تحفِّز الأفكار والعقول من الحس والمشاهدات العينية، وفي ذلك إشارة تعليمية مهمة للمحاورين والباحثين عن الحقيقة، ومَن يعمل بالتعليم والإرشاد أن يقرِّب الحقائق المجرَّدة بالأمور المحسوسة لكي يدرك غير المحسوس بالحسِّ ثم ينطلق إلى ما هو غائب عن الحسِّ.

اللطيفة الثانية: خلق الإنسان لينعّمه

قوله: ﴿**خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**﴾[١] يفيد مدى حُبّ الباري عزّ وجلّ للإنسان وتكريمه له، وأنه خلقه ليمتعه وينعمه ويسعده من جهات ثلاث:

الأولى: أنه خَلَقَه وأوجده، وهذه نعمة عظيمة ابتدأها بالفضل والإحسان لا بالاستحقاق.

الثانية: خلقَ له ما ينفعه، ويجذب له اللذة، ويدفع عنه الألم، ويحقق له الراحة والرفاه كالأنعام التي كلها نفع ورفاه في المعيشة.

الثالثة: خلق له وسائل الانتفاع من فَم وأسنان ولسان للطعام والكلام ومعدة وأمعاء، ونار تطهي طعامه، وهواء يتنفَّسه، وماء يشربه، وعشب لأنعامه، وكل ما في الوجود يعود إلى خدمة الإنسان ونفعه إمّا مباشرة أو بالوسائط، وفي مقابل هذه النِعَم كلها لم يدعه إلّا إلى أمر واحد هو العبودية له وشكر هذه النِعَم، وهذه الدعوة هي الأخرى في نفعه ولعلوّ درجاته، ورغم ذلك يُعرِض، ولا يتمرَّد على عبادة ربه فقط بل يعبد الشيطان وهو عدوّ الرحمن والمعادي لسننه وأحكامه، ورغم ذلك لم يبادره الله سبحانه بالعذاب، ولم يعاجله بالعقوبة.

وذلك كله يدل على حقيقتين:

الأولى: شدة رحمة الله ورأفته وصبره وحلمه بعباده.

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.

الثانية: شدة وضاعة الإنسان العاصي وخساسته ولؤمه، ولذا وصفه الباري في قوله: ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾(١) ولا ينجو الإنسان من هذه الوصمة القبيحة إلّا بالرجوع إلى ذاته والصحوة من غفلته والانقطاع إلى ربه.

اللطيفة الثالثة: قوله : ﴿**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا**﴾(٢) يقابل قوله في آية سابقة في الزرع قال سبحانه: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾(٣) فإنّ ما تعمله أيديهم ليس أصل الزرع والثمر بل تركيبه وطهيه وطحنه، ولكن قد يتوهَّم الفلاح والزارع أنه سبب وشريك فيه، أو مُعين في الإنتاج والإيجاد، وربما يوهمه الشيطان بذلك.

وأمّا في الأنعام فإنّ الوهم المذكور منتفٍ؛ لأن ليس للإنسان فيها من أثر في وجودها ونموّها وإنتاجها، فيكون أدعى للإيمان والشكر.

اللطيفة الرابعة: الحياة تدور على محورين

قوله تعالى: ﴿**خَلَقْنَا لَهُمْ.... فهم لَهَا مَالِكُونَ**﴾(٤) يشير إلى محورين تدور عليهما حياة الإنسان الدنيوية والروحية:

الأول: الخلق، وعليه يقوم نظام الربوبية بين الخالق والمخلوق، وهو محور حياته الروحية.

---

(١) سورة عبس: الآية ١٧.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

(٣) سورة يس: الآية ٣٥.

(٤) سورة يس: الآية ٧١.

والثاني: المُلك والتسخير، وعليه يقوم نظام العبودية، وهو محور حياته الدنيوية والآيات المتقدِّمة أشارت إلى المحورين معاً، فذكرت آيات التوحيد لتدلَّ على ربوبية الخالق للإنسان، وآيات المخلوقات كإحياء الأرض الميتة وإخراج الحَبّ والثمرات وتفجير العيون وخلق الأنعام لتدبير حياته اليومية وتهديه إلى عبوديته.

وبالنظامين يكتمل الإنسان ويرتقي ويتشبّه بربه، فإذا أدرك علاقة الخالق بالمخلوق انقطع إليه، وإذا أدرك أنه ملكه وسخَّر له الأشياء ووظفها في خدمته، وأظهر بها عبوديته واستجابته، وبمعرفة الخالق والاستجابة له يكتمل الإنسان ويصبح خليفة له سبحانه في أرضه.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: واجبات ضيوف الله في الدنيا

إنّ الأشياء مخلوقة للإنسان وهو غايتها، وكأنّ الباري عزّ وجلّ يشير إلى الناس أنّ عالَمَ الدنيا كله بمنزلة محل ضيافة استضاف الباري عزّ وجلّ فيها الناس؛ إذ خلقهم ودعاهم إليها من دون استحقاق، و مدّ لهم مائدة فيها أنواع الطعام والشراب والسكن وكل ما يحتاجونه، وفي ذلك دلالتان:

الأولى: أنّ الباري عزّ وجلّ يُحبُّ الإنسان ويحبُّ تكريمه وتعظيمه ويريد له الخير والسعادة، ولولا ذلك لما أوجده وضيَّفَه.

الثانية: أنّ على الضيف أن يراعي ثلاثة أمور حتى يكون ضيفاً لائقاً وجديراً بهذا التعظيم والاحترام.

الأول: أن يعرف المضيِّف ويحبَّه ويشكره على هذا التكريم والتعظيم، ويبادله الاحترام والتعظيم، فلا يخالفه أو يفعل ما يوجب بغضه.

الثاني: أن يستشعر هذه الضيافة في كل أوقاته ويُراعي آدابها، فلا يفعل ما يسقطه عن هذا الفضل والتكريم.

الثالث: أن ينتفع بمائدة الضيافة خير انتفاع، ويلتفت إلى أنّ مدتها قصيرة سرعان ما ينتهي أمرها، فإذا انتفع بها ربح، وإلّا فاتت عليه الفرصة،

وذلك كله لا يكون إلّا إذا خرج من أجواء الغفلة، فإنّ الغافلين يُصابون بالعمى فلا يرون هذه الحقيقة فيقعون في الكفر والعصيان، ويطردون من الرحمة؛ لذا ذمَّهم الباري عزّ وجلّ بلسان الاستفهام الاستنكاري، وفي عين الحال أن يلتفت إلى أنّ المائدة مصنوعة له فعليه أن لا يهدرها ويضيِّعها و يستثمرها خير استثمار.

التعليم الثاني: لابد للإنسان من معين

إنّ الإنسان لا يستغني عمّن يعينه في أموره ابتداءً من ولادته هو بحاجة إلى أمِّه وأبيه، وإذا كبر احتاجَ إلى أخوته وجيرانه، وإذا كبر واتسعت حياته احتاجَ إلى عشيرته، وإذا اتَّسعَ أكثر احتاجَ إلى المجتمع.

إنّ الباري عزّ وجلّ - وهو القادر المطلق والغني عن الخلق - جعلَ الأيدي وسائط لتنفيذ أمره وإرادته، لا لحاجة منه إليها، بل ليعلّم البشر بتعاليم كثيرة.

منها: يعلمه أنّ الإنسان كثير بأهله وذويه وإخوانه وأصحابه؛ لأنه قاصر وعاجز عن أنْ يوفِّر لنفسه السعادة والحياة الطيِّبة بمفرده، والشاهد على هذا أنّ الحياة البشرية على الأرض ابتدأت جماعية، فأوَّل ما خلقَ الله آدم ثم خلقَ حوّاء، والغاية هو الاستقرار والسكونة النفسيّة والاجتماعية؛ إذ قال سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[1] وفيها دلالة دقيقة وعميقة وهي أنّ الخلْق كان للزوجين

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

لحاجة كل من الرجل والمرأة إلى بعضهما، وبالحياة الزوجية يكتمل الناس ويرتقون ويسعدون.

ومنهما ولد هابيل وقابيل، وخلقَ لهما زوجتين فتزوَّج كل منهما واحدة، وبثَّ منهم أولاداً وتكوّن الاجتماع البشري، فالناس في أصل التكوين أبناء عمومة[١].

فلو كان الإنسان قادراً على أن يعيش ويستمتِع بحياته وحده وقادراً على تحقيق طموحاته وآماله وحده لما احتاج إلى الزوجة، ولولا الزوج والزوجة ما تكوَّنت العائلة، فكذلك في عموم الحياة الاجتماعية سواءً في تكوين المؤسسات والأحزاب والحكومات والدول لا يستغني الناس عن بعضهم البعض، وعلى هذا الأساس يجب أنْ يبحث الناس عن أمرين:

الأول: عوامل الحفاظ على الجماعة والتجمُّع.

الثاني: تجنب عوامل الهدم.

وأول عوامل البناء الشعور والإحساس بالحاجة إلى الغير وعدم إمكانية الاستغناء عنه، أي معرفة كل فرد من الناس قيمة وأثر الآخرين في حياته، وأنه بهم ينمو ويكتمل، فلو كان هذا الإحساس موجوداً انحلَّت الكثير من المشاكل الاجتماعية والأسرية، وقلَّت نسبة الطلاق، فإنّ الطلاق يقع نتيجة عوامل عديدة ومن أبرزها أنّ أحد الزوجين أو كليهما يشعران بأنه مستغن عن الآخر، ولذا من يسعون لهدم المجتمع البشري وتضليله

---

(١) الفقه (الاجتماع): ج٢، ص٣٠.

وتسييسه يتبعون في ذلك خططاً وأساليب، ومن أول سياساتهم وخططهم هدم الأسرة وتوهين العلاقة الزوجية بين الزوجين، ويشعرون الزوج بأنّ وجود الزوجة ثقل موضوع على كاهله، ويشعرون الزوجة بأنّ وجود الزوج في حياتها هو قيد لها يمنعها من الحريّة، وحينما يصدق الزوجان بهذه الأكاذيب يفقدان الإحساس بضرورة وجود الآخر في حياة كل منهما، وهذا من اسباب كثرة الطلاق في المجتمعات.

وهو نهج مخالف لسنّة الله سبحانه في التكوين والتشريع، فإنّ الباري عزّ وجلّ في التكوين جعل الأيدي والوسائط، وخلق العائلة أولاً، وفي التشريع حثَّ على تكوين الأسرة والحفاظ عليها؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش ويحقق طموحاته وحده.

وذات الكلام يجري في المؤسسات والأحزاب والتجمعات. كل هذه ما كانت لتقوم لولا الأعوان والأنصار، فيجب أن يسعى كل إنسان إلى محبّة الآخرين ومبادلتهم الإحساس وعدم التضييع لهم.

وهذه وصايا الأنبياء والأولياء، فقد قال لقمان لابنه: «يا بُنَيّ اتَّخِذ الف صديق وألف خليل، ولا تتَّخِذ عدوّاً واحداً والواحد كثير»[1] والألف والواحد لبيان الكثرة.

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٧٦٦، ح١٠٣٢؛ الوسائل: ج١٢، الباب٧ من أبواب العشرة، ص١٦، ح١٥٥٢٢.

وسُئِلَ أبو الحسن عليه السلام عن أفضل عيش الدنيا؟ قال عليه السلام: ﴿سِعَة المنزل وكثرة المحبين﴾(١).

ولا يراد بسعة المنزل كبر المساحة وكثرة الطوابق والقاعات، كما لا يراد بالمنزل البيت، بل كل مكان ينزل فيه الإنسان، وسعته ماديّة ومعنوية، والأولى الوسع والمساحة، والثانية السعَة والسماحة، وهذه الثانية هي أهم أسباب السعادة، أي سعة الروح وحسن المعاشرة وطيب الأخلاق، فإنّ المنازل لها مظهر هو الشكل، ولها قلب وجوهر هو العلاقات التي تربط النازلين ببعضهم.

ولو التزم الناس بهذه الحقيقة وبنوا علاقاتهم الاجتماعية على المحبّة وحسن الخُلُق ومراعاة الآداب لعاشوا سعداء، ولو بنوا علاقاتهم على المصالح المادية والاهتمام بقشور الدنيا فأقاموا القصور وأكلوا أطيب الطعام ولبسوا أفخر الملابس وشعروا بضيق صدورهم ونفوسهم لكانوا تُعساء.

ولا يعيشون سعداء إلّا مع غيرهم، ومشاركة الآخرين نعمهم وأفراحهم وآمالهم، ولذا قال بعضهم: إنّ الجنة بلا ناس لا يمكن أن تعاشَ، والعشيرة مع التخاصم والعِداء لا يمكن أن تعاشَ، فالعيش والحياة الحقيقية بمشاركة الناس لبعضهم البعض ومحبَّتهم وتعاونهم وعدم استغناء بعضهم عن بعض.

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٦١١، ح٢٤؛ الكافي: ج٦، ص٥٢٦، ح٥؛ البحار: ج٧١، ص١٧٧، ح١٦.

التعليم الثالث: أساسان لتطوير المهارات والجماعات

إنّ الباري عزّ وجلّ هو الخالق للأشياء، وهو المالك الحقيقي لها قد فوَّضَ الملك إلى الناس لكي ينتفعوا ويعيشوا بسلام وكرامة ويصل الخلْق إلى غاياته، وفي هذا تعليم مهم لكل مَن بيده القدرة والسُلْطة والأمر والنهي ليعلمهم أنّ النهج الصحيح للإدارة وتطوير المهارات وبناء الجماعات يقوم على أساسين هامَّين:

الأول: تفويض الصلاحيات وعدم تركيزها بيد واحدة أو شخص واحد، وأنْ يكون التفويض مع نقل الصلاحيات لا أن يكون تفويضاً شكلياً.

الثاني: توزيع القدرة، و بمنح السلطة لكل من يريد أن يستثمر مواهبه ويحصل عليها، فإنّ من أهم عوامل الاستقرار والتطوّر في المجتمعات والدول هو التوازن في الصلاحيات والقدرات، ومن أقوى عوامل الهدم وزعزعة السِلْم والأمن الإقصاء واحتكار الصلاحيات وتمركز القدرة.

ولو تعلَّم الناس من سُنَّة الباري عزّ وجلّ في خلْقه في تفويض الصلاحيات والقدرات لسادَ الأمن والسلام، وعاشوا سعداء، وهذا العناء والشقاء الذي يعيشه العالَم أجمع شاهد على هذه الحقيقة، وقد أقرّ عقلاء العالم بأنَّ البشرية اليوم شقيّة وليست سعيدة، والكل يعيش أزمة السلام والأمن مع اختلاف النسبة؛ لأن السياسة العامّة تقوم على الإقصاء والاحتكار للقدرة بأسلوبها المكشوف كما في بلدان العالَم الثالث، أو المُقَنَّع كما في البلدان التي تُسمّي نفسها ديمقراطية.

التعليم الرابع: ثروات الأرض للإنسان لا للدولة

إنّ الآية المباركة أكدت أنّ ثروات الأرض مُسخّرة للإنسان ومملوكة له. بعضها دلت عليها بالمنطوق كالأنعام: ﴿**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾[١] وبعضها الآخر يستفاد من الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[٢] و(اللام) سواء كانت للغاية أو للمُلك أو للاختصاص فإنها تفيد أنّ الإنسان مفوَّض في استثمار الأرض وما فيها من ثروات وخيرات، وأنّ ما يستثمره هو مملوك له، وله السلطنة على التصرُّف، فيه وبذلك تُبْطِل الآية قانوناً وضعياً قامت عليه سياسات الدول الاقتصادية الداخلية والخارجية وهو ملكية الدولة وحرية تصرفها في أرضها وفضائها وثرواتها من بحار وغابات وصحارى وجبال وغيرها.

هذا القانون أحد أهم أسباب الجوع والفقر والاستغلال والاستعمار في العالم، وهو قائم على مفهومين مغلوطين:

الأول: إنَّ الدولة تملك

الثاني: أنّ الدولة تملك صلاحيات واسعة للتصرُّف في الأشياء فتمنع ما تشاء وتعطي ما تشاء، وكلاهما لا يَمّتان إلى الحق بِصِلَة:

أولاً: لأنّ الدولة جهة معنويّة مهمتها تنظيم الأمور وحفظ الأمن والعدالة ليس إلّا وتكتسب اعتبارها من رأي الناس الذين تحكمهم، فهي

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٩.

تحدث وتزول وتتبدّل وتتغيَّر، وأمّا الناس فهم الذين لا يتبدلون، ولا يعقل أنْ يكون الفرع أقوى من الأصل فإنه تناقض.

ثانياً: أنّ مُبَرِّر وجود الدولة هو حاجة الناس إليها، فإذا صارت هي واحدة من أسباب منع الناس من حاجاتهم وحرمانهم من حقوقهم سقطَ مُبَرِّر وجودها، فلا تملك الدولة صلاحيّة التصرُّف إلّا ما كان مكتسباً من صلاحيات الناس.

ثالثاً: أنّ دعوى أنّ الدولة تملك مجملة؛ لأن الدولة تطلق على عدة معان:

منها: السلطة الحاكمة.

ومنها: أرض البلد في رقعته الجغرافية.

ومنها: الأرض والناس الذي يعيشون فيها.

والأول لا يملك باتفاق عقلاء العالَم، والثاني غير صحيح؛ لأن الأرض مملوكة لا مالكة، فلم يبقَ إلّا الثالث، والأرض غير مالكة فتعيَّن أنْ يكون الناس هم المالكون، وقد أعطى المالك الحقيقي للإنسان والأرض والثروات السُلْطة والمُلْكية للناس في أنْ يتصرفوا ويستثمروا ولم يُعْطِها للدولة، فالمالِك هو الناس، والناس اتّخذوا الدولة أداة لإيصالهم إلى منافعهم، فهي وكيلة عنهم في ذلك، فإذا صارت الدولة مانعة ومُخلَّة بشرائط الوكالة سقط اعتبارها، وانتفى مبرِّر وجودها، ولو التفت الناس إلى هذه الحقيقة وأخذوا بقانون الله سبحانه فإنّ القانون الإلهي يعالج مشاكلهم وأزماتهم الاقتصادية، وينفي عنهم الفقر والجوع والحاجة بأمرين:

الأول: حرية التملك في الأرض، فكل من حاز قطعة من الأرض المملوكة لله تعالى وليست مملوكة لأحد من الناس ملكها، وبذلك تنحلّ أربع أزمات اجتماعية عويصة سببها القانون الوضعي اليوم، هي أزمة السكن وأزمة العمل وأزمة الزواج وأزمة الحاجة إلى الغير اقتصادياً؛ لأنه يوفِّر الاكتفاء الذاتي. كل ذلك بشرط أنْ ينظم ذلك ضمن تعاليم وأنظمة عادلة ومتوازنة.

الثاني: حرية العمل واستثمار الأرض وخيراتها بلا قوانين ضاغطة، ولا ضرائب تُثْقِل كاهل المستثمرين.

وما نلحظه من تأخُّر في العالم الثالث ناشئ من القوانين الوضعية المغلوطة وضعف ثقافة المسؤول والمواطِن، والدول التي يلحظ فيها التطوّر الصناعي والزراعي وعالجت مشاكلها الاقتصادية فإنها عالجت ذلك نسبياً ولم تحلّها بشكل جذري، ولو أخذت بقوانين الإسلام لحقَّقت إنجازات أفضل ونجاحات أكبر، وبعض ما تطوَّرت فيه أخذ شيئاً من قوانين الإسلام.

التعليم الخامس: أغلب الفشل من الاستعجال

تعلّمنا الآية المباركة لزوم الصبر على النتائج وعدم التعجُّل في تحصيلها سواءً في المحاورات والمفاوضات، أو في إنجاز الأعمال والمهام، فإنّ أغلب الفشل يأتي من الاستعجال ونفاذ الصبر واليأس من النتائج.

ويعلمنا الباري عزّ وجلّ بهذه الآية الشريفة كيف أنه بعد أن أنهى مع الكفار الحوار في العقيدة والإيمان وحتم عليهم المصير السيء عاود عليهم الحوار مرة أخرى، ودخل عليهم من المشاهدات الحسيّة الوجدانية لعلهم يهتدون.

التعليم السادس: للفقهاء والمجتهدين

تؤكد الآية جملة من القواعد الفقهيّة في الأعمال والأملاك:

الأولى: صحَّة التسليط على الذات لأجل التسليط على المنفعة.

الثانية: صحة نقل وانتقال الملكية الجعلية الاعتبارية تمليكاً وتسليطاً.

الثالثة: أنّ فعل الوكيل والمفوَّض كالأصيل.

الرابعة: أنّ الأصيل ضامن لما يفعله الوكيل المفوَّض؛ لأنه يده بشهادة صحّة الحمل وعدم صحّة السلب، والضمان في بعض وجوهه يترتّب على اليد، وهو يطابق قوله صلى الله عليه وآله: «على اليد ما أخذت حتى تؤدي»[1].

الخامسة: أنّ حيازة المباحات جائزة وموجبة للتمليك الاعتباري.

السادسة: أنّ المالك الحقيقي يملك السلطة المطلقة على المالك الاعتباري وما يملكه؛ لذا يجب على المالك الاعتباري أنْ يتقيَّد بحدود وأحكام المالك الحقيقي، ولا يجوز له مخالفته، فسلطنة المالك الاعتباري على الأشياء محدودة لا مطلقة.

التعليم السابع: الطب لا يعطي الحياة

إنّ فِعْل الباري عزّ وجلّ لا يقدر على مثله أحد، فإنه يخلق الشيء ويعطيه الحياة والمنافع، والعلوم الطبيّة والتقنيّة ربما تقدر على صناعة الحيوان أو الإنسان الآلي لكنها عاجزة عن إعطائه الحياة إبداعاً. نعم ربما تقدر على إعطائه الحياة الصناعية الكهربائية ونحوها، أو تشتق له الحياة من الخلايا الحيّة، ولكنها عاجزة عن جعل ما ليس بحيّ حيّاً.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٤، الباب ١ من أبواب كتاب الوديعة، ص٨، ح١٥٩٤٤؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٢٤، ح١٠٦؛ مسالك الأفهام: ج٤، ص٢٠٧، الهامش.

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ
وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ

يس/ ٧٢

الآية معطوفة على الآية السابقة، ومفادها الاستفهام الاستنكاري على أمر محسوس هو مشاهدة الأنعام كيف تخضع لسلطتهم وإرادتهم فيركبونها ويذهبون بها حيث يشاؤون، ويأكلون منها متى شاؤوا وتصرفهم فيها ليس فيه مِنّة ولا استعارة، ولا فيه قيد أو منع؛ لأنهم مالكون لها، والمالك له حرية التصرُّف فيما يملك.

وبذلك تضيف الآية دليلاً حسيّاً آخر على محبّة الله سبحانه للناس، ونعمه التي غمرهم وكرمهم بها، وغايته تنبيههم من الغفلة، وحثهم على محبته وشكره وطاعته، فالآية المباركة مكملة لموضوع الآية السابقة

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾

(اللام) للغاية، وضمير الجمع (نا) يشير إلى الأيدي التوسيطية، ومرجع الضمير (ها) هو الأنعام، والضمير (هم) يعود على المخاطبين وهم الكفار بالمباشرة وعموم الناس بالكناية، و(التذليل) الإخضاع والتسهيل والانقياد[1].

والمعنى أنها خاضعة منقادة لهم، وهذا ما يثبته الواقع الخارجي، فإنّ قدرة الإنسان البدنية لا تقاس بقدرة الجَمَل والبقرة والثور ولا بحجمها، لكن الرجل الواحد يقود قطيعاً كبيراً منها، ولو أرادَ ركوبها ذلت وسهلت له ركوبها، ومضت به لا متمردة ولا مستحكمة، بل مسلِّمة أمرها إليه، والطفل الصغير والمرأة الضعيفة ربما يقودان المئات من الجِمال والأبقار والثيران دون عناء ولا جهد، وإذا تشتت في الرعي فصاحَ بها الراعي أو أمرها ذلت وطاعت حتى مع كراهية ما يريده منها من سير أو حمل أو حلْب أو أخذ نسل أو ذبح[2]، ولو ضربها وعنفها استجابت.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٣٦٢، (ذل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٧٥، (ذلل)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٣١٤، (ذل).

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٩.

وهذا أمر يدركه كل إنسان بوجدانه، وهو مخالف لقواعد العقل، فإنّ العقل يقضي باستحالة ذلك في نفسه؛ لأن الحيوان له شهوة وإرادة وحنين على نسله، ونسبة من العقل بما تدعوه إلى مخالفة إرادة الإنسان، ولا يدع مجالاً لأن يتصرَّف به كل هذه التصرفات، ولا يعقل أن يتفق القطيع المكون من مئات الأنعام على إرادة واحدة، إلّا أنّ الواقع الخارجي يدل على وقوعه، فما يقضي العقل بامتناعه عادة يثبته الحسّ والوجدان، وهذا لا يكون إلّا إذا كانت هناك قوة قاهرة سيَّرت ذلك ووحدت الحيوانات المختلفة في إرادتها وشهواتها في نهج واحد وانقيادها لأمر واحد، ولو قارن الناظر بين الحيوان الأليف والوحشي أدركَ مدى التذليل الحاصل في الأليف، وكل عاقل يدرك أنّ هذه القوة القاهرة ليست من الإنسان نفسه، ولا من الحيوانات نفسها، فلابد وأنْ تكون من الله سبحانه، ولكن نسبها لضمير الجمع لسببين:

الأول: لتنزيه الباري عزّ وجلّ وعلوّه عن مباشرة ذلك.

والثاني: للإشارة إلى وجود أيد نافذة فيها سخرتها لذلك

والملفت أنّ الآية عبَّرت عن ذلك بالتذليل لا التسخير؛ لأن التسخير متضمِّن للتذليل عن قهر وإجبار كما عرّفه أهل اللغة[1]، وقولهم: سخَّرَ الله عزّ وجلّ الشيء أي ذّللـهُ لأمره وإرادته، وقد وردَ التعبير بالتسخير عن حركة الكواكب والسفن والجوامد؛ لأن حركتها قهرية، ولأن الإنسان غير مسلط عليها فلا يملك حرية التصرف فيها.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٢، (سخر)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٨٧، (سخر).

بخلاف الحيوانات فإنها فاعلة مريدة، وفي عين الحال خاضعة لإرادة الإنسان، وإذا انقاد المريد إلى غيره كان ذليلاً له، وفي مفردة التذليل دلالة على حقائق عديدة ذكرنا بعضها فيما تقدَّم:

منها: أنّ الحيوان فاعل عاقل ومريد بنسبة من العقل والإرادة.

ومنها: أنه منقاد لإرادة الإنسان باختياره، ولو شاء أن يتمرَّد تمرّد لكنه لا يتمرَّد لأنه يعلم بوظيفته التكوينية وما وجد لأجله، فلا يخرج عن سنن الله سبحانه.

ومنها: أنه مملوك للإنسان، والمملوكية ملازمة للتذليل وإلّا كانت لغواً.

المفردة الثانية: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾

(الفاء) للتفريع عن التذليل؛ إذ لولاه لما أمكن الانتفاع بالركوب ولا بالأكل، و(من) تبعيضية، و(الركوب) بفتح الراء صفة يراد بها اسم المفعول أي (مركوبهم) على وزن مفعول[١].

أو بتقدير حذف المضاف أي ذو ركوب وهو المركوب[٢]، والمعنى ظاهر.

وقُرِئتِ الراء بالضَّم وقُرِئَت الكلمة (رُكوبهم)[٣] وهي بذات المعنى، لكن تعدد القراءات غير صحيح كما عرفت.

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٦٠.
(٢) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٩.
(٣) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٨؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٥١؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٩.

ووردت بلسان التبعيض؛ لأن بعض الأنعام مما يصلح للركوب وهو الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير بناءً على اندراجها في الأنعام كما عرفت.

بل هي مقصودة أيضاً لقرينة الركوب، فإنّ الركوب في الأصل كون الإنسان على ظهر حيوان، وفي الغالب يستعمل في ممتطي البعير[(١)]، إلّا أنّ القرآن الكريم عبَّرَ بالركوب عن الثلاثة الأخرى؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا**﴾[(٢)] وبعضها مما لا يصلح إلّا للمنافع الأخرى كالغنم والماعز.

ويتلخص من ذلك: أنّ الأنعام على ثلاثة أصناف:

الأول: الغالب فيه الركوب في الحركة والسفر وحمل الأثقال هي الخيل والبغال والحمير.

الثاني: الغالب فيه الأكل والحلب ونحوهما وهي الأغنام والماعز.

الثالث: المشترك بين الاثنين وهي الإبل والبقر وأصنافهما.

وكل هذه مُذلَّلة مُسخَّرة للإنسان، وكُلُّها مملوكة طاهرة مُحلَّلة إلّا أنّ تذليلها يختلف بحسب قابلياتها، فبعضها مُعدّة للركوب أكثر، وبعضها للأكل أكثر، وبعضها مشتركة.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٦٣، (ركب).

(٢) سورة النحل: الآية٨.

المفردة الثالثة: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

المراد بالأكل ما يشمل المعنى الظاهر وهو التغذية البدنية بواسطة الفم، والمعنى الباطن هو إيجاد سبب الأكل بالبيع والشراء والإجارة والتجارة بها ونحو ذلك.

ويتحصَّل من مجموع المفردات: أنّ الباري عزّ وجلّ خلق الأنعام للناس ومَلَّكها وذللها لهم، ولو لم يذللها ما استطاع الإنسان تذليلها، ولتعذَّرَت الاستفادة منها، فخلْق الأنعام نعمة، وتمليكها نعمة، وتذليلها نعمة أخرى، وبهذه الثلاثة تدار حياة الإنسان وتقوم معيشته، ولولاها لَمَات وهلَك، فعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة ولا يغفل عنها ليكون عبداً لله شاكراً لأَنعمه لا جافياً عاصياً.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: تذليل الأنعام نعمة عظيمة

إنّ التذليل نعمة عظيمة قد يغفل عنها البعض ولا يدرك أهميتها؛ لأن الحيوانات البهيمية – غير الحشرات – غير المُذَلَّلة على قسمين:

قسم وحشي متوحِّش لا يألف ولا يُؤلَف كالسباع والضباع والذئاب والأفاعي، وتملكها والسيطرة عليها ممتنع عادةً إلّا بالصيد، وهو غير متاح للجميع ولو صادها لا يمكنه أكلها لأنها ضارة ومحرّمة.

وقسم وحشي غير متوحِّش كالغزلان والثيران، وهذه لا يمكن السيطرة عليها إلّا بالصيد، ولو صادها وجب أن يذبحها ليحتفظ بها، وهو ينفعه في الأكل واللباس دون غيرهما من الانتفاعات، مع أنّ حاجاته أكثر، ولو أنتفع بها فهو مَن يتمكن من الصيد دون باقي الناس، ولازم ذلك انقسام البشرية إلى طبقتين غنيّة وهم القلَّة القليلة القادرة على الصيد، والباقي فقراء معدومون يحتاجون غيرهم.

ونتائج ذلك انقسام المجتمع وسيادة الاستغلال والظلم فيه.

ولا مخلص من هذه الأزمات الكبيرة إلّا بخلق الأنعام وتذليلها للناس جميعاً، وبها تدوم حياتهم بأمن وسلام، وهذه النِعَم العظيمة تستحق الشكر اللساني والعملي من ثلاث جهات:

الأولى: محبة الخالق المذلِّل لها.

الثانية: شكره بطاعته والانقياد إليه.

الثالثة: احترامه لهذه الأنعام وإكرامه لها والانتفاع منها بمقدار حاجته، فإنّ للحيوان حقوقاً يجب على الإنسان أن يراعيها، ومراعاتها من مصاديق شكر النعمة.

اللطيفة الثانية: بين التذليل والذلول

في قوله تعالى: ﴿**ذَلَّلْنَاهَا**﴾[1] تأكيد ومبالغة في التذليل كما يفيده التشديد، كما لم ترد بصيغة فعول (ذلول) بينما ورد ذلك في وصف الأرض إذ قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾[2] ولعل السبب في ذلك يعود لأمرين:

الأول: الإشارة إلى أنّ الحيوانات تمتلك الإرادة العقل فلا تستجيب من نفسها للإنسان إلّا بتطويعها له وهو معنى التذليل.

الثاني: لأنّ الذلول يتضمَّن معنى التطويع الذاتي، والمعنى أنها سهلة ليّنة منقادة لكم بتكوينها لأنها مسلك الإنسان ومسكنه ومصدر رزقه، فلابد

---

(١) سورة يس: الآية ٧٢.

(٢) سورة الملك: الآية ١٥.

وأنْ تكون بذاتها كذلك، ولا تلزم بالانقياد، فمثلها مثل الصلب إذا طوَّعته النار ليصبح سائلاً بالقياس إلى السائل في نفسه، فـ(اللام) في (لكم) للغاية، والمعنى أنّ الأرض جُعِلَتْ لأجلكم ذلولة في نفسها تستطيعون المشي عليها وطلب الرزق منها[١]، وهذا كله بخلاف الأنعام؛ لأنها تُرغَم على الانقياد لكونها مملوكة للإنسان، وفي ذلك إشعار بلطف إلهي آخر لو استشعره الإنسان كان عبداً لله لا لشيطانه وشهوته.

اللطيفة الثالثة: أثر أكل لحوم الأنعام

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[٢] جملة خبرية تتضمَّن الإنشاء، فتتضمَّن دلالتين:

الأولى: أنّ أكل لحوم الأنعام ضروري لتقويم بدن الإنسان، وهذا ما يتوافق مع مضامين الأخبار التي كرهت ترك أكل اللحوم أربعين يوماً، وعلّلت ذلك بأنّ تركه هذه المدة يوجِب سوء الخُلُق، ومعنى ذلك أنه لا يؤدي إلى نقص التغذية البدنية فقط، بل يؤثِّر على روح الإنسان ومزاجه.

ففي صحيحة هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿اللحم ينبت اللحم، ومَن تركه أربعين يوماً ساء خُلُقه، ومَن ساء خُلُقه فأذِّنوا في أُذنه﴾[٣] وقد وصفَ عليه السلام الداء والدواء في ترك اللحم، ومعلوم أنّ الأذان يعالج النقص الروحي، وأمّا النقص الغذائي فلا يعالجه إلّا تناول اللحم.

---

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٣٧٦، (ذلل).

(٢) سورة يس: الآية ٧٢.

(٣) الوسائل: ج٢٤، الباب ٨٨ من أبواب آداب المائدة، ص٣٩٥، ح٣٠٨٧٤؛ وانظر الكافي: ج٦، ص٣٠٩، ح١.

وفي رواية أخرى مَن تركه أيّاماً فسد عقله[١]، والمراد عقله العملي الذي يتخلّق بالأخلاق، فيتوافق مع الحديث السابق.

وفي بعض الأخبار النبويّة: «اللحم سيّد الطعام في الدنيا والآخرة»[٢] وهو سيّد أدام الجنة[٣]، ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ**﴾[٤].

وفي بعض الأخبار أنه يزيد في السمع والبصر[٥]، وأنّ شحمه ينزل مثله من الداء[٦].

ولا يقال: إنّ المعروف كراهة أكل اللحم، وقد وردَ النهي عن جعْل البطن قبراً للحيوانات.

فالجواب:

أولاً: أنّ ذلك ناظر إلى الإكثار والإفراط فيه، أو يكون ناظراً إلى أكله نيّاً بلا طبخ وطهي، أو لبعض الناس الذين لا يناسب مزاجهم.

---

(١) الوسائل: ج٢٥، الباب١١ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٩، ح١٣١٠٥؛ طب الأئمة: ص١٣٩.
(٢) الوسائل: ج٢٥، الباب٩ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٢٢، ح٣١٠٣٢؛ الكافي: ج٦، ص٣٠٨، ح٢.
(٣) الوسائل: ج٢٥، الباب٩ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٢٢، ح٣١٠٣٣؛ الكافي: ج٦، ص٣٠٨، ح٣.
(٤) سورة الواقعة: الآية٢١.
(٥) الوسائل: ج٢٥، الباب١٢ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٤١، ح٣١١٠٩؛ المحاسن: ج٢، ص٤٦٤، ح٤٢٨.
(٦) الوسائل: ج٢٥، الباب١٢ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٤١، ح٣١١١١؛ المحاسن: ج٢، ص٤٦٥، ح٤٣٤.

وثانياً: أنّ بعض ما وردَ محمول على الغيبة وأكل لحوم الناس لا لحوم الأنعام، فقد روى الصدوق قال: قيل للصادقعليه السلام: بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى لَيبغض البيت اللحم واللحم السمين، فقالعليه السلام: إنا لنأكل اللحم ونحبّه، وإنّما عنىعليه السلام البيت الذي تؤكَل فيه لحوم الناس بالغيبة، وعنى باللحم السمين: المُتبختِر المُختال في مشيته»[١].

والروايات بهذا المعنى كثيرة[٢]، والختر الغدر الشديد، بل هو أقبح مراتب الغدر[٣]، والمختال المغرور المخادع[٤] الذي ينفش نفسه ويتصوَّر أنه أعظم من غيره وأكبر.

الثانية: أنّ أكل لحوم الأنعام ينبغي أن يتضمَّن قصد الشكر والقربة لسببين:

الأول: أنه سبحانه ذلَّله للإنسان بالخصوص حتى يستطيع من أكله، وهذه نعمة إضافية يزداد بها على باقي النِعَم.

الثاني: أنه سبحانه حلله له بشرط التذكية، ولولاها لا يحل أكله، وفي ذلك دلالة على ضرورة استحضار قصد الشكر والقربة لدى أكله.

---

(١) الفقيه: ج٣، ص٣٥٠، ح٤٢٣١، وانظر الوسائل: ج٢٥، الباب ١١ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٧، ح٣١٠٩٧.

(٢) انظر الوسائل: ج٢٥، الباب ١١ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٦-٣٩، الأحاديث ٣١٠٩٢- ٣١١٠٥.

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص١٩٣، (ختر).

(٤) مجمع البحرين: ج١، ص٦٢١، (ختل).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: لا إرتقاء بلا غاية

إنّ كل شيء خُلِقَ لغاية حتى ما يتصوَّره الإنسان كائناً وضيعاً، فهل يصح أنْ يكون وجود الإنسان بلا غاية تكوينية وتشريعية؟ وهل يمكن أنْ يعيش وينمو ويكتمل دون غاية؟

فعلى الإنسان أن يتخذ لنفسه غاية في حياته لكي يعيش السعادة والنظام والتقدُّم والارتقاء؛ لأن وجود الغاية هو الذي يعطي للشيء أثره، وهو الذي يفجِّر طاقات الإنسان ومهاراته، فما لم يكن للإنسان هدف وطموح انتفى مبرِّر وجوده، فعلى العاقل أن يبحث عن الغاية في حياته، ويختار الغاية التي تحقق له السعادة في الدنيا وفي الآخرة، ولا يكتفي بالغاية الدنيوية أو يكتفي بالغاية الأخروية فقط، بل خير الغايات ما جمعت الآمال الدينية والدنيوية. هذا واجب عقلي وشرعي لا يمكن أنْ يغفل عنه الناس، لاسيّما الشباب ليتمكَّنوا من بناء مستقبل واعد لهم.

التعليم الثاني: كل صعب يسهل بالتذليل

إنّ كل صعب وصعوبة يواجهها الإنسان في حياته يسهل بالتذليل، فما لم يذلل الصعب لا يمكن الانتفاع منه، وهذا القانون جارٍ في الفلاح حينما يزرع، والعامل في المعمل، والرياضي في الملعب، وحتى في العلاقات الاجتماعية والأسرية، فإنه لا يمكن أنْ يعيش الإنسان سعيداً بين أهله وإخوانه ما لم يذلل النفوس ويسهلها بالخلق الحسن والأسلوب الراقي.

وحتى في المحاورات لا يؤثِّر المحاور في غيره ما لم يذلّل نفسه للاستماع أولاً، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[١] وكذلك الخطيب والعالم والمربي ما لم يذلّل النفوس لا يستجاب لمواعظه.

وما ينبغي للشباب أن يلتفتوا إليه هو تذليل الصعوبات، ومن موارد التذليل استسهال الأمور لا استصعابها. الكثير من الشباب يحب أن يتزوج ويبني أسرة ولكنه لا يقدم حينما تسأله لماذا؟ يذكر جملة من العراقيل والموانع منها لا يوجد عمل، لا توجد وظيفة، لا يوجد بيت وكثير من اللاءات، فيؤجِّل أهم مشروع إنساني في حياته بالتسويف. دعني أعمل أولاً، ودعني أجمع المال، ودعني أشتري الدار، وإلى غير ذلك من مبررات لا تزيد حياته إلّا تعقيداً وصعوبة حتى ينقضي شبابه ولم يتزوج، ولكن لو استسهل الأمور ذلّلها ولو وثق بقدراته وتوكل على ربه وسعى سعيه للعمل وسلك طريق الدعاء والذكر لوصل إلى أفضل غاياته. قال تعالى:

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١) فالعقدة أولاً موجودة في النفوس إذا ذلّلناها ذلّلت الأشياء أيضاً.

فعلى الإنسان الفطِن أن يلتفت أنّ لكل صعب ذلّة، ولكل مشكلة حلّاً لكن عليه أن يسعى لذلك.

التعليم الثالث: للأكل آثار

إنّ الآية المباركة تعلمنا أن نفكّر في أكلنا، ونختار من الطعام ما فيه اللذة والنفع وليس ما فيه اللذة فقط، فإنّ للأكل آثاراً على أخلاقنا وعقولنا وصحتنا العامّة.

التعليم الرابع: هكذا تعلّمنا الأنعام

تعلّمنا الآية كيف يجب أن يكون الإنسان منقاداً مذعناً لربه تبارك وتعالى، فإن الأنعام منقادة لأمر بارئها، ومسخّرة لوظيفتها في خدمة الإنسان حتى إلى مرحلة الذبح وزهوق الروح وأكلها لأجل أداء وظيفتها وطاعة ربّها.

وهكذا هي صفات عباد الله سبحانه، فجعل الباري الأنعام مدرسة تُعلِّم الإنسان كيف يعمل ويضحي ويطيع أمر ربه، وكيف ينتفع من النِعَم المتوفّرة لديه، كما تعلّمنا أن نعمل لأجل الهدف الذي لأجله خلقنا ووجدنا على هذه الأرض، فبذلك نعيش السعادة والكمال في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان ٢-٣.

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ
أَفَلَا يَشْكُرُونَ

يس/ ٧٣

ما نحتاجه من الأنعام

الآية معطوفة على ما قبلها، قد جمعت ما يحتاجه الإنسان ويقوِّم حياته من الأنعام وهي: ملكيتها، وركوبها، وأكلها، والانتفاع بها، والشرب منها، ويلحظ في هذا أمور ثلاثة:

الأول: أنّ التسلسل في ذكرها منطقي يقوم على ترتُّب الحاجات.

الثاني: أنّه لم يذكر السكن واللباس ولكن ذكرَ ما يندرجان فيه وهو المنافع، فلماذا لم يذكرهما؟

الثالث: أنّه ذكر المشارب آخر النِعَم التي بعدها حثهم على الشكر.

أمّا الأول فلأنّ الأصل في الأشياء أنها مخلوقة لله سبحانه وهي مملوكة له، ولا يصحّ التصرُّف بها بأي نحو من أنحاء التصرُّف إلّا بإذنه، وقد أعطى ذلك بتمليكها، ولولا ذلك حَرُمَ كل تصرُّف فيها.

وأوَّل منفعة بعد الملكية يأتي التنقُّل وحمل الأثقال؛ لأن هذه المنفعة لا تتحقَّق إلّا بها، بخلاف غيرها كالأكل والشُرْب فإنه يمكن توفيرها من نبات الأرض وصيد البحر.

والمنفعة الثانية هي الأكل، وهذا يتوقّف على ذبحها ونحرها، وحينئذٍ تظهر منافع أُخرى لها، وهي الانتفاع بجلودها وأصوافها وأوبارها وعظامها ونحو ذلك، فيصنع منها اللباس والسكن، ولولا الأكل لَمَا أمكن توفير ذلك.

والمنفعة الأخيرة منها المشارب، وصيغة الجمع للدلالة على أنّ المراد بالمنفعة ليس الشرب؛ لأنّ ذلك يتحقَّق بشُرْب الماء، وهو يحصل من السماء والأرض، وإنّما منافع ما يخرج من بطونها من لبن وهو المروي[١]، ومنافع اللَبَن كثيرة منها ما يشرب كالحليب، ومنها ما يسهل أكله فيكون كالشرب مثل الزبادي والزبد والقشطة والجبن.

ولعلّهُ أخَّر ذكرها وجعلها خاتمة النِعَم لسببين:

الأول: لأنها منفعة ترفيهية لا تتوقَّف عليها الحياة.

الثاني: لأنها جامعة للطعام والشراب، وبذلك يتضح الجواب عن الأمرين الآخرين.

والخلاصة: أنّ الآية المباركة أتمَّت دلالة الآيتين السابقتين عليها، وختمت ببيان الغاية من خلق الأنعام وتذليلها للإنسان وبيان منافعها، وهي حثُّهُم على الشكر، والذي هو الآخر يتوقَّف على أمرين لا يتحقَّق من دونهما، وهما: معرفة المنعم وطاعته، ولذا ابتدأ الباري الآيات بقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا**﴾[٢] أي يعرفوا، وختَمَ بقوله: ﴿**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾[٣] أي يطيعون، وهو خلاصة ما يريده الباري عزّ وجلّ من إيجاد الإنسان وإرسال الأنبياء والرسل إليه.

والبحث فيها يتمُّ في مباحث:

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٩١؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤٠٢، ح٢.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

(٣) سورة يس: الآية ٧٣.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾

مرجع الضمير الأنعام، و(اللام) للغاية، والملفت فيها أنّ في الآية السابقة قال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[1] وأمّا في هذه الآية قال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ لأنّ الأكل لا يكون لجميعها، بل لبعض أصنافها كما بيّناه في الآية السابقة، وفي هذه الآية بيان للمنافع وهي لا تختصُّ بصنف دون آخر، بل بجميعها، وقال: و (فيها) ولم يقل: (بها) لأنّ الباء تفيد السببيّة والوساطة وهذا يفيد الانتفاع، ولا يدُلُّ على المنفعة، فإنّ مفاد قولهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾[2] أي تكون آلة للمنفعة كالسيف آلة للقَتْل، والسيّارة آلة للركوب، فإنّه يدّل على أنّ السيف والسكّين آلة الانتفاع بخلاف (فيها) فإنها تدل على الانتفاع لتحصيل المنفعة الخارجية من الغير والمنفعة الداخلية منها معاً كما هو مفاد (في) الظرفية؛ لكون بعضها يُركَب وبعضها يُؤكَل، والأول انتفاع والثاني منفعة، والفرق يظهر جليّاً في التعبير مثل قولنا: (أكلتُ بيدي) و: (أكلتُ في يدي) فإنّ بيدي يفيد أنّ المأكول غير اليد، وواسطة الأكل هي اليد، بخلاف (في يدي) فإنه يفيد أنّ اليد هي المأكولة.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٢.

(٢) سورة يس: الآية ٧٣.

المفردة الثانية: ﴿مَنَافِعُ﴾

جمع منفعة، وهي الفائدة وكل ما يوصِل الإنسان إلى مطلوبهِ[١]، والإطلاق يفيد الدوام والاستمرار، ويشمل الفوائد الماديّة والمعنويّة، فلا تختصّ منافعها في زمان أو مكان، أو بقوم دون قوم، ومهما تطوَّرَت الحياة وتطوَّرَت العلوم ووسائل الإنتاج لا يُستغنى عن الأنعام في تَقْوِيت الغذاء واللباس؛ لأنها الأصل في المنافع الماديّة، وكذلك في المنافع المعنويّة؛ لأنها تفيد الإنسان فوائد هامّة:

الأولى: أنّ استملاكها يعطيه الشعور بالجمال والقوَّة واستقرار القلب؛ لأنها ثروة نامية ومستمرَّة.

الثانية: أنها تعلِّمه النظام والأدب والهدوء والسكينة.

الثالثة: أنها تعلِّمه العطاء الدائم دون تبجّح وغرور وامتنان، وتطهِّره من نوايا الشرِّ والعدوان بسبب قوته.

الرابعة: أنها تذكِّره بربِّه وتهديهِ إليه، وتدعوه إلى الانقياد لأوامره ونواهيه، وتجنُّب الغرور والطغيان، فإنّ الإنسان إذا ملك استأثر وطغى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[٢] ولكن الأنعام تعلِّمه كيف يكون ثريّاً في عطائهِ، متواضعاً في سيرته، وذليلاً لربِّه.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٩، (نفع)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٣، (نفع)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٤٢، (نفع).

(٢) سورة العلق: الآيتان ٦ – ٧.

المفردة الثالثة: ﴿مَشَارِبُ﴾

وهو جمع مَشْرَب، إمّا مصدر بمعنى اسم المفعول أي مشروبات، ويراد بها ما يشرب من ألبانها كما قاله بعضهم[١] وإمّا اسم مكان أي مصدر الشرب[٢]، وقيل اسم آلة وهي الآنية والقِرْبَة التي كانوا يشربون بها، وتصنع من جلود هذه الحيوانات[٣]، ولا تنافي بين المعاني، والإطلاق يتحمّلها، ويشهد لهذا بشواهد:

الأول: لو أريد بالمشارب اللبن خاصةً لتعيَّن أن يقول: (ولهم في إناثها مشارب) لأنّ اللبن يختصُّ بها دون الذكور، ممّا يدل على أنّ المراد بالمشارب الأعمُّ من اللبن بما فيها لقاح الذكور للإناث؛ إذ لولاه لا يكون لها لبن، وكذلك أدوات الشُرْب.

الثاني: لو أريد اللبن خاصةً لتعيَّن أن يقول: (ولهم في لبنها مشارب) لتنحصر المنفعة بالمشروب، والحال أنّ من مشاربها ما يؤكَل كالجبن والقشطة والسمن وما تحمله من أولادها.

الثالث: أنّ الشرب بضمِّ الشين في اللغة هو تناول كل مائع، وبكسرها النصيب من المشروب[٤] كما في قوله تعالى: ﴿**هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ**

(١) تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٠؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٦٩.
(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٩.
(٣) تفسير الرازي: ج٩، ص٩٩؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٧٧.
(٤) معجم مقاييس اللغة: ص٥٣٦، (شرب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٤٨، (شرب).

﴿شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[(١)] بينما في الأول قال سبحانه: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[(٢)] والهيم في رواية الإبل التي بها داء الاستسقاء فلا ترتوي من الماء حتى تموت، وفي أخرى أنه الرمل الذي لا يظهر فيه أثر ماء مهما سُقي، وأهل الكفر والضلالة يسقون الحميم وهو الماء الحار البالغ منتهى الحرارة فيقطِّع أمعاءهم، ورغم ذلك يعبُّون منه ولا يرتون كحال الجَمَل المريض بالعُطاش أو الرمل كذلك[(٣)].

وفي مجمع البحرين: المشارب جمع مَشْرَب وهو موضع الشُرْب أو الشِرْب بالكسر[(٤)]، ولا تعيُّن لأحدهما ولا محذور من حمل اللفظ عليهما لعدم التنافي بينهما.

المفردة الرابعة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

استفهام استنكاري لسببين:

أحدهما: غفلتهم الدائمة عن آيات الأنعام التي حولهم فلم يلتفتوا إليها ولم يتعلَّموا منها.

وثانيهما: لانتفاعهم المستمرّ بها، وتقوم حياتهم بها، وكلها ليست من عندهم بل من الله تعالى ورغم ذلك لم يشكروها.

---

(١) سورة الشعراء: الآية١٥٥.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٥٥.

(٣) انظر نفحات الرحمن: ج٦، ص١٥٢.

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٩٣، (شرب).

مع أنّ الإنسان الفطن يحب مصالحه ويتمنّى دوام منافعه، ويعمل جاهداً لكيلا تنقطع عنه ويحرم منها، وأوَّل ما يجب عليه في ذلك هو شكر النعمة والتودُّد إلى منعمها، لكن هؤلاء يتنعَّمون ولا يشكرون، وصيغة المضارع (يشكرون) تدل على دوام النعمة عليهم وعدم انقطاعها، ودوام الجحود والجفاء؛ لذا حقَّ عليهم القول بالعذاب.

ويتحصل: أنّ للأنعام منافع كثيرة لبني البشر لا يمكن أنْ يستغنوا عنها قد جعلها الباري عزّ وجلّ مصدراً للخير، وتوصلهم إلى مبتغياتهم في حياتهم المعيشية والدينية، ورغم ذلك بعضهم تطغى بهم الغفلة والجحود فلا يشكرون.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: فرق المنافع عن الفوائد

الآية المباركة قالت: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾[1] ولم تُعبِّر عن ذلك بالفوائد أو النِعَم؛ لوجود خصوصية في المنافع غير متوفِّرة في غيرها وهي الأعميّة، مع أنّ إحداهما تُطْلَق مكان الأخرى أحياناً، فإنّ المنافع تشمل الفوائد المادية والمعنوية بخلاف الفائدة فإنها تختصُّ بالماديات[2]، كما أنها تكون حسنة وقبيحة كالمنفعة المحلَّلة والمُحرَّمة، بخلاف النعمة فإنها لا تكون إلّا حَسَنَة[3]، والانتفاع بالأنعام بعضهُ مُحلَّل إذا كان من المالِك أو بإذنه ومُطابقاً للشروط الشرعيّة كالأكل والشرب، والجلود ونحوها لا يُستفاد منها منفعة حسنة إلّا إذا ذُكيت، فالانتفاع منها بذلك من دون تذكية قبيح.

وقد مرَّ أنّ الانتفاع بالأنعام فيه شبه بالعبادة؛ لاشتراكه مع العبادة ببعض الشروط الخاصة، مثل توجيهه إلى جهة القِبْلَة عند التذكية، وذِكْر

---

(١) سورة يس: الآية ٧٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٠٥، (فاد).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٥١٨، (٢٠٩٦).

اسم الله تعالى عليه، وأن يكون المذكّي مسلماً، وهذه كلها تتضمّن معنى العبادة في الصورة والغاية.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾[1] يتضمَّن صيغة اسم المكان، أي أنها مصدر النفع و موضعه؛ للإشارة إلى أنّ أعيانها منشأ المنفعة، فينبغي أنْ تستثمر بإبقاء الأعيان والانتفاع بمنتوجاتها، وفي ذلك تعليم لضرورة الحفاظ على أعيان الأنعام وأُمَّهاتها؛ لأنها مصانع للإنتاج، ولو أُريدَ الانتفاع بالأكل والشرب ونحوهما فينتفع بما تنتجه، وهذا ما تقتضيه الحكمة والقواعد الاقتصادية في الاستثمار في وجوب الحفاظ على رأس المال والانتفاع بأرباحهِ.

اللطيفة الثالثة: أنّ صيغة الاستفهام الاستنكاري يتضمَّن الحثّ والتحذير معاً؛ الحثّ على الطاعة والشكر؛ لأن هذا مركوز فطري وعقلي لدى كل عاقل يلزمه بوجوب شكر المنعم وتحذيره من انقطاع النِعمة لو تمادى الإنسان في جفائه وتمرُّده وعصيانه؛ لأن عدم الشكر يزيل النِعَم وهو ما تضافر مضمونه في الأخبار الشريفة. منها عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ لله تعالى في كل نعمة حقاً، فمن أدّاه زاده منها، ومَن قصَّر عنه خاطر بزوال نعمته»[2].

---

(١) سورة يس: الآية ٧٣.

(٢) نهج البلاغة:ج٤، ص٥٤، قصار الحكم ٢٤٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: للعصاة والمذنبين

إنّ وجود الأنعام بين البشر وكونها أليفة ينتفعون منها بسائر الانتفاعات يكشف عن أمور:

الأول: أنّ لها ربّاً صنعها وذلّلها، وهو ربُّهم أيضاً؛ للاشتراك في المبدأ والغاية.

الثاني: أنّ هذه النِعَم العظيمة تستحق الشكَر، وشكرها يتوقَّف على معرفة المنعم وطاعته ورعاية هذه النِعَم بالرفق والمداراة.

الثالث: أنّ معرفة المنعم وشكره أدب إنساني رفيع يتعامل به الناس في حياتهم اليومية، فإنّ العامل والموظف إذا يعمل في مؤسسة أو مصنع ويتقاضى منهما أجراً فإنّ عقله وشعوره الإنساني يدعوانه إلى محبة وشكر واحترام صاحب المؤسسة والمصنع، وهذا كله في مقابل عمل يقدّمه، فكيف لو كان المنعم يعطي بلا مقابل وبلا استحقاق.

وفي ذلك تنبيه إلى العصاة والمذنبين في أنهم حينما يعصون لا يتصورون أنهم على خير؛ لأن من يملك العقل السليم والثقافة الرفيعة والأدب النبيل يجب أنّ يكون في طاعة ربِّه لا عصيانه والتمُّرد عليه، فلا يكتمل الإنسان عقلاً وروحاً وأخلاقاً إلّا بشكر المنعم وطاعته.

التعليم الثاني: أفضل ثروة اقتصادية

إنّ أفضل ثروة يمكن أن يبني الإنسان عمله وتجارته عليها - وكذلك الدولة وسياستها الاقتصادية - هي الثروة الحيوانية؛ لأنها منافع محضة لا خسارة فيها، ويمكن أن تتفرَّع منها أعمال وأشغال ووظائف كثيرة تقضي على أزمة العمل وأزمة السكن، وترفع من الدخل الفردي والاجتماعي.

فإنَّ تربية الأنعام وتنميتها يثمر في استخدام لحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها وأصوافها في التغذية والألبسة والأفرشة والأثاث وغيرها، وألبانها يشتق منها الكثير من المشتقات للتغذية، وبعض الأمصال واللُقاحات الطبيّة تستخرج منها، ومخلَّفاتها تستخدم لتسميد الأرض والمَزارِع فيزيد خيرها وبركاتها.

فالطريق الأوفق لتحصيل الاكتفاء الذاتي والقضاء على المشاكل الاقتصادية والاجتماعية هو تنمية الثروة الحيوانية، وفي عين الحال ترتقي بالمستوى المعرفي والإنساني في التعامل والمعيشة؛ لما عرفت من منافعها المادية والمعنوية، وهناك وجوه أخرى لفوائد هذه الثروة.

منها: أنها تعلِّم البشر فنّ التربية والمداراة والإحسان وحبّ الخير، فتقلِّل من الشرّ ودواعي النزاع والحروب.

ومنها: أنّ وجودها يستدعي توفير الحقول والغابات والمزارع، وهذا من شأنه أنْ يحسِّن البيئة ويلطِّف الجوّ ويوجب تعاون أبناء المجتمع مع بعض.

ومنها: أنّ منظرها جميل يدخل السرور على القلوب والنفوس، ويزيل عنها الكآبة والأمراض النفسيّة، فتربية الحيوانات وتنميتها تضمن أفراداً صالحين في الأبدان والنفوس، وبيئة نظيفة، ورفاهاً اقتصادياً عالياً، ومجتمعاً سلمياً متعاوناً خالياً من الحروب، بخلاف الاقتصاد القائم على الصناعات النفطية وأمثالها، فإنها في الغالب تتضمَّن أضراراً عظيمة على البيئة والفضاء والبشر، وفي عين الحال تعود إلى التنافس السلبي، وينشأ منها الاستغلال والاستعمار والحروب، وهذا ما يجب أن يلتفت إليه العالم ويعرف قيمة التعاليم القرآنية وأنها الوحيدة القادرة على معالجة أزمات البشر، وتوصلهُ إلى سعادته.

التعليم الثالث: طريقان لتنمية الثروة

إنّ لتنميّة الثروة طريقين يكمِّل أحدهما الآخر:

الأول: تربية الحيوانات وتنميتها بما يستلزمها من تنميّة للزراعة والسقي والتخطيط والتنظيم والعمل الدائب، وهذا هو الطريق الطبيعي الذي يقوم على نظام الأسباب والمُسبِّبات.

الثاني: تربية النفوس بشكر المنعم وطاعته والالتجاء إليه، فإنّ شكر النِعَم من دواعي نموّها وزيادة بركاتها وزوال الأضرار عنها، فإنّ الذنوب والمعاصي تحبس المطر، وتزيل البركة، وتوجب الأمراض والزلازل والسيول وغيرها من حوادث تأتي على الأشياء فتُهلكها، بخلاف الشكر فإنه يجعلها مباركة.

فلو سلك الاقتصاديون ومن بيدهم سياسة الدول والتجارات والأسواق إلى السببين معاً بلغوا القِّمة في الاقتصاد مع ضمان الأمن والسلامة، ولو أخذوا بالأول دون الثاني كان التطوُّر الاقتصادي ماديّاً محضاً، وأنتج الاستعمار والحروب والدمار، فالتقدُّم الحقيقي والسعادة التّامة لا يتحققان إلّا باجتماع السببين معاً؛ لأنَّ تنمية الثروة بالأسباب الطبيعية وحدها يوجِب الطغيان، والتوقُّف على الأسباب المعنوية دون سلوك الأسباب الطبيعية جهل بسُنَن الله سبحانه في الخلق، وهذا لا يختصُّ بالاقتصاد، بل في كل جوانب الحياة الشخصيّة والعامَّة.

التعليم الرابع: طهارة المعصوم شاملة

إنّ في خلق الأنعام وتذليلها للبشر وتوظيفها للمنافع الكثيرة الجَمَّة تعليماً مهماً لأهل المعرفة وطالبي العقيدة الحَقَّة، فإنّ الباري عزّ وجلّ خلقها وذلَّلها للإنسان العادي، بل الكافر والمشرك والعاصي، وجعل له سلطة تكوينية عليها تكريماً له مع أنها أكبر منه حجماً، وأقوى منه وأصلب، لوجود حِكَم وغايات عظيمة تتوقف عليها، وهي نفع البشر وهدايتهم، وهذا يؤكد عدة حقائق مهمة تضافر مضمونها في الآيات وتواترت بها الأخبار:

الأولى: أنَّ الباري عزّ وجلّ خلقَ الوجود الإمكاني لأشرف خلقه وأعظم بريَّته وأخلص عباده وهم محمد وآل محمد عليهم السلام؛ إذ خلقَ لهم الوجود فهم غايته، وذلَّله لهم وجعله مطيعاً لأمرهم ومُنتهياً عن نواهيهم.

الثانية: أنّ لهم الولاية التكوينية على الأشياء؛ لأنّ الله سبحانه ذلّل الكواكب والأفلاك والأرض وما فيها لهم، فيملكونها ويتصرَّفون بها كما يشاؤون بإذن الله سبحانه، فإنّ الاثنين من باب واحد وملاك واحد وإن اختلفت المراتب والدرجات، فمن ذهب إلى استحالة ذلك ذاتاً أو وقوعاً تبطله الآية، وأدل دليل على إمكان الشيء وقوعه، فما وقع في الدرجة الدانية يثبت لما هو أرقى وجوداً وشرفاً بمستوى أعلى.

الثالثة: أنهم أطهار مطهّرون من كل آفة ونقص وعيب مادي ومعنوي، والشاهد على ذلك كله خلق الأنعام، فإنها مخلوقة للإنسان ومذلّـلة له أن يتصرَّف فيها كيف يشاء بتذليل الله سبحانه لها، وله الولاية على التصرُّف فيها ركوباً وذبحاً وأكلاً، وفي عين الحال طهر كل ما فيها حتى بولها وروثها فضلاً عن لبنها ودمها الذي في داخل أجسادها، فإذا كانت الأنعام بهذه الخصائص والامتيازات المعنوية وهي مخلوقة من تراب، فما المانع من أن يكون أشرف المخلوقات طاهراً مطهَّراً وكل شيء فيه طاهر، وهم مخلوقون من نور الله سبحانه ومن أشرف تراب الجنة

التعليم الخامس: في تحليل الأنعام وتطهير ما فيها وتذليلها وتمليكها للإنسان يظهر التطابق بين التكوين والتشريع في الشريعة، وعدم تصادم قوانينها، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ

يس/ ٧٤

دلائل الواو

(الواو) إمّا عاطفة والمعطوف عليه قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾[1] فتفيد الذمَّ على اتخاذهم آلهة من دون الله سبحانه مع أنه خَلَقَهم وخَلَقَ لهم الأنعام وكل ما ينفعهم، وإمّا إضرابية معطوفة على ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2] والمعنى أفلا يشكرون، بل اتَّخَذوا من دون الله آلهة لبيان شدة غفلتهم وجفائهم، فبدلاً من شُكْر المُنعِم بطاعته اتَّخَذوا لأنفسهم آلهة غيره وعبدوها.

وإمّا حاليّة في مقام جواب عن الاستفهام الاستنكاري في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ لبيان مصداق عدم شُكرِهم له سبحانه، وهو اتِّخاذهم آلهة من دونه، فهم لم يشكروه سبحانه في حال اتِّخاذِهم آلهة من دونه.

وعلى كل تقدير فإنّ فِعْلَهم في غاية الشناعة والقبح؛ لأنه سبحانه سدَّ عليهم أبواب الجحود والإنكار، فأتمَّ عليهم الحجج بالآيات الآفاقية الدالة عليه في الشمس والقمر وإحياء الأرض ونحوها، ثم بالأنفسية في قوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم بالنِعَم التي غمرهم بها وقَوَّتَتْ حياتهم البدنية والروحية كالأنعام، فلو كانت لهم عقول أو قلوب أو

---

(١) سورة يس: الآية ٧١.

(٢) سورة يس: الآية ٧٣.

أخلاق تدعوهم إلى الإنصاف ومقابلة الإحسان بمثله لشكروا المنعم وأطاعوه، لكنَّهم فعلوا ما يدلُّ على وضاعتهم وسقوط القيَم والأخلاق في نفوسهم وجمود العقول والقلوب، فأكلوا نِعَم الله سبحانه، واستمتعوا بإحسانه، لكنهم عبدوا غيره؛ فالآية المباركة تكمِّل مضامين الآيات السابقة.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾

مأخوذة من أخذَ الشيء أي حازه وجمعه وهو خلاف العطاء[1]، وهو مادّي كالأخذ باليد. يقال أخذت الكتاب أي حُزْتُهُ بيدي، ومعنوي وهو انتهاج الطريق والالتزام به، وهو أعمُّ من التناول، فإنّ التناول للنفس خاصةً، ويختصُّ بالماديات، ولذا لا يصحُّ أطلاقه على فعل الباري عزّ وجلّ، بخلاف الاتِّخاذ فإنه يُطلَق على تناول الشيء ماديّاً أو معنوياً، ولذا يصّحُ إطلاقه عليه سبحانه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ**﴾[2] ويطلق على فعل الله سبحانه في العذاب أيضاً كما في قوله سبحانه: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ**﴾[3] كما أنه أعمُّ من الاختيار؛ لأنه لا يكون إلّا عن أمرين:

أحدهما: قصد وإرادة.

ثانيهما: وجود مكافأة بين الشيئين، ويرجح أحدهما على الآخر لوجود خير فيه، فإنّ الاختيار من الخير، والمُختار يأخذ بخير الشيئين عند

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٤٧، (أخذ)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٨، (أخذ).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧.

(٣) سورة هود: الآية ١٠٢.

نفسه[(١)]، بخلاف الأخذ فإنه يشمل ما لا يكون عن قصد وإرادة، ولا عن إدراك لخير المأخوذ، بل ربما يقع بترجيح الأسوأ والأقبح وهو ما ورد في الآية؛ إذ هؤلاء الغافلون الكافرون اتَّخذوا من دون الله آلهة لهم وعبدوها مع أنها لم تنفعهم ولم تحسن إليهم، وأعرضوا عمَّن أوجدهم وأحياهم وأبقاهم بتواتر نعمه عليهم.

وقال: (اتخذوا) وليس (أخذوا) لأنّ الاتِّخاذ يقال لأخذ الشيء مع الدوام والاستمرار عليه[(٢)] كما في قوله: اتَّخَذَ الدار سكناً، وكربلاء وطناً، ولا يصحُّ أن يقال (أخذَ) لأنّ الأخْذ يصدق في المرة والمرتين، فإذا استمرَّ الأخْذ يقال اتَّخذَ، وهذا هو ما يوافق نهج الكفار في عبوديتهم لغير الله سبحانه.

المفردة الثانية: ﴿مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾

(من) جنسيّة، أي اتخذوا من جنس آخر مغاير لله سبحانه ذاتاً ووصفاً (آلهة) وهي المعبود[(٣)] كما قرَّرناه في أبحاث سابقة، ووردت بصيغة النكرة للدلالة على تعدُّد الآلهة وعدم انحصارها في واحد، وفيه دلالة على أنّ الكفار ما كانوا ملاحدة ينكرون الخالق، وإنما كانوا كفاراً في العبودية والطاعة، وهذا هو الأصل العام في البشر؛ لأن العقل والفطرة وشواهد الحسِّ والتجربة كلها تدلُّ على وجود الخالق، ولا ينكر ذلك إلّا من يبتلى بمرض الشكِّ النفسي والعقلي، فيشكّ في الحقائق الظاهرة.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٨، (١٠٢).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٩، (١٠٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢، (أله).

وإنما الابتلاء الأعظم الذي يقع فيه الناس هو العبوديّة، فبعضهم يتَّخذ الأصنام معبوداً له بتوهّم أنها وسيلة تُقرِّبه إلى الله سبحانه، وبعضهم يتَّخذ شهوته ودنياه معبوداً له، وبعضهم يتّخذ غروره واستعلاءه معبوداً له، وبعضهم يتّخذ الحاكم والسلطان معبوداً له فيطيعه فيما يأمر وينهى وإن كان على خلاف العدل والشرع والقيَم الإنسانية، وكل ذلك جامعها عبادة الشيطان[1].

ولفظ الجلالة (الله) بناءً على أنه مشْتقّ فأصله (إله) أي الإله المعبود، ثم أستعاره المشركون لما عبدوا من دونه.

وبناءً على أنه اسم للذات المقدسة الجامعة لجميع الصفات العليا والأسماء الحسنى فمعناه ظاهر، والأخبار وردت بالمعنيين[2]، ولا تنافي بينهما على ما قرَّرناه في بحث البسملة.

ومن ذلك يتّضح وجه التناسب في قوله تعالى: ﴿**مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً**﴾[3] بينما في آيات أخرى استعار عن لفظ الجلالة بالضمير (من دونه) لأن الغرض بيان المعبود الذي يستحق العبودية وتمييزه عن غيره.

وقال: ﴿**مِن دُونِ اللهِ**﴾ ولم يقل: (سوى الله) ولا (غير الله) لوجود خصوصية في (دون) غير موجودة في (سوى وغير) وهي أنّ (الدون) فيه

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٠.
(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٣٣٩-٣٤٠، (أله).
(٣) سورة يس: الآية ٧٤.

معنى التدنّي والتنقيص[١] في الحكم وفي الفكر حينما اتَّخذوا لأنفسهم آلهة؛ لأنّ مفاد الاتِّخاذ هو الإقصاء والتعامي المطلق عنه سبحانه، والتوجُّه والانقطاع إلى الآلهة، بخلاف (سوى) فإنها تفيد وجود مكافأة بين الطرفين لكنهم اختاروا غيره عليه سبحانه؛ كما أن (غير) يفيد الالتفات إلى الطرفين ولكن لا يختار أحدهما، فالتعبير بـ(دون) يكشف عن غاية الغفلة والظُلم والوضاعة في المستوى الفكري والأخلاقي في الكفّار.

المفردة الثالثة: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾

(لعلّ) للترجِّي، و(النصر) التأييد والتغليب على الصعوبات والقواهر في الدنيا بتوفير أمور المعيشة وأسباب الرزق والصحة والسلامة، وفي الآخرة بالشفاعة، وفيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أنّ هؤلاء كانوا مُعاندين في عبوديتهم للآلهة مُصرّين على كفرهم وجحودهم، ولذا قال سبحانه: **﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[٢] في بادئ السورة.

ثانيهما: أنهم كانوا يحملون في قلوبهم كرهاً للخالق العظيم؛ إذ لا معنى لطلب النصر من غيره مع أنه أوجدهم وأسبغَ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة، فحينما يعبدون غيره ويرجون النصر ممَّن هو عاجز عن نصر نفسه فإنه يدل على أنهم كانوا من إحدى فئتين: فئة غافلة وعمياء لا تبصر الحقائق، وهذا

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٣٠٥، (دان).
(٢) سورة يس: الآية ٧.

ممتنع في حقهم؛ لأنّ الآيات الحسيّة والوجدانية والآيات الآفاقية والأنفسية تامَّة الدلالة حولهم، ولو شاءت لبصرت وتوصلَّت إلى الحق لكنها لا تريد أن تتبَّصر. وفئة حاقدة مُكابِرة ومُعاندة تعرف الحقيقة وتُغض النظر عنها ظلماً وعلوّاً، وهذا الاحتمال أرجح من الأول، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[1].

ويتضح من مجموع المفردات: شدة العناد والمكابرة التي كانت مستولية على نفوس هؤلاء الكفار بحيث يجمدون عقولهم وقلوبهم ويطفئون نور الفطرة ويتركون عبادة مَن أوجدهم وأحسن إليهم، ويعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فلم يبق لهم سوى العذاب.

---

(١) سورة النمل: الآية ١٤

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: فرق الإتخاذ عن الإتباع

الآية الشريفة قالت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] ولم تَقُل اتَّبعوا أو عبدوا؛ لأنّ الاتخاذ يتضمَّن معنى الدوام والاستمرار عن قصْد وعِلْم، بخلاف الاتِّباع فإنه قد يكون عن غفلة أو جهْل، وكذلك العبادة؛ فالاتِّخاذ متابعة مقصودة في العمل والتزام مقصود في الرأي، والمُلفِت أنّ الآيات السابقة تحدَّثت عن الخلق والخالق ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾[2] وهذه الآية تحدَّثت عن العبودية إذ قال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولعلّ السرَّ أنّ هذه الآية بيان للغاية في الخلْق؛ إذ لولا العبودية لم يكن وجه للخلق والإيجاد وإنْ كان للعبودية غاية أخرى أسمى وأعلى منها، فإذا التَفَتَ العبد إلى جهة الخلق والخالق لابد وأنْ ينتهي إلى معرفته والعبودية له هذا ما يقتضيه العقل والفطرة السليمة فإذا ألتفتَ العبد إلى الخلق وعرَفَ الخالق وعبدَ غيره دلَّ على غاية الوضاعة فيه بحيث لا يُطهِّره إلاّ النار وبهذا يتضِّح أحد وجوه جعْل العذاب بالنار والخلود فيها.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٤.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

اللطيفة الثانية: لماذا وردت الألهة نكرة؟

الآية عبَّرت عن الآلهة في قوله تعالى: (آلهة) بصيغة النكرة لبيان تعدد آلهة الكفار ومعبوداتهم في مقابل لفظ الجلالة (الله) الواحد الأحد الفرد الصمد؛ لإلفات القارئ والسامع إلى حقانيّة الإيمان بالله سبحانه والعبودية له؛ لأنّ تعدد الآلهة يدل على أمور:

الأول: وجود اختلاف ومباينة بينها وبين أتباعها في المبادئ والغايات لولاها لكانت الآلهة واحدة.

الثاني: أنّ جميع الآلهة باطلة ومزيفة؛ لأنها لو كانت حقيقية لفعلت وتصرَّفت في الوجود، وأحيَتْ ورزقت وأماتت.

الثالث: أنّ جميع الآلهة عاجزة عن التصرُّف في شؤون الوجود، ولو تصرَّفَت لانهدَمَ الوجود بسبب تعارض الإرادات، فإما لا يوجَد أصلاً لمنع كل إله إرادة غيره، وإمّا يوجده البعض ويهدمه البعض، ولكن بما أنّ الوجود كله قائم وقوانينه متكاملة مع بعضها ولا هدْم ولا فساد كشفَ عن أنّ التعدُّد في الآلهة باطل، وليس للعالَم إلّا إله واحد هو الله سبحانه.

الرابع: أنّ تعدُّد الآلهة في العبودية باطل أيضاً؛ إذ لو كانت تستحق العبودية لأرسلت إليهم ما يدلهم على العبادة، ويعرفهم بقوانين المعاملة التي ترضاها الآلهة في المعاملات، وتنصرهم عند الشدَّة، ولو وقع هذا لتعدّدت الرُسُل والقوانين واختلفت اختلافاً شديداً، لكن الواقع الخارجي يدل على أنّ كل مَن جاء إلى البشر حدَّثهم عن إله واحد هو الله سبحانه، وأثبت لهم أنه مرسل من قبله، وأنّ له أحكاماً وشرائع وقوانين وأنظمة غير

مضطربة في نفسها لولا تدخل يد التحريف والتزوير، فكل عاقل سليم الفطرة إذا التفت إلى التنظيم والوحدة في المبادئ والغايات والأنظمة في العالم يدرك أنّ خالقه واحد، وإلهه واحد، فلا تعدُّد في الآلهة، ومن هنا جعل لفظ الجلالة (الله) مقابل الآلهة.

وهذه المضامين أشارت إليها آيات عديدة. منها قوله تعالى: ﴿**لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[(١)] و: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[(٢)] و: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[(٣)].

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ**﴾[(٤)] ورد بصيغة المبني للمجهول مع أنّ التمنِّي والترجّي يقضيان أن يكون بصيغة المبني للمعلوم أي (ينتصرون) ولعلَّ السرَّ فيه بيان أنّ ما يتمنّونه مبني على أوهام وخيالات لا حقيقة له فإنَّ المبني للمجهول يفيد البعد عن الواقع، والملفت أنّهم عبَّروا عن تحقيق الأمنيات بالنصر؛ لأنهم كانوا يشعرون أنهم في ساحة حرب وتحدٍّ مع الأنبياء يبحثون فيها عن النصر وليس تلبية الحاجة والوصول إلى الحقيقة، وهذا شاهد آخر على شدَّة عنادهم ومكابرتهم، وبذلك تبطل دعاوى البعض بأنّ التعذيب بالنار للكفار والخلود فيها لا يتناسب مع العدل.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية٢٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٤) سورة يس: الآية ٧٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: مظاهر الرقي الفكري

إنّ على الإنسان أن يكون راقياً في فكره وعمله، ولهذا الرُّقيّ مظاهر نذكر منها مظهرين:

الأول: الإقرار بالنعمة وشكرها وعدم الجفاء بالمنعم، فإنّ إنكار النعمة وجفاءها من أخلاق الكفار والمعاندين.

الثاني: أن يفكِّر فيما له أثر على نفسه وحياته فيلتزم بما له أثر نافع ويتجنَّب ما لَهُ أثر ضار، وهؤلاء الكفار أعرضوا عن الله وهو نافعهم، وعبدوا الأصنام وهي ضارة لهم، وذلك يدلّ على تردٍّ في المستوى العقلي والفكري والأدبي؛ وهذه القاعدة ينبغي أن تراعى في تبنِّي الأفكار وفي بناء العلاقات الاجتماعية والانتماءات وتولِّي المناصب والوظائف وحتى في تكوين الأسرة، فإنّ الشاب يجب أن يفكِّر في الزوجة النافعة له لا ذات الجمال والمال فقط، والزوجة كذلك، وكذلك في العمل والتجارة فإنّ بعض الأعمال مربحة من جهة لكنها مضرَّة من جهات، ولا تكون التجارة نافعة إلّا إذا كانت بالحلال، فإذا دخلها الحرام صارت مهلكة لا بركة فيها.

التعليم الثاني: لا تربط مصيرك بالظالمين

لا ينبغي أن يبني الإنسان آماله على العاجزين الفاقدين؛ لأن فاقد الشيء لا يُعطيه، وهذا تعليم لمن يربط مصيرهُ بالأنظمة والحُكّام والسلاطين الظالمين، أو الدول الكبرى الطاغية، ويجعل أمله وارتباطه بالقوي القادر وهو الله سبحانه، فإنّه الوحيد القادر على نصر الإنسان وإنقاذه من الفقر والمشاكل والأزمات، ويجعل حياته طيّبة.

فلو أنّ الإنسان ربط مصيره بالله سبحانه انتصر، ولو أنّ الحكومات والدول ربطت سياستها بالله واستعانت بقوَّتهِ وقدرته لما تمّكنت كل جيوش العالم أن تغلبها؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**﴾[1].

فعلى الناس أن يفكروا كيف يحصلوا على نصر الله تعالى، وتؤكد الوقائع والأحداث أنّ الباري عزّ وجلّ لو شاء أن يبيد الأرض ومن عليها لكان هيناً عليه، وإنَّ سيلاً واحداً يداهم أهل المدن والحضارات لا تنهض لمقابلته كل جيوشهم وأسلحتهم، فلا ينبغي للعاقل أن يتّخذ من دون الله آلهة، ولا يأمل النصر من غيره؛ لذا يقول سبحانه: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلّا مِنْ عِندِ الله**﴾[2] ولكن الناس يغفلون.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٦؛ سورة الأنفال: الآية ١٠.

التعليم الثالث: لا تعدد في العقيدة

إنّ تعدُّد الآلهة دليل على بطلانها، كذلك تعدُّد القوى والاتجاهات والمناهج، فإنّ الدليل على بطلانها معها، وليس لهذا العالَم إلّا إله واحد وهو الله هو خالقه وموجده تكويناً، وهو المشرِّع له القوانين والأنظمة، وليس طريقه إلّا محمداً وآل محمد عليهم السلام، وهو واحد في المبادئ والغايات والأحكام والسيرة، وكل طريق آخر غيره هو جفاء بالنعمة واتخاذ من دون الله آلهة ولا نصر ولا غلبة له.

ومن هنا نلاحظ أنّ الأنبياء يتفقون على نهج واحد، وكل مناهجهم وشرائعهم ودعواتهم تلخَّصت في الإسلام، والإسلام تلخَّص في النبيّ وعترته عليهم السلام، وبيدهم النفع والضرر بإذن الله، فإذا اتَّخذَ الناس غيرهم قادة وأئمة وقعوا بما وقع به الكفار؛ إذ اتَّخَذوا من دون الله آلهة؛ فلذا سيكون جزاؤهم مثلهم، ومنه يعرف أنّ التعدّدية قسمان: تعددية إيجابية وهي ما كانت في الأعمال والآراء والمشاريع، فإنها توجب التنافس والتقدُّم، وأخرى سلبية وهي ما تكون في العقيدة، فإنّ العقيدة واحدة، والعقيدة الحقَّة لا تتعدّد؛ لأن الحق واحد، فما يقوله البعض من التعددية فيها غير سديد كما أشارت إليه الآية.

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ
لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ

يس/ ٧٥

اختلفَت الآراء في معنى الآية، ومنشأ الاختلاف مراجع الضمائر، وذكر المفسرون أقوالاً كثيرة لها[1]، ووصفها بعضهم بأنها أقوال رديئة[2]، والظاهر أنّ الآية جواب عن توهّم الكفار بأنّ الآلهة قادرة على إعانتهم وتلبية احتياجاتهم ونصرتهم في مواقع التحديات في الحياة، ونَفَت الموضوع من أصله ببيان أنّ كل ما يبنون عليه أفكارهم ومعتقداتهم قائم على وَهَم وتناقض؛ لأنّ العاجز في نفسه عاجز عن إنقاذ غيره.

والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ح٨، ص٥٢؛ روح المعاني: ح٢٣، ص٧٠؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣١.

(٢) تفسير الميزان: ح١٧، ص١١١.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾

نفى الاستطاعة عن الآلهة في أنْ تنصرهم، وإطلاق النفي يشمل مراتب النصر الثلاث، أي نصر التأييد والإعانة في الأعمال ونصر التخليص والإنقاذ من المشاكل والأزمات والحماية منها ونصر الغَلَبَة والظهور في التحديات والحروب[1]، كما يشمل النصر الدنيوي والآخروي معاً؛ إذ كانوا يعتقدون أنّ الآلهة تقربهم إلى الله زلفى في الدنيا، وتكون لهم شفيعة عند الله في الآخرة، كما أشارت إلى ذلك آيات أخرى؛ إذ قال سبحانه عن لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى﴾[2] وقالوا: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾[3] فأجابهم الباري عزّ وجلّ بأنَّ هؤلاء لا يستطيعون أن ينفعوكم ويحققوا لكم ما تريدون، والأمر بديهي؛ لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه، وهو ناقض لغاية اتّخاذ الآلهة، والملفت أنّ الآية عبَّرت عن الآلهة بضمير العاقل مع أنها أصنام وأوثان، ولعلّ السرَّ في ذلك يعود إلى أسباب ثلاثة:

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٢٥،(نصر).

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣) سورة يونس: الآية ١٨.

الأول: محاكاة لعقولهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ أصنامهم التي يعبدونها تسمع وتدرك وتعقل وتضرّ وتنفع، فلمّا أعطوها صفات العاقل حاكاهم الباري عزّ وجلّ بمنطقهم، وفي ذلك حكمتان:

الأولى: مراعاة لهم لكيلا يصدمهم نفسياً فتنسدَّ نفوسهم عن قبول الحق حينما يكشف لهم عن زيف هذا المعتقد، فإنّ الاستجابة للعظة تبدأ من تواضع النفس أولاً وعدم تعصّبها، وهذا لا يتحقق إلّا بالمجاراة أولاً ثم تصحيح الخطأ فيها.

الثانية: إثبات أنّ هؤلاء حتى على فرض أنها عاقلة تسمع وتعقل لكنها عاجزة ولا تملك من أمرها شيئاً، بل هي نفسها تحتاج إلى مَن يصنعها وينصبها في مقاعدها، ويقوّم قعودها إذا طاحت أو تهدّمت، فكيف تكون ناصرة لغيرها، بل ناصرة لمن هو ينصرها ويقوِّم وجودها، ولولاه لما كانت ولا بقيَت.

الثاني: لأن الآلهة التي يعبدونها غير منحصرة بالأصنام، بل بعضها أوثان، وهي كل معبود سوى الله سبحانه، وتشمل عبوديّة النفوس وشهواتها والشياطين وإغواءاتهم، وهذه من جنس العاقلين، وهي الغالبة في بني آدم، فجعل الضمير للمذكَّر العاقل تغليباً.

الثالث: لأنّ بعض آلهتهم كانوا الزُعماء والقادة ومَن يملكون المال والسلطة، ويسخِّرون الناس لخدمتهم وإطاعة أوامرهم، وهم يتّبعونهم طمعاً أو خوفاً، وهذا النحو من العبودية هو الغالب في المجتمعات

البشرية؛ إذ الكبار والزُعماء يُدْخِلون الناس في الضلالات والفِتَن إن كانوا ظالمين، أو ينجّونهم وينقذونهم إن كانوا صالحين، والغالب هو الأوَّل، لأنّ طريق الباطل تتعاضد عليه شهوات النفوس وتضليلات شياطين الجنّ والإنس، وفي الآخرة ينكشف الزيف، ويندم الأتباع؛ لأنهم يؤخذون بجرائر الزُعماء ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[١].

والواقع الخارجي لحياة الناس شاهد على هذه الحقيقة، وهي أنّ من يعبد غير الله أكثر ممَّن يعبد الله، فإنّ العاصي يعبد غير الله بعمله وإن لم يعبد الصنم الحجري، بداهة أن عبادة الأحجار أصبحت واضحة البطلان، ولكن الذين يتّبعون أصنامهم النفسيّة - أنانياتهم وشهواتهم وطمعهم وحسدهم – كثيرون، وبعضهم يؤمنون بالله نظرياً لكنهم عملياً عباد لشهواتهم.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٢] والذين يعبدون الزعماء والقادة المنحرفين ويتبعونهم فيما يأمرون وينهون هم كثر وإن برَّروا لأنفسهم التبريرات، وأكثر الظلم والفساد الواقع في العالَم اليوم ليس نتيجة عبادة الأصنام الحجرية، بل نتيجة أصنام النفوس وأصنام الساسة والقادة، ومنه يتّضح أنّ كفر العمل وشرك الفعل هو السائد الغالب وليس كفر العقيدة وشركها.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٣؛ سورة الجاثية: الآية ٢٣.

المفردة الثانية: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾

(الواو) حاليّة، وقيل عاطفة وهو ضعيف؛ لمخالفته للظهور، وضمير الجمع يعود على الكفار والمشركين، والضمير (هم) في (لهم) يعود على الآلهة، و(الجند) هم الأنصار والأعوان في السِلْم والحرب[1].

والمعنى أنّ هؤلاء بدرجة من عمى القلوب وسذاجة العقول بحيث يتخذون من دون الله آلهة ليستعينوا بها على أمورهم، لكنهم في الحقيقة هم الذين يعينونها حتى تتكوَّن وتقوَّم ويكون لها المكانة كما هو المروي عن أبي جعفر عليه السلام[2].

وهذا ينطبق على الأصنام بشكل جلي، كما ينطبق على آلهة النفوس والشياطين، وعلى آلهة القادة والزعماء، فإنّ الشهوة لا تتحفَّز في النفس إلّا باستجابة الإنسان لها، والشيطان لا يطمع في بني آدم إلّا لأنهم ينحنون له ويطيعونه، والزعيم والقائد من الذي يصيّره كذلك لولا الاتباع والأنصار، فالناس هم الأساس للقوة والتأثير، فيتخذون الآلهة لأجل أنْ تنصرهم عند شدائدهم، ولكنهم في الحقيقة هم الذين يوفرون لهم الحماية والنصرة وتعليَّة الشأن.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٢٠٩،(جند)؛ مجمع البحرين: ح٣، ص٢٨،(جند)؛ المعجم الوسيط: ح١، ص١٤٠،(جند).

(٢) تفسير القمي: ح٢، ص٢١٧.

والمستفاد من الآيات والروايات أن لا يستطيع أحد أن يحكم بني آدم إلّا إذا هم انحنوا له ومكَّنوه من أنفسهم، فإنّ الله سبحانه خلق الإنسان وأعطاه القوة والإرادة والاختيار، وسلَّطه على نفسه وفكرهِ وعمله، لكنه هو الذي يسلِّط غيره عليه بجهله وطمعه وشرهه، ولذا جعل الباري عزّ وجلّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام وعصمهم من القبائح، وأمر الناس باتِّباعهم وإطاعتهم، وجعل طاعتهم طاعة الله، ونهاهم عن طاعة غيرهم، وأعطاهم الشفاعة في الآخرة لأتباعهم، لكن الكثير من الناس يعملون العكس، وماذا يعني هذا؟ إنهم اتَّخذوا آلهة من دون الله، وصيَّروا لأنفسهم أصناماً يعبدونها طمعاً منهم بما يعبدون، ولكنهم في واقع الحال أنّ هؤلاء الأصنام هي التي تحتاج إلى الناس وتستقوي بهم، وهذا من التناقض العجيب الذي وقعت فيه البشرية بسبب ابتعادها عن الأنبياء والأولياء؛ إذ اتخَذوا لأنفسهم آلهة تنفعهم في الدنيا والآخرة، وإذا بهم يتخذون مَن هو عاجز في نفسه ولا يقوم إلّا إذا أقامه أتباعه ومناصروه.

حينما تعمى القلوب والعقول هكذا يكون مصير البشر، وليس الأمس بأسوأ حالاً من اليوم، بل ازدادت العبودية للآلهة اليوم بالخداع والزيف الإعلامي والسياسي بحيث يتصور الظلم عدلاً، والجاني عادلاً، والمظلوم يكون معتدياً، وهذا ما لا يتغيَّر إلّا إذا أدركَ الناس هذه الحقيقة وعادوا إلى رُشدهم، واتَّبعوا نهج الأنبياء والأولياء لاسيّما محمداً وآل محمد عليهم السلام.

المفردة الثالثة: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾

مأخوذة من الحضور والمشاهدة[١]، وصيغة اسم المفعول تفيد أنهم ملزمون بالحضور. أمّا في الدنيا فلأنهم انقادوا وسلَّموا زمامهم إلى الآلهة فلا يملكون خياراً في مقابلها، وهو حضور طوعي لكنه أشبه بالجبر، فهم مُحضَرون عندما يقومون بخدمتها، وأمّا في الآخرة فهم مجبرون على الحضور؛ لأنّ الباري عزّ وجلّ يحضرهم عند الحساب، ويحضر معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، ومع أنّ الكل حاضر عند الكل ولا أحد يستطيع أن يدفع عنهم العذاب، وقد ورد في الأخبار أنه يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه كأنهم جنده فيحضرون في النار[٢].

ولعلّ سرَّ إحضار الجميع إيجاد اليأس في نفوس الكفار؛ لأن إحضار أحدهم دون الآخر يبقي الأمل في قلوبهم في أن تأتي باقي معبوداتهم وتنقذهم، ولكن إذا حضر الجميع تبيَّنَ أنّ الكل صاغر أمام قدرة الله تعالى وإرادته وعدله، ويجد كل منهم أنه عاجز عن نُصرَة صاحبه، فيقول لهم: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۞ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**﴾[٣] والكل يحشر إلى النار ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٢٥١،(حضر)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤١،(حضر)

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٤

(٣) سورة الصافات: الآية٢٥-٢٦

(٤) سورة الصافات: الآية٢٢

فالعابد والمعبود في المصير سواء. أمّا العابد فلاستحقاقه، وأمّا المعبود إن كان صنماً حجرياً فلأنه يكون وقوداً لجهنم، ويكون حسرةً على أتباعه، وبها يتعذبون، فمن بنوا عليه الأمل بالنفع صار ضارّاً لهم، وأما إن كان صنماً بشرياً فلرضائه بذلك، وفي ذلك إشارة إلى أنّ أتباع الآلهة في الدنيا سيكونون لهم جنداً في الآخرة يطوفون حولها يعرفون بها ويخدمونها، فهم خدم في الدنيا وفي الآخرة كما تشير إليه الآية، ويتوافق هذا المعنى مع قاعدتي تسانخ الأعمال وتجسُّم الأعمال، وفي هذا تنبيه عظيم وخطير لبني البشر، فإنّ اتباع الأنبياء يكونون معهم في الآخرة، وأتباع الطُغاة يكونون معهم[1].

وهؤلاء ليسوا فقط يكون مصيرهم مصير الباطل واصحابه بل في حياتهم الدنيا يعيشون التّيْه والضلال في الأفكار والمواقف، فإنّ مَن لا يتبع النبيّ وأهل بيته عليهم السلام في القول والعمل يقع في هذا المصير، والشواهد في هذا كثيرة:

منها: في رواية محمد بن مسلم قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿كل مَن دانَ الله عزّ وجلّ بعبادة يُجهِد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيهُ غير مقبول، وهو ضال مُتحيّر، والله شانئٌ لأعماله، ومثَله كمَثَل شاة ضَلّت عن راعيها وقطيعها فهجمَت ذاهبة وجائية يومها، فلمّا جنَّها الليل بصُرَت بقطيع غنم مع راعيها فحنَّت إليها واغترَّت بها فباتت معها في مربضها، فلما أنْ ساقَ الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمَت متحيّرة تطلب

---

(١) انظر مجمع البيان، ح٨، ص٢٨٩

راعيها وقطيعها، فبصُرَت بغنم مع راعيها فحنَّت إليها واغترَّت بها، فصاح بها الراعي: الحقي براعيكِ وقطيعكِ فأنتِ تائهة مُتحيِّرة عن راعيكِ وقطيعكِ، فهجمَت ذَعِرَةً مُتحيِّرة تائهة لا راعي لها يُرشدها إلى مرعاها، أو يَردُّها، فبينما هي كذلك إذ اغتنمَ الذئب ضيعتها فأكلها، وكذلك والله يا محمد مَن أصبحَ من هذه الأُمّة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهر عادل أصبحَ ضالّاً تائهاً، وإنْ مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلَم يا محمد أنّ أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا، فأعمالهم التي يعملونها ﴿**كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ**﴾[(١)]»[(٢)].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٢) الكافي: ج١، ص١٨٤، ح٨؛ وانظر المحاسن: ج١، ص٩٢- ٩٣، ح٤٧.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: لماذا نفت الاستطاعة؟

الآية نَفَت الاستطاعة ولم تنف القدرة؛ لأن عقيدة هؤلاء كانت قائمة على الظن بأنّ الآلهة تسمع وترى وتجيب لهم حاجة مأخوذة من الطاعة، وصيغة الاستفعال تعني طلب الطاعة، ولذا فسّرها بعض أهل اللغة بالإجابة، وهي أخص من القدرة[1]، كما أنها تقع في الأفعال المحدودة وما يتوقف على الوسائط والأسباب، ولذا لا تطلق على فعل الباري عزّ وجلّ، وإنّما تُطلَق عليه القدرة لعدم توقّف فعلهِ على شيء آخر غير إرادته سبحانه، وتشير في ذلك إلى معنى لطيف نتيجة إيقاع اليأس في قلوب الكفار والمشركين في العقيدة والعمل، فإنهم اتخذوا الآلهة لأجل كسب نصرها لهم عند الشدة، وهذه عقيدة مبنيّة على الغيب، ولكنهم يجدونها عاجزة عن ذلك حتى في حضورها، وفي ذلك تسخيف لمعتقدهم.

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٤٧، (١٦٣).

اللطيفة الثانية: لماذا وصفوا بالجند؟

في قوله تعالى ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾[(١)] إشارة إلى أنّ هؤلاء اتَّخذوا عبادة الآلهة نهجاً وغضبوا لأجلها، وضحّوا بأموالهم ونفوسهم في نصرتها، فكانوا من جندها. كل ذلك رجاء أنْ تنصرهم عند حاجتهم، وتكون من جندهم، لكن النتيجة واحدة، فهم ظلوا جنودها في الدنيا وفي الآخرة، وهذه عاقبة مَن لا يُفكِّر في اختياراته، ويتبع نهجاً بعمى قلبه وذهول عقله؛ لأن الخاتمة تبنى على مقدماتها، فأي فائدة لاتباع نهج وإطاعة آلهة لا تنفع في الدنيا ولا في الآخرة، بل تضرّ أهلها بشر ضرر، وقد وردت الأخبار بطرق الفريقين لبيان هذه الحقيقة[(٢)].

وذات القضية تنطبق على مَن يتبع آلهة النفس أو الشهوة والشيطان، أو آلهة القادة الضالين، فإنهم يحضرون لهم في كل موقف ويكونون لهم سنداً طلباً للنصرة والحماية منهم، وتخيب آمالهم عندما يُحْضِرهم الباري عزّ وجلّ ويلقيهم في عذاب جهنم معهم؛ إذ قال سبحانه عنهم: ﴿**وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**﴾[(٣)].

---

(١) سورة يس: الآية ٧٥.

(٢) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢١٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٨٥، ح٨٣؛ الدر المنثور: ج٥، ص٢٦٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٢.

اللطيفة الثالثة: كيف يحضرون؟

الجمع في قوله: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾(١) يشمل الآلهة وعُبّادها، وطريقة الإحضار أنْ تكون الآلهة إماماً يصطفّ خلفهُ أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾(٢) ولعلَّ من أشد مواقف يوم القيامة خزياً وحسرةً وندامة هو أنْ يجد البشر أصحاب القول والادعاءات العريضة أنّ إمامهم صنم من حجر أو شيطان أو زعيم فاسد فاجر ينادون باسمه ويُحاسَبون على دنياه، ويُحشَرون معه إلى جهنم.

وتزداد حسرتهم عندما يجدون أنفسهم محضرين ولا حول لهم ولا قوة ولا صوتاً ولا شفيعاً، وأنّ كل ما بنوه وعملوا لأجله في الدنيا زال عنهم، والأنكى من ذلك أنّ هؤلاء الذين أضلوهم وخربوا عقولهم وقلوبهم وأفسدوا حياتهم في الدنيا هم نفسهم سيكونون لهم جنداً يخدمونهم في العذاب، ومن أشد ما يعيشه المرء أن يجد ما بنى عليه من آمال أوهاماً ومطامعه أضراراً.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية٧١.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: إرشادان للمحاورين

إنّ القرآن الكريم يعلِّمنا شيئين حينما نُبَلِّغ أو نخوض الحوار:

الأول: الهدوء وعدم الانفعال، ونعطي فرصة للعقول أن تتكلَّم دون أن تضطرم النفوس والقلوب؛ لأنّ الحق لا يظهر بالصراخ والصياح والسب والشتم، ولا يمكن إقناع أحد بالتجريح وامتهان الكرامة، بل هذا النهج ينقض غرض الحوار.

الثاني: المنطق العقلاني الذي لو سمعه العاقل يقبله، ولو عرف به الخصم المنصف استجاب له، ولو رآه المؤيِّد الناصر ازداد ثباتاً وقوة، ولا يكون المنطق عقلائياً إلّا إذا اعتمد على صواب الرأي والصدق في القول والحسِّ والوجدان والتجرد من العصبيات.

نلاحظ هذا في جوابه سبحانه لعقيدة الكفار حينما اتَّخذوا آلهة من دون الله طلباً للانتصار والاحتماء بها؛ إذ قال سبحانه: ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ**﴾[1] فلم يسبّ الآلهة ولم يقدح في فكر أتباعها

---

(١) سورة يس: الآية ٧٥.

وينتقص من مكانتهم مع أنّ المضمون الذي ذَكَرَهُ يكشف عن مستوى مُنْحلٍّ في التفكير والعقيدة كما بيَّنا.

وإنما نفى عن الآلهة القدرة على النصر، وأثبت ذلك بدليل حسّي وجداني وهو أنّ الآلهة لو كانت قوية وقادرة على نصركم لما احتاجت إليكم، لكنكم بوجدانكم تدركون أنكم لها جند، ولولاكم لما قامت ولا نصبت ولم تقدر على دفع الأذى عن نفسها، وما كان مبدؤه هذا فإنّ ختامه هكذا أيضاً.

وهذا منطق عقلاني صادق لو التفتَ إليه كل عاقل ومنصف قبِله وأذعنَ لهُ، فإذا لوحظ عدم الاستجابة فلأنّ ذلك ناشئ من العصبيات، فإنّ التعصّب يعمي العقول والقلوب، والروايات بهذا المعنى كثيرة جداً.

التعليم الثاني: اتخذوا الله سنداً لكم

إنّ الآية المباركة وبدلالة الإشارة تدعو الناس إلى حقيقة هامَّة تقوم عليها حياتهم الفردية والاجتماعية، وهي أنّ النصر والحماية والنجاة والمعونة في كل الأمور بيد الله سبحانه فليتخذوه سنداً وعوناً، وقد تعهَّد الباري عزّ وجلّ للمؤمنين بأن يدافع عنهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1] وجعل معادلة ثابتة في التعامل معه، وهي أنه سبحانه ينصر المؤمنين إذا هم نصروه، فقال سبحانه: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[2] وفي المعادلة شرط ومشروط، والشرط هو أن يبادر المؤمنون

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٨.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

بنصرة الله سبحانه، والمشروط هو كسب الانتصار وثبات الأقدام. هذه حقيقة لا تختلف ولا تتخلَّف.

ولكن على المؤمنين أن يبحثوا عن مصاديق نصر الله سبحانه ومظاهرِه التي بها ينتصرون، وأهمها ثلاثة:

الأول: العبودية لله وحده وترك عبودية الآلهة سواء آلهة النفوس والشياطين أو الطُغاة والظَلَمَة.

الثاني: إطاعة الله سبحانه في أحكامه وقوانينه وأنظمته، وجعْلها هي الحاكمة في الحياة الفردية وفي المجتمع والدولة، فإنّ معصية الله تعالى ومُخالفة قوانينه وأحكامه خذلان لله سبحانه، والخذلان مصيرهُ الخذلان.

الثالث: الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولدِهِ، وهذا هو أُسّ النصر وأصله، وهو الوحيد الذي أخذَ عليه النبي صلى الله عليه وآله العهد من الأُمَّة في واقعة الغدير التي لا يختلف عليها المسلمون.

وإنه بعد نصبه عليّاً عليه السلام إماماً وخليفة دعا صلى الله عليه وآله وقال: ﴿اللهم انصر مَن نصره، واخذل مَن خذله﴾[1] وفي موقف آخر قال: ﴿منصور مَن نصره، مخذول مَن خذله﴾[2].

فالانتصار لله سبحانه يتم بهذه الثلاثة بشرط الانضمام، ولو تحقق فإنّ نصر الله سبحانه حاصل لا محالة؛ لأنه سبحانه وعد وهو لا يخلف الوعد.

---

(١) البحار: ج٣٧، ص١٤٩؛ تفسير أبي حمزة الثمالي: ص٢٠٠، الرقم ١٣٨.

(٢) كتاب الأربعين: ص٧٩؛ مدينة المعاجز: ج٢، ص٣٨٢، ح٦١٧؛ البحار: ج٢٢، ص١٠٩، ح٧٣.

هذه الحقيقة يجب أنْ تكون ثقافة تعيش في وعي المسلمين يبنون عليها أفكارهم ومعتقداتهم ونظامهم الاجتماعي والسياسي، وبها يستغنون عن غيرهم، ويخرجون من العبودية لغير الله.

ثلاث معضلات منهجية

ولكن لما ضعفوا عن ذلك اتخذوا من دون الله آلهة عن التفات منهم أو غير التفات، فوقعوا في ثلاث معضلات قوضت مناهجهم:

الأولى: لجؤوا إلى العلمانية الفلسفية أو السياسية و اتخذوها منهجاً لهم في الحياة الخاصة والعامة، ومعنى ذلك أنهم اتبعوا غير الله وأطاعوه، وهو نوع عبودية بالمعنى المتقدم.

الثانية: أباحوا المنكرات والمعاصي حتى صار الربا والخمر والزنا وكل ما حرَّمهُ الله سبحانه مُحلّلا، وفي بعض الموارد يُحرِّمون ما أحلهُ الله، وهذا خذلان لشريعة الله سبحانه وعبودية لشهواتهم.

الثالثة: اتخذوا الشرق والغرب من غير المسلمين حُماة لعلَّهم ينصرونهم، والعالَم اليوم منقسم إلى محاور، والمسلمون من أضعف الجهات فيه، وكل جماعة ملتجئون إلى طرف من هذه المحاور طلباً للنصرة والحماية، ورغم ذلك يذلونهم ولا يُقدِّمون لهم شيئًا إلّا بمقابل ثمين ونفيس، فماذا ستكون النتيجة؟

النتيجة أنّ بلادهم ساحة للحروب والدمار، وثرواتهم منهوبة، والتأخر سائد في كل جوانب حياتهم، وفوق ذلك أذِلَّاء لقراراتهم، فالذين لجؤوا إليهم لينصروهم صاروا يستخدمونهم ويستذلونهم وصيَّروهم جُنداً من جنودهم بواسطتهم يمررون مشاريعهم المعادية للإسلام والمسلمين، فصار المسلمون جُنداً للغرب والشرق يحققون لهم أغراضهم، ويطبقون سياساتهم، وفي هذا الحال لا يعقل أن تقوم للمسلمين قائمة، والسبب هو أنهم خذلوا الله ولم ينصروه، وخذلوا عليّاً عليه السلام ولم ينصروه، وخذلوا شريعة الله ولم ينصروها، واتخذوا من دون الله آلهة لأجل الانتصار بهم لكنهم خسروا كل ذلك؛ لأن هؤلاء الذين ينتصرون بهم لا ينصرونهم، بل ينصرونَ سياساتهم وأطماعهم، وحينما تقتضي الحاجة يتخلون عنهم وبأرخص الأثمان.

ولو التفتَ المسلمون إلى هذه الحقيقة وعادوا إلى ربهم واتَّخذوه إلهاً وتمَسَّكوا بشريعته واتَّبعوا عليّاً والأئمّة عليهم السلام لنصرهم الله سبحانه، ودافع عنهم، وحينئذٍ لم يتمكن الشرق والغرب ولا غيرهم من استغلالهم والسيطرة عليهم، كما نصر الله المسلمين الأوائل وصارَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وكان في العالم قوتان كسروية وقيصرية وما استطاعت أن تصنع شيئاً، بل هزمهم المسلمون في الفكر والعدل والصلح الاجتماعي، كذلك اليوم لو نصر المسلمون ربهم والتجؤوا إليه فإنّ الله سبحانه يريد لهم العزة والكرامة وينصرهم ويحميهم ويدفع عنهم الأذى والضرّ.

التعليم الثالث: النظام الهرمي في المجتمع البشري وقادته

إنّ الحياة الإنسانية تقوم على نظام هرمي فيها قادة وفيها أتباع في كل مجال ومعترك، وهذه قضية تكوينية في المجتمع البشري، فإنّ الناس لابد لهم من قدوة كما وردَ في الأخبار في مجال العلم لابد من قادة وزعماء يمضي على نهجهم التلاميذ، وفي مجال الصناعات والحِرَف، وفي مجال قراءة القرآن، وفي المجال السياسي، ولا يوجد مجال إلّا وفيه قدوة وأتباع حتى في الأسرة، فإنَّ المَثَل الأعلى للأولاد هم الوالدان، وفي قول أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور عِلْمه﴾[1].

فلا تستغني الحياة الإنسانية عن هذا النهج، وأشرف القدوات وأكملها هم الشخصيات الإلهية التي نصبها الباري معلمين ومرشدين وهادين للبشر، وهم محمد وآل محمدصلى الله عليه وآله، وكل القدوات الأخرى يجب أنْ تنتمي إليها لتكون صالحة مرشدة، فإذا حادت عنها يميناً أو شمالاً فإنها تضرُّ الناس ولا تنفعهم.

ومن هنا يجب أن يلتفت الإنسان لدى انتمائه إلى جماعة أو اتِّباعِهِ لقائد أو زعيم أنْ يعرف مدى انتماء هذه الجماعة لنهج النبيّ والأئمةعليهم السلام، ومدى قرب الزعيم والقائد من سيرتهم ونهجهم فإنْ وجدَ ذلك مطابقاً عَلِمَ أنّه على نهج قويم، وإنْ لاحظ العدم عرفَ أنه على نهج لم يرتضه الله

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٧٠، الكتاب ٤٥؛ البحار: ج٤٠، ص٣٤٠، ح٢٧؛ ج٦٧، ص٣٢٠، ح٣٧.

ورسوله، فيكون اتباعه من عبادة الوثن كما ورد في خبر عبد الرحمن بن كثير عن الصادق عليه السلام(١).

فمحور الصواب والخطأ وميزان الأعمال والضابطة التي بها تُقاس الأمور هم محمد وآل محمد عليهم السلام، فكل مَن ينتمي اليهم ويقتدي بهم يكون على صواب، والمخالف لذلك يكون من اتِّخاذ الآلهة من دون الله، وهذا ما تواتر مضمونه في الأخبار الشريفة.

ففي رواية الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة فقال: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية! إنما أُمِروا أنْ يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيُعْلِمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نُصرتَهم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾(٢)»(٣) وقريب منها روايتا أبي حمزة الثمالي(٤) ورواية سدير عنه عليه السلام(٥)، وفيها دلالات عديدة:

الأولى: قوله: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية» يشير إلى مقاربة شكل الطواف من حيث المظهر بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام، والفرق بينهما في

---

(١) الاختصاص: ص٢٩٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٣) الكافي: ج١، ص٣٩٢، ح١؛ وانظر البحار: ج٦٥، ص٨٧، ح١٢؛ تفسير العياشي: ج٢، ص٢٣٤.

(٤) علل الشرائع: ج٢، ص٤٠٦، ح٨؛ الوسائل: ج١٤، الباب ٢ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٣٢٤، ح١٩٣١٨.

(٥) الكافي: ج١، ص٣٩٢، ح٣؛ شرح أصول الكافي: ج٦، ص٤٠٨، ح٣.

الروح والقصد والنية، فإنّ روح الطواف هو محورية الولاية والإمامة، ومنه يستفاد أنّ الحج قسمان:

أحدهما: حج موسمي وهو ما يكون حول الكعبة الشريفة ونحوها من مناسك عظيمة.

وثانيهما: حج دائمي هو الطواف حول الإمامة والإمام ومطابقته في العقيدة والعمل، وهذا الحج أهم من الأوَّل؛ لأنه روح الأول، ولا يتوقف على زمان أو مكان أو عمر.

الثانية: قوله: (يُعْلِمونا) لا يراد به العلم مقابل الجهل؛ لأن المعصوم لا يجهل، وإنما الإعلام، والمعنى أنّ الإعلام بالولاية والإظهار لها عند الأئمة عليهم السلام من واجبات الإيمان والمعرفة، وفي ذلك تعليم لأهل الإيمان أنهم حينما يحضرون مراقدهم أنْ يزوروا الزيارة الجامعة، أو يظهروا الإيمان والولاية لهم، ومن المستحبات في كل يوم بعد صلاة الفجر إظهار الشهادة لله بالوحدانية، وللنبي بالنبوّة، ولسائر الأئمة عليهم السلام بالإمامة والولاية.

الثالثة: أنّ المطلوب من المؤمنين السعي بالحضور الدائم عندهم عليهم السلام وإظهار النصرة لهم، وهو نوع بيعة معهم، ولها آثار عظيمة على حياتهم الدينية والدنيوية، وقد وردت جملة من الأدعية في ذلك خصوصاً دعاء العهد والزيارات اليومية لصاحب الأمر صلوات الله عليه، وفي مقابل ذلك وردَ في الأخبار ما يحذِّر الناس من اتِّباع الرئاسات التي لا تواليهم ولا تتِّبع نهجهم.

ففي رواية عبد الله بن مسكان قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿إيّاكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأّسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلّا هَلَك وأهْلَك﴾(١) والخَفْق صوت النعال، والمراد المشي خلف الرجل تقوية له واتِّباعاً لأفعاله، واسم الإشارة يفيد وجود ميزة لهم استحقت التحذير من اتِّباعهم، وهي الاتِّباع بغير حق.

وتؤكده رواية أبي حمزة الثمالي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إيّاك والرئاسة، وإيّاك أنْ تطأ أعقاب الرجال﴾ قال: قلت: جعلت فداك أما الرئاسة فقد عرفتها، وأما أنْ أطأ أعقاب الرجال فما ثلثا ما في يدي إلّا مما وطئت أعقاب الرجال، فقال لي: ﴿ليس حيث تذهب، إيّاك أنْ تنصب رجلاً دون الحجة فتصدّقه في كل ما قال﴾(٢) والحجة في الرجال قسمان:

الأولى: الحجة الأصلية وهو المعصوم الذي نصَّبه الله سبحانه ورسوله إماماً وحجة على الناس.

الثانية: الحجة التابعة، وهو الفقيه الجامع للشرائط، فقد نصَّبه الإمام عليه السلام حجة على الخلق في زمن الغيبة، وأوجبَ على الناس الرجوع إليه في أخذ معالم الدين والأحكام والشؤون العامة بمقتضى الأدلّة الإرجاعية العقلية والنقلية كما قرر في مباحث الاجتهاد والتقليد، فكما أنّ كل رئاسة وزعامة وجماعة يجب أنْ تستند إلى الإمام عليه السلام في زمان الحضور

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٧، ح٣؛ وانظر الوسائل: ج١٥، الباب ٥٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٥٠- ٣٥١، ح٢٠٧١١.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٩٨، ص٥؛ معاني الأخبار: ص١٦٩، ح١.

وجب أن تستند إلى الفقيه الجامع للشرائط في زمن الغَيْبَة، وبهذا تستحكم شؤون الناس، وتنتظم في أطار الشرع والأحكام الشرعية، ويصل الناس إلى مصالحهم، فليست الرئاسة والزعامة لكل أحد، بل لها أهلها، وهو الذي ينفع في دين الناس ودنياهم، والدعوات التي يدّعيها البعض للتخلّي عن الفقهاء وعدم الرجوع اليهم تنتهي بالناس إلى الفوضى والعصيان وضياع الدنيا والآخرة.

ويتحصل: أنّ اتِّخاذ الآلهة من دون الله تعالى لا يختصّ بعبادة الأصنام، بل يشمل كل اتِّباع لغير الله سبحانه وأوليائه، فلا ينبغي للمؤمن أن يضع آماله وطموحاته مع غيرهم عليهم السلام؛ لأنهم في الآخرة محضرون ويحاسبون عليه.

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

يس/ ٧٦

ما أحزن النبي صلى الله عليه وآله؟

(الفاء) في الآية المباركة تفيد التفريع على الآيتين السابقتين لبيان النتيجة التي يصلون إليها، فإنّ الكفار اتَّخذوا من دون الله آلهة طلباً لنصرها عند الحاجة، وهذا الاعتقاد ولوازمه الفكرية والعملية يحزن قلب النبي صلى الله عليه وآله لأسباب ثلاثة:

الأول: لأن فيه ظلم لله سبحانه وعدوان على حقوقه وجفاء بنِعَمه.

الثاني: لأن فيه تكذيب للنبيّ صلى الله عليه وآله ولازمه اتّهامات رخيصة له يقولونها في الملأ بأنه شاعر، وأنه ساحر ونحو ذلك من اتّهامات، ومن قبل كذَّبوا المعاد وقالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

الثالث: لأن فيه مصيراً سيّئاً يلاقونه يصعب على قلب النبيّ النوراني أن يتجاهل الناس، ويدوسوا على المبادئ، ويلاقوا العذاب، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله رحمة، وبُعِثَ رحمة، وفي الأحاديث الشريفة أنه رحمة مهداة[1]، والباري عزّ وجلّ شهد له بأنه أرسله رحمةً للعلمين[2]، فإذا أفلت منه أحد ودخل النار فإنه ممّا يحزن قلبه الطاهر.

---

(١) البحار: ج١٦، ص١١٥، ح٤٤؛ مجمع البيان: ج٧، ص١٢١؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٦، ح١٩٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

فحزن النبيّ جرّاء معتقدات الكفار ومواقفهم ومصيرهم كان مضاعفاً؛ لأنه أب لهذه الأمَّة، والأب يشفق على أمَّته، وقد كان يدعو لهدايتهم وهم يؤذونه؛ لذا استدعى الأمر تسليته وجبران كسره ممّا يقولون بقوله: ﴿**إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ والجبران يتمُّ من جهات عديدة:

الأولى: جبران القلب، ببيان الأشدِّ، فإنّ ما قالوه في النبيّ صلى الله عليه وآله من الاتهامات وانتهاك الحُرمة وإن كان عظيماً ومؤلماً إلّا أنّ ما قالوه في الله أفظع، وحق الله عليهم أعظم من حق النبي صلى الله عليه وآله، فإنكاره سبحانه أو العبودية لغيره أو القول بأنّ له ولداً وأنّ الملائكة بناته وأمثال ذلك أشدّ وجعاً وألماً من إتِّهام النبيّ بالشعر والسحر، لأنّ اتِّهام النبيّ هو الآخر اتِّهام لله سبحانه، وتكذيبه تكذيب له سبحانه، وقد اشتهر القول إنّ مَن رأى مصائب غيره وكانت أشدّ هانت عليه مصيبته.

الثانية: جبران الخوف، فإنّ بيان مصير هؤلاء الكفار وآلهتهم وإنهم سيحضرون جميعاً للعذاب ويهلكون من موجبات التسلية والاطمئنان، فالمخاوف التي تراود النبيّ على مستقبل الناس ومصير الرسالة تزول بهذا الوعد الإلهي؛ بداهة أنّ الجحود والعناد قد يوجِب توالد أجيال على هذه النشأة الظالمة المنحرفة، وهذا من شأنه أن يحزِن قلب النبيّ صلى الله عليه وآله ويخيفه؛ لأنه هادي الأمم، وكل هادٍ يريد بلوغ الغاية ويخاف من الموانع والمعرقلات، وبالآية المباركة طمأن قلبه وأزال عنه المخاوف بكشف المصير الذي سيلاقونه هؤلاء، وبها أزال مقتضي الحزن.

الثالثة: جبران الاستحقاق، فإنّ الحزن ينبغي أن يكون على ما يستحقُّ، وأمّا على ما لا يسحقّ فلا يليق بشأن الكامل، وهؤلاء كانوا في مستوى من الفكر والعمل لا يستحقون الحزن عليهم، حيث اتَّخذوا الآلهة من دون الله تعالى رجاء أن تنصرهم، لكنهم هم نصروها وصاروا من جنودها، وهذا لا يفعله عاقل متوازن السلوك، ومثلهم مما يستحقّ العذاب كما أخبرَ الباري عزّ وجلّ بذلك، ولا يستحقّ الحزن عليه، وإلفات الكامل إلى هذه الحقيقة هو تسلية لخاطرِه.

الرابعة: جبران الأثر والجزاء، فإنّ كل ما يقولونه ويفعلونه حاضر معلوم عندنا، وكل الآلام والمواجع التي تعانيها منهم كذلك حاضرة عندنا وهي بعيننا، وفي ذلك تطمين لقلب النبيﷺ من ناحيتين: ناحية إشعاره بأنه في محضر ربِّه وفي عنايته، وما يلاقيه كله بعينه، وناحية الشهادة له بأنه بذلَ غاية جُهدِهِ لهداية الخلق وإرشادهم وإتمام الرسالة، فالذين لم يهتدوا كان بتقصير منهم وليس بنقصان في بلوغ الحجة، وهذا أهم مطلوب يقصده الأنبياء والأولياء هو أن لا يقصروا في العبودية ووظائفها، وأن ينفذوا تكاليفهم على أحسن وجه، وينالوا الدرجات العالية عند ربهم، والذي يقلقهم من ذلك هو جحود الناس وعدم إيمانهم، فإنهم قد يتهمون أنفسهم بالتقصير ويخافون ويحزنون، وهذا أحد أسباب كثرة استغفارهم، وبقوله سبحانه: ﴿**لَا يَحْزُنكَ**﴾ أزال عنه ذلك وسلّى فؤاده.

والخلاصة: أنّ الآية المباركة وردت لتسلية خاطر النبيﷺ وتطمين قلبه ممّا يصيبه من خوف وحزن على الكفار ومعتقداتهم ومواقفهم الجاحدة.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾

وقد وردت فيها قراءة أخرى بضمِّ الياء وكسر الزاي[1] وهي غير سديدة؛ لِما بيَّناه غير مرة، والصحيح هي القراءة المعهودة بفتح الياء وضمِّ الزاي، و (لا) إمّا نافية أو ناهية وعليها الأكثر[2]، وإمّا هي جامعة للاثنين أي نافية يراد بها النهي أو ناهية يراد بها النفي، وعلى النفي يراد بها الإخبار عن واقع تكويني هو أنّ قلب النبيﷺ لا يحزن في عاقبة أمره وإن كان يحزن لِما يراه من معتقدات الكفار ومواقفهم.

وعلى النهي تفيد تكليفاً للنبيﷺ بعدم إظهار الحزن عليهم؛ لأن إظهاره قد يشجعهم على التكبُّر والعناد، أو يشعرهم بالنصر، أو يشعرهم بطمأنينة المصير؛ لأنهم يعلمون أنّ قلب النبي رحيم وبيده الشفاعة، فلو حزن عليهم دلَّ على عطفه عليهم، وربما سيشفع لهم في الآخرة فيتمادون في جحودهم.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٩؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧١؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٣.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٩؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧١؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٢.

وبهذا البيان تجيب الآية عن سؤال مقدَّر وهو: أنّ الحزن من الصفات النفسانية التي تحصل في النفوس الحريصة قهراً، فلا يمكن أنْ يتعلَّق بها النهي؛ لأنه من التكليف بغير المقدور، والجواب من وجهين:

أحدهما: أنّ الحزن في نفسه نتيجة توليدية تحصل في النفوس عن غير اختيار، إلّا أنّ أسبابها اختيارية، وما كانت أسبابه اختيارية كان هو اختيارياً أيضاً.

وثانيهما: أنّ النهي يتعلَّق بإظهاره وهو أمر اختياري، وكيف كان فإنّ الحق أنّ النهي والنفي متلازمان، فإنّ النهي عن الحزن يكشف عن زواله في عاقبة الأمر، كما أنّ رفع الحزن بالنفي يراد به النهي عن إظهاره، وهذا ليس من استعمال اللفظ في أكثر من معنى حتى يقال باستحالته على فرض صحة القول بالاستحالة، وإنما هو من استعمال اللفظ في معنى وإرادة ما هو أعمُّ منه.

والحزن أشدّ الغمِّ وغلظته[١]، وبعضهم عرَّفه بأشدّ الهمِّ[٢]، والمراد واحد، وهو كدورة وانقباض يحصل في النفس أسفاً على ما يهم في مقابل السرور وهو أعمّ من الكآبة؛ لأنها أثر الحزن البادي على الوجه[٣]، ومن هنا

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣١، (حزن).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص١٨٤، (٧٣٠)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢٣١، (حزن).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٤٣، (١٧٧٢).

بعض المفسرين فسروه بالهمّ[١]، وبعضهم فسَّره بالألم القلبي بما يرد عليه مما ينافي الطبع[٢]، وبعضهم فسَّره بالغمّ[٣]، والأكثر لم يُعرّفوه لشدة ظهوره[٤]، وضمير المخاطَب يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

المفردة الثانية: ﴿قَوْلُهُمْ﴾

مرجع الضمير الكفار، وأمّا (القول) فالإفراد والإضافة يدلان على أنه قول خاص قالوه أدخلَ الحزن على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تعدَّدت الآراء فيه، فذهب أكثر المفسرين إلى أنه تكذيب النبي صلى الله عليه وآله واتّهامه بأنه شاعر ونحوه[٥] بقرينة ما تقدَّم من نسبة الشعر إليه، وأجابهم القرآن بقوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾[٦] فإنّ نسبة القول إلى ما لا يليق به يؤلمه ويحزنه.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٧٩.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٦١-٣٦٢؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠.

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٦٢.

(٤) مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٩؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٢؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧١؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٢.

(٥) التبيان: ج٨، ص٣٦٢؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٨٩؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٢؛ أنوار التنزيل: ج٢، ص٢٨٦؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٧٩.

(٦) سورة يس: الآية ٦٩.

وذهب آخرون إلى أن قولهم بأنّ لله سبحانه شريكاً وولداً أو اتّخاذهم الآلهة من دون الله فإنه قول بالعمل مفاده تعظيم الآلهة والجحود بالله سبحانه[1]، وذهب البعض إلى أنه قولهم في الرسالة من الانتقاص[2]، ويعود إلى الأول، وذهب البعض إلى أنه إنكار خلافة النبي صلى الله عليه وآله والطعن في خليفته أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ كانوا يتقولون عليه الأقاويل، وكان يحزن النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه غاية الرسالة[3].

وظاهر الإطلاق وتنكير القول يشمل الكل، والسيرة والوقائع الخارجية شاهدة على أنّ الكفار كانت لهم أقوال كثيرة بعضها يتعلّق بالعقيدة الشركية وإنكار التوحيد في الألوهية أو الربوبية، وبعضها يتعلّق بأفعالهم ومواقفهم في تكذيب النبي واتّهامه، وبعضها يتعلّق بمحاربتهم للنبي ولأمير المؤمنين ولأهل بيته عليهم السلام وأتباعهم بأذاهم والعدوان عليهم.

فالحق أنّ كل هذا مندرج في القول.

إن قلت: إنّ ما ذكرتم ليس قولاً واحداً، بل أقوال، فلماذا لم يقل: (فلا يحزنك أقوالهم)؟

فالجواب:

أولاً: أنّ الجنس يتضمَّن الدلالة على الجمع.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٠؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١١؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٢.

(٢) تفسير الرازي: ج٩، ص١٠٠؛ تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٧٠.

(٣) بيان السعادة: ج٣، ص٢٩٢.

وثانياً: لأن الأقوال العديدة إذا اشتركت في المبدأ والغاية فكان مبدؤها واحداً، وغايتها صار الجميع بمثابة قول واحد، وهذا متداول في الاستعمالات العرفية.

لذا يعبرون عن رأي الجماعة وهي كثيرة برأي زعيمها، وموقف البلد بموقف حاكمه؛ بداهة أنّ الأقوال المتعددة مع وحدة المبدأ والغاية تكون مظاهر لا أصولاً، وبهذا يتّضح أنّ القائلين هم الكفار بأقسامهم الثلاثة: وهم المنكرون لله، والمنكرون لرسوله، والمنكرون لخليفته بأقوالهم وأفعالهم، وبهذا يتّضح أنّ مَن كان يؤذيه ويحزنه من المسلمين أكثر ممّن يؤذيه من الكافرين؛ لأن جِراح الأقرب وألَمَهُ أشدّ، بل ولأنّ إيذاءهم كان يتضمَّن أذى العمل وأذى الأخلاق والعدوان حتى على حرمته وعرضه، ويستبطن ضعف الإيمان أو جحود العقيدة، والشواهد على ذلك كثيرة:

منها: ما ورد في قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا﴾**[1] لاحظوا النهي المطلق عن إيذاء رسول الله ﷺ وعن نكاح أزواجه من بعده أبداً، أي في حياته وبعد وفاته، ووصف ذلك بأنه ذنب عظيم عند الله تعالى، فلو سأل سائل لماذا نزلت هذه الآية؟

والجواب: لأن بعض المسلمين كانوا يتطلعون إلى نكاح أزواج النبي، ويعدون ذلك نوع انتقام من النبي أو مقابلة بالمثل، ويصرحون به، وقد ورد

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٣.

بطرق الفريقين روايات عديدة تشهد لهذا[١]، وبعضها ما يخدش الحياء وينتهك من حرمة النبيﷺ، وقد ورد بطرق الفريقين نوكله لمصادره لمن رام الاطلاع[٢]، ولذا كان النبيﷺ يؤكد على المسلمين الإذعان لأمر الله ورسوله في ولاية أمير المؤمنين، ويحذرهم من التمرد والعصيان، أو بغض عليٍّ بن أبي طالبعليه السلام، أو الردّ عليه وعلى ذريته، ويقرع قلوبهم بأمور يترفع عنها كل عاقل لو كانوا يشعرون، لكن أنّى لهم بذلك؟

فقد روى في الاحتجاج عن النبيﷺ أنه قال لعليعليه السلام: ﴿يا عليّ! لا يحبك إلّا مَن طابت ولادته، ولا يبغضك إلّا مَن خبثت ولادته، ولا يواليك إلّا مؤمن، ولا يعاديك إلّا كافر، فقام إليه عبد الله بن مسعود فقال: يا رسول الله! فقد عرفنا علامة خبث الولادة والكافر في حياتك ببغض عليّ وعداوته، فما علامة خبث الولادة والكافر بعدك إذا أظهر الإسلام بلسانه وأخفى مكنون سريرته؟ فقال رسول اللهﷺ: يا بن مسعود! إنّ عليّ بن أبي طالبعليه السلام إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم، فإذا مضى فالحسن والحسين ابناي إمامكما بعده وخليفتي عليكم، ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد أئمتكم وخلفائي عليكم تاسعهم قائم أمتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. لا يحبهم إلّا مَن طابتْ ولادته، ولا يبغضهم إلّا مَن خبثتْ ولادته، ولا يواليهم إلّا مؤمن، ولا يعاديهم إلّا كافر. مَن

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢١، ص٣٣٨-٣٤٠ تفسير الآية المزبورة.

(٢) انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص٧٣-٧٥، ح٢٠٤-ح٢٠٨.

أنكر واحداً منهم فقد أنكرني، ومن أنكرني فقد أنكر الله عزّ وجلّ، ومن جحد واحداً منهم فقد جحدني، ومَن جحدني فقد جحد الله عزّ وجل؛ لأن طاعتهم طاعتي، وطاعتي طاعة الله عزّ وجلّ، ومعصيتهم معصيتي، ومعصيتي معصية الله عزّ وجلّ. يا بن مسعود! إيّاك أنْ تجد في نفسك حرجاً مما أقضي فتكفر، فوعزّة ربي ما أنا متكلِّف ولا أنا ناطق عن الهوى في علي والأئمة عليهم السلام من ولده.

ثم قال صلى الله عليه وآله وهو رافع يديه إلى السماء: اللهم والِ مَن والى خلفائي وأئمة أمتي من بعدي، وعادِ مَن عاداهم، وانصر مَن نصرهم، واخذل مَن خذلهم، ولا تُخلِ الأرض من قائمٍ منهم بحجتك إمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً؛ لئلا يبطل دينك وحجتك وبيناتك، ثم قال صلى الله عليه وآله: يا بن مسعود! قد جمعت لكم في مقامي هذا ما إنْ فارقتموه هلكتم، وإنْ تمسكتم به نجوتم، والسلام على مَن اتَّبعَ الهدى»[1] ومنطوق الحديث شاهد على حقائق عديدة:

الأولى: أنّ في المسلمين من كان مكابراً ولم يرتضِ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وبعضهم أعلنوها ودبَّروا مؤامرات كثيرة لمنعها، وبعضهم أخفوها.

الثانية: أنّ طيب الولادة وخبثها والإيمان والكفر كانا في بعض المسلمين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٨٨- ٨٩؛ وانظر كمال الدين: ص٢٦١، ح٨؛ البحار: ج٣٦، ص٢٤٦-٢٤٧، ح٥٩.

الثالثة: أنّ إنكار الولاية والخلافة مساوق لإنكار النبوَّة، وإنكارها مساوق لإنكار الألوهية، وهذا يؤكد ما قلنا من أنّ الكفر بأقسامه الثلاثة مشمول بدلالة الآية.

الرابعة: أنّ الكفر بالله والرسول يتوقف على الإظهار باللسان، وأمّا الكفر بعليّ والأئمةعليهم السلام فيتحقق بوجدان الحرج في النفوس من ولايتهمعليهم السلام، وفي هذا دلالات فقهية نوكلها لمحلها[١].

الخامسة: أنّ دعاء النبي بالنصرة لمن نصرهم والخذلان لمن خذلهم يشعر بمدى الحزن والألم والهمّ الذي كان يعتصر قلب رسول اللهصلى الله عليه وآله من معتقدات الناس وأعمالهم ومواقفهم خصوصاً تجاه الولاية والخلافة في حياته وبعد وفاته.

السادسة: أنّ قيام الدين وانتصاره وهزيمته وكذا انتصار المسلمين وفوزهم في الدنيا والآخرة رهين الإيمان بالولاية والخلافة، وقد نصَّ النبيصلى الله عليه وآله على جميع الأئمةعليهم السلام بأنهم خلفاؤه لكي يدفع بشبهة المحبة أو النصرة أو كونهم ذريته فيوصي بهم، وغير ذلك من حجج يحتج بها بعض العامة للتهرب من الإذعان للولاية، وقد تواتر هذا المضمون الوارد في هذه الرواية بطرق كثيرة لا تُحصى كثرةً.

---

(١) كالإمامة في أصول الدين.

المفردة الثالثة: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾

ضمير الجمع إمّا يعود إلى الذّات الإلهية بجمعية صفاتها الجمالية والجلالية أو العلل التوسيطية التي بها يفعل الله سبحانه ويجري المقدرات، والعلم لا يراد به التحصيلي، بل الإحاطة والحضور كناية عن أنّ كل ما يجري من صغائر وكبائر ومعلنات ومخفيات بحضورنا وبعلمنا.

المفردة الرابعة: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

(ما) موصولة على الأظهر، والإسرار الإضمار، والإعلان الإظهار، وفيها إشارة إلى أنّ الناس الذين جاءهم النبيصلى الله عليه وآله على أربع فئات: فئة تحلَّت بالعقلانية والصدق والشجاعة فآمنت به، وأعلنت إيمانها، ولم تخف منه شيئاً، وأولئك هم المؤمنون، وفئة ظلَّتْ على الكفر بقلبها وأعلنته بلسانها، وهم الكفار، وفئة أسرَّت الإيمان بقلوبها وأظهرت الكفر وهم أهل المصالح الذين كانوا يخافون على دنياهم، وفئة رابعة أبطنَت الكفر وأظهرت الإيمان وهم المنافقون، وهذه الفئة الرابعة هي أسوأ الفئات وأخطرها على أهل الإيمان، وفعلها يوجب الألم والهمّ والغمّ في قلب النبيصلى الله عليه وآله؛ لأنّ سلوكهم الظاهر يدرجهم في الإسلام، وواقعهم يهدم كيانه.

والآية المباركة شملت الفئات الثلاث بالذمِّ؛ لأنهم كانوا يضمرون شيئاً ويعلنون شيئاً وقد ذكروا عدة معان لذلك:

الأول: يضمرون بغض النبيصلى الله عليه وآله وعداوته ويعلنون ذلك باتِّهامه وسبِّه وشتمه.

الثاني: يسرُّون النفاق ويُعلنون الشرك.

الثالث: يسرُّون العلم بنبوته وصدقهِ ويعلنون الإنكار والتكذيب خوفاً على مصالحهم، وقد ورد أنّ أهل المدينة كانوا يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبيّ مَلِكاً عليهم، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالإسلام فامتلأ قلبه حقداً وعداوة، فدخلَ في الإسلام ليهدمه من داخلهِ(١)، وقبل ذلك دخلوا فيه جماعة من أهل مكة طلباً للرئاسة؛ لأن بعض علماء أهل الأديان أخبروهم بأنّ مستقبل الأيام يكون لهذا الدين.

الرابع: يسرّون العقائد الفاسدة ويعلنون الأعمال القبيحة(٢)، ولا تنافي بينها، والعمدة هو الثالث، وإليه تعود سائر المعاني لسببين:

الأول: أنّ صدق النبي والآيات التي جاءهم بها كلها توافق الفطرة السليمة، وتدعو إلى الإيمان، ولا ينكرها إلّا مكابر كما أشرنا إلى ذلك من قبل

الثاني: أنّ اتِّخاذهم للآلهة من دون الله سبحانه دافعه سياسي يراد به التمرّد على التوحيد، والإذعان لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن الإذعان له كان يذهبُ بسلطانهم ومصالحهم، ويشهد لهذا بعض الأخبار الواردة الدالة على أنّ رموز الكفر ظلوا على كفرهم بسبب حسد أو أنفَة أو أطماع سياسية.

وفي مجمع البيان في معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ**﴾(٣) إنّ أكثر المفسرين حملوه على معنى أنهم لا يكذبونك بقلوبهم اعتقاداً، ويشهد له ما

---

(١) انظر السيرة النبوية (لابن هشام): ج٢، ص٢١٦.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠؛ تفسير الرازي: ج٩، ص١٠٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٣.

رواه سلام بن مسكين عن أبي يزيد المدني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لَقيَ أبا جهل فصافَحَهُ أبو جهل، فقيل له في ذلك، فقال: واللهِ إنّي لأعلَم إنه لَصادق ولكنّا متى كُنّا تبعاً لعبد مُناف؟[١]

وذلك الموقف ما اتَّخذته الأمة من عليّ أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين عليهم السلام، فإنهم كانوا يقرُّون لمكانتهم وإمامتهم في النفوس وفي السرِّ، ولكنهم في العلن كانوا ينكرون طلباً للرئاسة والسلطة كما تضافرت به الأخبار، وشهدت به الوقائع، وصرحوا أنفسهم بذلك كما قررناه في كتابنا الخلفاء والملوك[٢].

(١) مجمع البيان: ج٤، ص٤٢؛ تفسير الآية ٣٣ من سورة الأنعام؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٣٣٤، ح٥٨.

(٢) الخلفاء والملوك: ج٢، ص١٩٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: لماذا نهاه عن الحزن؟

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾[1] نفى عنه الحزن ونهاه عن إظهاره، فيدلّ على أنّ النبيﷺ يتأذّى ويتألم ويحزن من مواقف الناس وأعمالهم، والقواعد العلمية فضلاً عن الواقع تشهد بأنّ الإنسان كلما ازداد علماً ومعرفة وازداد سمُوّاً في خلقه ازداد حبّاً للناس وحرصاً عليهم، وربما يتأذى من أبسط الأشياء لكن عظمته في حلمه وقوة صبره بحيث لا يظهر ذلك على جوارحه فيقعده عن مسؤولياته، أو يظهر منه رد فعل مناقض لمستواه ومقامه؛ بداهة أنّ إدراك العالم وشفافية روحه وإرهاف حسِّه ومشاعره ليست كإدراك الجاهل، كما أنّ مستوى الإيذاء والعدوان عليه يكون أكبر وأعظم.

ويزداد الحزن أكثر عند مَن له هدف عظيم يسعى إليه إذا وجد مَن يمنعه أو يعرقل طريقه، ولذا كلما ازداد الإنسان علماً وكبرت همومه وطموحاته ازداد تواضعاً وحباً لغيره، وازداد شفقةً وعصمة من فعل

---

(١) سورة يس: الآية ٧٦.

القبائح؛ كما ازداد حرصاً وسعياً لكي يصل إلى هدفه ويزيل عن طريقه الموانع والمعرقلات، بل إنَّ بعض أهل المعقول فسروا العصمة بالعلم، وتتّسع وتضيق مراتب العصمة على حسب العلم، وحيث إنَّ النبي ﷺ المصطفى هو أعلم الخلق وأرحمهم وأشفقهم وأحرصهم على عباد الله وهو صاحب أكبر مشروع لهداية البشرية وإصلاحها وإسعادها فإنّ حزنه يكبر ويزداد ويعظم بقدر علمه وورعه وهدفه، ولذا ورد عنه: «ما أوذيَ نبي مثل ما أوذيت»(١) لأن على قدر المرء يكون الأذى والهمّ، ومن هنا تتّضح أهمية تسلية خاطره وتسديده معنوياً، ولا يسلّيه إلّا الله سبحانه؛ لأن كل ما يعمله ويتألم منه هو لأجل الله سبحانه، والله سبحانه يكافئ الحسن بالأحسن، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّ (لا) نافية في مقام النهي؛ لأن نفي الحزن يكون فعلاً إلهياً يطيِّب به خاطر النبي ﷺ وينهاه عن إظهاره، وربما يرد سؤال: إنه سبحانه إذا رفع عنه الحزن ونهاه عن إظهاره فلماذا ابتلاه؟

والجواب: لأسباب:

الأول: لأجل توقف هداية الخلق وإصلاحهم على ذلك؛ إذ لولا الرسول لا يهتدون ولا يتعلمون ولا تصفو نفوسهم وقلوبهم.

الثاني: لأجل ابتلائهم به حتى يمحصّوا وتظهر معادنهم وجواهرهم، فينال كل جزاءه باختياره وعمله، فإنّ الأنبياء حجج تتمّ بهم الحجة، وهم محك واختبار أيضاً.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٤٢؛ كشف الغمة: ج٣، ص٣٤٦؛ البحار: ج٣٩، ص٥٦.

الثالث: لأجل علوّ النبيّ والوصيّ عليهما السلام، فإنّ درجات الأنبياء والأولياء تعظم بحسب الابتلاءات، وبها يزدادون قرباً واصطفاءً، فبعثة الأنبياء تتضمَّن غايتين غاية تتعلَّق بعموم الخلق، وأخرى تتعلَّق بهم أنفسهم، ولذا ورد في الأخبار: «أنّ لك في الجنة درجات لا تنالها إلّا بالشهادة»(١) وقال سيد الشهداء عليه السلام: «نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين»(٢) والبحث في هذا مفصَّل نوكله لمحلِّه.

اللطيفة الثانية: ما علاقة العلم بالحزن؟

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾(٣) قد يسأل سائل لماذا قال ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ فما علاقة العلم بنفي الحزن وتسلية الخاطر؟

والجواب: لأن العلم يتضمَّن دلالات:

الأولى: أنّ ما يصيب النبي صلى الله عليه وآله من الأذى والحزن له حكمة وأسرار وفوائد، والعاقل إذا أدرك وجود الحكمة في الأذى والضرّ هانَ عليه الأمر، وتحمَّل مصاعبهُ.

الثانية: أنّ كل ما يقع من حوادث مؤلمة هي حاصلة بعين الله سبحانه وبحيطته، فتكون شهادة للنبي صلى الله عليه وآله بأنه بَذَلَ غاية مجهوده لهداية خلق الله تعالى، ونالَ درجة الامتياز في ابتلائه، وأنّ وجود الكفر والكفار لم يكن

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٢١٧، ح٢٣٩؛ مدينة المعاجز: ج٣، ص٤٨٧، ح١٠٠١؛ البحار: ج٤٤، ص٣١٣، ح١.

(٢) مثير الأحزان: ص٢٩؛ البحار: ج٤٤، ص٣٦٧.

(٣) سورة يس: الآية ٧٦.

بتقصير في أداء المهمّة، بل من عناد ومكابرة هؤلاء وحسدهم، فالخلل ليس في فاعلية الفاعل بل في قابلية القابل، ومن هنا قال بعض أهل المعرفة إنّ مما يخفف ألم البلاء العلم بأنّ الله سبحانه هو المبتلي، وهو الناظر للمبتلى لينظر كيف يعمل، وهو مضمون قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[(١)].

الثالثة: أنّ العلم يشعره بالحضور الدائم في محضر الله سبحانه، وفي ذلك لذَّة عظيمة تفوق ألم العناء والمشقَّة.

الرابعة: أنّ العلم يتضمَّن الوعد بحسن العاقبة والمصير واستيفاء حقوقه منهم، فقوله: ﴿**إِنَّا نَعْلَمُ**﴾[(٢)] إخبار يتضمَّن الوعد، وهو إنشاء، والمعنى أنّا نعلم خفايا القوم ومؤامراتهم كما نعلم إعلانهم، وكل ذلك محفوظ عندنا سينالون جزاءه، وتصل أنت أهدافك بانتشار الدين وانتصار أهله.

اللطيفة الثالثة: بين الإسرار والإخفاء

قوله: ﴿**مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾[(٣)] فيه سؤالان:

الأول: لماذا قدَّمَ الإسرار على الإعلان؟

والثاني: لماذا قال: (يسرون ويعلنون) ولم يقل (يخفون ويظهرون؟) ويُجاب عن الأول بأجوبة:

---

(١) سورة يونس: الآية ١٤.

(٢) سورة يس: الآية ٧٦.

(٣) سورة يس: الآية ٧٦.

الأول: لأن السرَّ أخطر من العلن، فإنه يتضمَّن واقع عقائدهم وطموحاتهم وما يخططون له ويتآمرون لأجله في محاربة النبيﷺ وأتباعه، والأهم أولى بالتقديم.

الثاني: لأن السرَّ أسبق وجوداً من العلن؛ لأن الإعلان نتيجة للسرِّ، فإنّ ما تضمره القلوب تُظهره الألسنة والجوارح.

الثالث: لأن السرَّ يدل على الإحاطة العلمية التامة بالأشياء، فإنّ العلم بالأمور الظاهرة المعلنة متصور، وما يخفى على أذهان هؤلاء هو العلم بأسرارهم وخفاياهم، فحيث قدَّم السرَّ لإلفاتهم أنه لا يغيب عن علم الله شيء، فمهما حاولوا من إخفاء النوايا والمؤامرات فإنها معلومة حاضرة، وبهذا يلفتهم أيضاً إلى أنهم مكشوفون، وأنّ جزاءهم لا يقتصر على ما يفعلونه بالعلن، بل حتى ما يفعلونه بالسرِّ.

وأمّا الثاني فيجاب عنه بأنّ السرَّ والعلن هو الأنسب، فإنّ السرَّ في اللغة الإخفاء ويقابله الإعلان[1]، وهو تارة يكون في النفس كما في قوله: ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾[2] وتارة يكون بين شخصين كما في قوله: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا**﴾[3] وتارة يكون بين جماعة كما في قوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ**

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٤٥٦، (سر).

(٢) سورة طه: الآية ٧.

(٣) سورة التحريم: الآية ٣.

يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[1] وفي هذه الآية إشارة إلى السر الجماعي ويختلف عن الإخفاء في أمرين:

الأول: أنّ السرَّ هو كل ما يكتم ويخفى من الأخبار والأفكار فيختصّ بهما، بخلاف الإخفاء فإنه يشمل الأعيان أيضاً.

والثاني: أنّ السرّ يتعلَّق بالأمور المهمة التي يتحرَّز من وصولها للغير، والإخفاء أعمّ، لذا يختصُّ السرّ بالأمور التي يقصد إخفاؤها، بينما الإخفاء أعمّ، ومثل ذلك يقال في الإعلان والإظهار، فإنّ الإعلان يختصّ بالأخبار والأفكار والإظهار يشمل الأعيان أيضاً، كما أنّ الإعلان يتعلَّق بالأمور المهمة التي يراد الإعلان عنها، والإظهار أعمّ.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٨.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: جراحات اللسان أشد من السنان

يعلِّمنا القرآن الكريم بهذه الآية أنّ جراحات اللسان تؤلم وتؤذي وتحزن أكثر من جراحات السيوف، وأنّ آلام القلوب أشدّ ضراوة من آلام الأبدان، فيجب على المؤمن أن يحفظ لسانه ولا يجرح به الناس، فكما يحرم عليه أن يجرح أبدانهم أو يقتلهم أو يضرَّ بهم يحرم عليه أن يجرح قلوبهم، أو يقتل كرامتهم وشخصيتهم، أو يصدمهم بالأقوال والأفعال المؤلمة.

فالآية تدلّ على أنّ قلب النبيﷺ الصبور وروحه الواسعة التي تَسع الخلق أجمعين وحلمه الكبير الذي شَهِدَ له الباري بأنه رحمة واسعة يحزن من أقوالهم السيئة لخلوّها من المنطق والبرهان، أو لشمولها على التجريح والتصريح، فإنَّ الكلام الفارغ من المحتوى مُؤلِم كما يُؤلِم الكلام الجارح فلابد من الانتباه.

ومن هنا لابد من الالتفات إلى حقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أنّ الذين يتعرضون لسهام الجرح عادة ثلاث فئات من الناس يقوم بها ثلاث فئات من الناس أيضاً:

الأولى: أصحاب المبادئ الحقَّة فإنهم يبتلون بالتجريح وهتك الحرمة والتشكيك والاتِّهام، والذي يبالي بتجريحهم وإسقاطهم هم أصحاب المصالح الذين يعتقدون أنّ المبادئ تضر بمصالحهم، وحيث إنهم عبدة لمصالحهم وشياطينهم فإنهم يحاربونهم بإسقاط شخصياتهم أولاً، وربما يتمادون أكثر فيستعملون القوة ضدهم وربما يقتلونهم.

الثانية: أصحاب الفضائل والمزايا المعنوية أو المادية، كالذكي بين غير الأذكياء، والموهوب بين غيره، فإنه يبتلى بالإسقاط من قِبَل مُنافسيه بدافع الحسد.

الثالثة: أصحاب الأهداف العليا والطموحات الكبيرة فإنهم يُستَصغَرُون بسبب الجهل، فدوافع التسقيط لا تخرج عن ثلاثة: المصالح والحسد والجهل، والأول والثاني أكثر وأخطر من الثالث. هذا كله لو تفرَّقَتْ، فكيف لو اجتمعتِ الثلاثة في الشخص بأن كان صاحب مبادئ حقَّة ومزايا وفضائل عظيمة وأهداف عليا كيف سيكون التجريح والقدح وانتهاك الحرمة والكرامة.

واجتمعت هذه كلها في محمد وآل محمد عليهم السلام، وتجتمع في رتبة أقل فيمَن هو أدنى رتبة منهم وهم العلماء الربانيّون ولذا نلاحظ أنّ الأعداء يشنُّون حروباً ضارية ضدهم، لكن الملحوظ أنهم غير قادرين على إسقاط مكانة النبي والعترة من القلوب؛ لأنهم كرامة الله وجماله وجلاله، فقتلوهم وشرَّدوهم كما تواتر في الأخبار الشريفة(١).

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٧٥-٨٠، الأحاديث ٢٩٥-٣١٢، تفسير الآية ٥٣ من سورة النساء.

وأمّا العلماء ومَن هو على سيرة النبي والأئمةعليهم السلام فمارسوا ضدهم الأسلوبين معاً، ويستغلون بذلك جهل الناس وسذاجة تفكيرهم، فلذا يشنُّون ضدهم الدعايات المضلِّلة، ويشكِّكون بهم وبأهدافهم وبقدرتهم ومكانتهم، وهذا كله يُحزِن قلب النبي والأئمةعليهم السلام، لاسيّما قلب صاحب الأمر والزمانعجل الله تعالى فرجه الشريف، فعلى الناس أنْ يلتفتوا إلى هذه الحقيقة ولا يتأثروا بالدعايات الكاذبة والتشويش الذي تصنعه السياسة، وتقف وراءه المصالح والحسد والجهل، والبحث في هذا مفصل يجده المتتبع في الروايات.

الحقيقة الثانية: أنّ على المبتلين بمثل هذه الفِتَن أن يلتفتوا إلى أنّ ما يحصل لهم هو بعين الله وفي محضره وبعلمه، وأنّ ما يصيبهم هو نتيجة لجهادهم وصبرهم وعلمهم وتقواهم حتى تهون عليهم المصيبة ولا يحزنوا.

ولكن في عين الحال يتعيَّن على الناس تكليفان يجب أن يعملوا بهما:

الأول: أن لا يستمعوا للمضللين والمشكِّكين الذين تزيغ قلوبهم عن الحق، وأن يتثبتوا ولا يخوضوا مع الخائضين، فإنّ الخوض مع الخائضين فيه الكثير من العناوين المحرمة والتي هي عند الله من كبائر الذنوب كالتهمة والغيبة والكذب وتضعيف الإيمان في القلوب، وتقوية الشيطان وأساليبه، وكل واحدة منها تقصم الظهر.

الثاني: أن يطيبوا خواطر المجروحين ويسلُّوهم بالدفاع عنهم والالتفاف حولهم ورد الاتهامات والدعايات الكاذبة، فإنّ هذه مسؤولية اجتماعية تعود على الصالح العام أولاً فضلاً عن كونها وظيفة دينية وإنسانية، فإنّ إسقاط مكانة العلماء من القلوب والنفوس وراءها ما وراءها من أهداف سياسية كبيرة تعود في المحصلة إلى استباحة المسلمين وبلادهم.

فيتحصل من هذا التعليم عدة أمور:

الأول: على المرء أن يحفظ لسانه فلا يكون جارحاً، فإنّ جراحات اللسان أمضى وأشدّ من جراحات السيوف؛ لأنها تجرح القلوب، وهذا عمل محرم يُحاسَب عليه الإنسان، ولو تمادى فيه أُبتليَ بمثله.

الثاني: أن يصبر إذا تعرَّض إلى جرح وقدح ولا يرد بمثله، فإنّ الردّ بالمثل من مهاوي الشيطان التي تعالج الداء بالداء لا بالدواء، وليعلم بأنّ الله يدافع عن الذين آمنوا وهو ناصرهم ومؤيدهم وأنّ حبل الكذب قصير.

الثالث: أنّ على المجتمع مسؤولية شرعية وإنسانية أن ينتصف للمظلوم ويقف إلى جانبه، فلا يشارك في ظلمه وهدم كيانه وشخصيته، ولا يتفرَّج عليه، بل يدافع ويذبّ عنه، فإنّ أكثر التمادي في الشر والعدوان ينشأ من سكوت المجتمع وتخلِّيه عن مسؤولياته.

التعليم الثاني: آثار البعد عن الله

إنّ المؤمن مهما يَمرُّ بظروف صعبة ويصاب بالابتلاءات عليه أن يستذكر أنه عبد الله سبحانه، والمولى لا يترك عبده، ولكن بشرط أن يكون عبداً لله تعالى مراعياً لشرائط العبودية، وعليه أن يستذكر أيضاً أنّ كل ما يتعرَّض له من ابتلاءات هو بعين الله سبحانه، فإنّ ذلك يسلّي خاطره، ويوجب الهدوء والطمأنينة في نفسه، ويزيده رضاً وتسليماً، بل وقرباً من مولاه؛ لأنه لا يخلو من علوّ في الدرجات، أو غفران للذنوب، أو تجارب مكتسبة تُعْلي من شأنه ومقامه.

واليوم نلاحظ أنّ الأزمات النفسية وأمراض الأعصاب والانهيارات الروحية باتت ظاهرة يصاب بها الناس، ولهذه الظاهرة أسباب، ومن أسبابها هو البعد عن الله سبحانه، والغفلة عن فلسفة البلاء والابتلاء، فإنّ الابتلاءات كانت ملازمة للبشر، وعليها تقوم فلسفة التشريع والتكوين إلّا أنّ التأريخ لا يحدِّثنا عن مثل هذه الأمراض التي تعصف بالبشرية اليوم، ولعلَّ السبب في ذلك أنهم كانوا أقدر على الصبر والتحمّل ومواجهة الصعوبات؛ لقوة إيمانهم وارتباطهم بربهم.

التعليم الثالث: لا يبقى سر مخفي

لا يتصور الإنسان أنّ ما يعمله في السر لا يظهر ولا يُعلَن، وأنَّ العقيدة الفاسدة التي يحملها يخفيها التظاهر بالعقيدة الصحيحة، فإنّ كل شيء بعلم الله، فلا يخفى عليه شيء، ولو أراد الله سبحانه أن يفضحه أظهر ذلك إلى الناس، وهذه سُنَّة إلهية في الوجود أن لا يبقى سرّ مكتوم ولا شيء مخفي، فإنه لابد وأنْ يتقيَّض له من يفضحه، فلذا على الإنسان أنْ يكون سرّه وعلنه وظاهره وباطنه واحداً، وهكذا هم عباد الله سبحانه سواء في الأعمال الشخصية أو الأعمال النوعية التي تتعلق بإدارة المجتمع والدولة من عقود ومعاهدات واتفاقات، فلا يبقى شيء مخفي، وكلٌ ينال جزاءه إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
خَصِيمٌ مُّبِينٌ

يس/ ٧٧

أرجعهم إلى وجدانهم ليؤمنوا

الآية جملة استئنافية جديدة في منطوقها ولكنها في محتواها معطوفة على ما سبق، وتكملة للمحاورة مع الكافرين، والغاية من الاستئناف هو تنوّع جهات النظر وتعدد شواهد الفكرة وقطع مَلالَة السامع والتحذُّر من الإسهاب في موضوع واحد، وأمّا العطف فلإتمام المحاورة؛ إذ كان الحوار أولاً مع الكفار في شأن الخالق وعبوديته والنبوة، ودعاهم الباري إلى النظر والتدبر ببعض الآيات المحيطة بهم كالأنعام التي يعايشونها وينتفعون منها، وبُنِيَتْ حياتهم عليها ليعبدوه شكراً لنِعَمِهِ، فقال سبحانه: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾[1] وقد قابلوا هذا التبصير والتذكير بالعمى والجفاء فعبدوا الآلهة من دون الله، وصاروا جنوداً لها، ولم ينتصروا لله بنصرة دينه ورسوله.

وفي هذه الآية دعاهم إلى ما هو أخص وأقرب إلى وجدانهم ونفوسهم وهو أصل تكوينهم فقال: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾ وهذه الحقيقة أجلى من الأولى؛ لأنها تتعلَّق بتكوينهم لا بتكوين غيرهم، ولأنهم من أسبابها ووسائطها؛ إذ لا يولَد الإنسان إلّا من أب وأم، وكلاهما يدركان بأنّ الولادة تتم بالمزاوجة بينهما، وكل منهما لا يملك فيها إلّا أصل المزاوجة، وأمّا تكوين الماء والتخصيب والنشأة والنمو

(١) سورة يس: الآية ٧١.

والولادة وغيرها كلها خارجة عن إرادتهم، وهم في عين الحال يدركون بأنّ الآلهة التي يعبدونها ليست هي السبب في ذلك، فليس إلّا الله سبحانه.

ففي الآية السابقة كان الإلفات بواسطة خلق الأنعام والغاية هو الإنسان، ولمّا لم ينفع معهم ذلك ألفتَهم إلى أنفسهم وأصل تكوينهم، وبهذا جعل آيتين آفاقية وأنفسية للاستدلال، ولهذا الإلفات ثلاث فوائد هامة:

الأولى: الإرجاع إلى الوجدان، والوجدان صادق لا يكابر ولا يكذب صاحبه

الثانية: أنّ الإرجاع إلى النفس يثير اهتمام الإنسان أكثر بالنظر والتدبر، ولا يقبل الغفلة وصرف النظر؛ لأنه ملازم له، فإنْ أمكن غفلة الإنسان عن غيره فإنه لا يمكن أنْ يغفل عن نفسه.

الثالثة: إلفاتهم إلى أنّ كل خلق ومخلوق له غاية، فالأنعام غايتها الإنسان خلقت لأجل الانتفاع منها، فما غاية خلق الإنسان نفسه؟ والعقل يوصله إلى الجواب عبر احتمالين:

الأول: أن تكون الغاية هو الإنسان نفسه حتى يكتمل وينتفع ويسعد.

الثاني: أن تكون الغاية هو الخالق الذي خلقه وأوجده، وهذا أمر قامت عليه فلسفة وجود الأشياء، فإنّ الأشياء إمّا غايتها لنفسها كالحقول والزهور والجمال في الوجود، فإنّ الجمال في نفسه غاية لنفسه ولأجله يوجده خالقه، أو لكونه وسيلة وسبباً لغاية أخرى أهم، وكلا الغايتين اجتمعتا في خلق الإنسان وإيجاده، فإنّ الإنسان أجمل مخلوقات الله وأكملها وأعظمها، وفي عين الحال به يتجلّى جمال الخالق وعلمه وحكمته وقدرته،

وبذلك يكون سعيداً، وكلا الغايتين تدلان على حُبِّ الله سبحانه للإنسان وحنانه عليه وعطفه ورحمته به، والحبّ يجب أن يقابل بالحبّ، والحنان والرحمة يقابلان بالانقطاع والشكر.

والخلاصة أنّ الآية المباركة وردت لتحقيق أربع غايات هامة:

الأولى: إبطال معتقد الكفار في الآلهة التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع

الثانية: إلفاتهم إلى أنهم عاجزون قاصرون في أصل وجودهم، فكيف ينصرون الآلهة ويكونون جنوداً لها؟

الثالثة: تسلية أخرى لقلب النبي صلى الله عليه وآله المحزون من إنكار القوم للمعاد والحشر بتقبيح قولهم وتطمين قلبه بأنّ عدم إيمانهم ناشئ من عنادهم لا من قصور الحجة، وهو مروي عن الأئمة عليهم السلام[1].

الرابعة: إلفاتهم إلى وجدانهم ليكون المبدأ منطلقاً للإيمان بالمعاد، فإنّ الإيمان بالمبدأ يقوم على دليل حسي وجداني لا يقبل الإنكار، والإيمان بالمعاد يقوم على دليل عقلي وغيبي، وما لم يقم الدليل على المبدأ لا يمكن الإيمان بالمعاد، وأقرب دليل حسي يدركه جميع الناس هو تكوينهم أنفسهم، وهذه طريقة منطقية راقية في فن الجدل والمناظرة تقوم على الانطلاق من الحس لتفتيح العقل وإيصاله إلى النتائج.

وبذلك يتضح الترابط الموضوعي بين هذه الآية والآيات السابقة، والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٩٢؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٦١.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾

(الهمزة) للاستفهام، و (الواو) عاطفة، و (لم) للنفي، وقد اختلفوا في أنّ الاستفهام تعجبي أم استنكاري، وعلى الأول يكون المعنى بيان التعجب من قوة الإنسان وقدرته العظيمة وجرأته على الكلام والمحاورة والإنكار والقبول مع أنّ أصله نطفة ضعيفة لا تقدر على شيء، والغاية من التعجب إثارة مكامن عقل الإنسان وتحفيز بصيرته للنظر في هذه الحقيقة ليدرك أنّ الضعيف في نفسه لا يقوى على شيء، ولا يقدر على ما يفعل إلّا بواسطة قادر أعطاه ذلك وقوّاه على الفعل وليس إلّا الله سبحانه.

وعلى الثاني يكون المقصود ذمَّهم وتوبيخهم على عدم تفكرهم وتبصرهم في حقيقة ضعفه وعجزه وقصوره فيتجبّر ويستعلي ويعاند فطرته أولاً، وربَّه ثانياً، فينكره ويجحد فضله فلا يشكره ويعبد غيره، وهذا المعنى أظهر من الأول، وعليه أكثر المفسرين.

وبالمحصلة الاستفهام يدعوهم إلى الرؤية وقد اختلفوا في المراد بها على أربعة أقوال: قول ذهب إلى أنها رؤية البصر ومشاهدته الحسية[١]؛ لأن التزاوج والتوالد أمران حسيان، وقول ذهب إلى أنها العلم وعليه جماعة من أصحابنا[٢]، والمراد الذمّ على عدم ترتيب الأثر على العلم؛ لأنها افترضت أنّ العلم بذلك موجود حاصل من الحس، فإنّ البشر لا يحملون أصل تكوينهم وإنه ليس من أنفسهم ولا من آلهتهم، ولو كانوا جاهلين لَمَا ذمَّهم؛ لأن الجاهل بالشيء لا يستحق الذمّ عليه، فلا يستقيم المعنى إلّا على فرض وجود العلم وعدم ترتيب الأثر عليه، وربما يتوافق مع الاستفهام التعجبي أيضاً.

والمعنى من العجيب أنّ الإنسان يعلم أنّا خلقناه من نطفة مهينة ونقلناه من طور إلى طور ونشأة إلى أخرى حتى جعلناه خلقاً سويّاً، ونفخنا فيه روحه، وأخرجناه من بطن أمه وربيّناه حتى صار يعقل وينطق ويحاجج، فإذا كانت محاججته علينا وفي إنكارنا ويكون علينا خصيماً مبيناً ليخصمنا فهذا في غاية العجب؛ لأنه ناقض للمتوقّع والمأمول من مقابلة الإحسان بمثله وانقلابه إلى ضده، وهذه مفاجأة صادمة[٣]، وقول ثالث ذهب إلى أنّ المراد بالرؤية التفكر[٤].

---

(١) تفسير الفرقان: ح٢٤، ص٧١

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٦٢؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٠؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٩٩؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٠؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٢؛ تقريب القرآن إلى الأذهان : ج٤، ص٤٦٢.

(٣) تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٢.

(٤) تفسير الأمثل: ج١٤، ص ١٧٧؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧٢.

وقول رابع ذهب إلى أنّ الرؤية قلبية[1]؛ لرجوعها إلى الوجدان الفطري، ولا تنافي للتلازم بينها؛ بداهة أنّ الاعتقاد بالشيء يتوقف على مقدمات ونتائج وهي أربع:

المشاهدة الحسية ثم التفكر والعلم والاستقرار في القلب، فلا يمكن الاستغناء عن واحدة منها، وجامعها الإدراك[2]، وهو تارة يكون بالحس وتارة بالعقل وتارة بالقلب، وتختلف المراتب بحسب اختلاف مراتب المدركين أو القضية المُدرَكة، فإنّ الأعيان والحقائق الخارجية تُدرَك بالحس، وفهم خصائصها وآثارها وأسبابها تُدرَك بالعقل والاعتقاد بخالقها، ومسخرها يدرك بالقلب.

والذم والتعجب تعلق بالإنسان لأنه المقصود بالمحاورة والخطاب، وقد اختلفوا في أنّ الألف واللام فيه عهدية أم جنسية، فذهب بعض المفسرين إلى أنها عهدية؛ لأن الآية ناظرة إلى تكذيب جماعة خاصة كذَّبوا النبيﷺ وأنكروا البعث والمعاد، فجاءت الآية توبيخاً لهم على شدة عنادهم ومكابرتهم وجحودهم حتى بأنفسهم، وهم رجال من مكة كانوا يموهون الدلائل، ويخدعون الناس بأفعال وأقوال تنخدع بها عقول البسطاء من العامة، وهم أبي بن خلف ووهب بن حذافة بن جمع وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة اجتمعوا يوماً فقال: أُبي بن خلف: ألا ترون إلى

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٤.
(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٦٠، (رأى).

ما يقول محمد صلى الله عليه وآله إنّ الله يبعث الأموات، ثم قال: واللّات والعُزّى لأذهبنَّ إليه ولأخصمنّه، وأخذَ عظماً بالياً - لعلّه من قبر قديم أو من هيكل لأن بعضهم كانوا يلقون أمواتهم في المزابل أو بعض قتلى الحروب الطاحنة - فجعلَ يفته بيده ويقول: يا محمد صلى الله عليه وآله! إنّ الله يُحيي هذا بعدما رمَّ أي بلي؟ قال عليه السلام: ﴿نعم ويبعثك ويدخلك جهنم﴾ فنزلت الآية ردّاً عليه(١)، وقيل تكرر ذلك مرات تولّى كل واحد من الخمسة المذكورين إظهار التكذيب والتضليل(٢)، فالمراد بالإنسان جبابرة الكفر من قريش، ويعزز ذلك شاهدان:

الأول: نزول آيات أخرى في بعض هؤلاء بذات الموضوع ووصفته بالإنسان كما في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿**وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**﴾(٣) نزل في بعض هؤلاء، وذكر أنه الوليد بن المغيرة، وكذا قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ**﴾(٤).

الثاني: أنّ حمل الألف واللام على الجنسية ممتنع، والأمر يدور بينهما، فإذا امتنعت الجنسية ثبتت العهدية، ووجه الامتناع هو أنّ الآية ذمَّت الإنسان على إنكار البعث، ولو أريد به كل إنسان كانت غير صادقة، فإنّ من الإنسان من هو ولي، ومنه مَن هو مؤمن ومطيع، وحملها على الاستغراق

---

(١) روح البيان: ج٧، ص٤٣٣؛ وانظر تفسير الكشاف: ج٣، ص٣٣١؛ تفسير أبي السعود: ج٧، ص١٨٠.
(٢) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٣.
(٣) سورة مريم: الآية٦٦.
(٤) سورة القيامة: الآية ٣.

العرفي الذي يراد به الأكثرية غير صحيح أيضاً؛ لأنّ المكذبين بالمعاد هم الأقل[١]، والحق أنها جنسية، وعليه الأكثر، والمراد به عموم الإنسان لا المُنكِر للمعاد خاصةً لوجوه:

الأول: الظهور، وعلى فرض الشكّ بينها وبين العهدية فإنّ الأصل في اللام الجنسية.

الثاني: أنّ المذكورين من المنكرين داعي نزول الآية ومورده، والمورد لا يخصص الوارد، وقد اتفقت الكلمة على أنّ العبرة في مثل هذه الموارد بعموم الوارد لا خصوص المورد.

الثالث: أنّ الشاهدين المذكورين غير تامّيَن:

أما الأول فيقال فيه ما يقال في لفظ الإنسان في هذه الآية، فربما يكون العموم فيها قرينة على العموم في تلك دون العكس، ولا أقل من الاحتمال فيبطل الاستدلال.

وأما الثاني فلأنّ الحمل على الجنسية بلا مانع؛ لوجود ثلاث فوائد هامة تقتضي الجنسية لا العهدية.

الأولى: إبطال عقيدة المنكرين للمعاد، والخصوصية في الحوارات القرآنية ليس الأشخاص بل المبادئ والأفكار، وهذا ما يقوم عليه النهج القرآني العام، فإنّ الأشخاص يذكرون كأمثلة ومصاديق لا لحصر الدلالة.

---

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٢؛ تفسير الرازي: ج٩، ص١٠٠؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٣.

الثانية: تثبيت عقيدة المؤمنين، فتخاطبهم الآية لكي يتعظوا أو يتعلموا، فإنّ الإيمان يحتاج إلى تقوية في القلوب وتثبيت وتذكير.

الثالثة: بيان القاعدة العامة في مناقشة مثل هذه الأفكار وإبطالها، فإنّ إنكار المعاد لا يقتصر على أفراد خاصين ولا زمان أو مكان، بل هو متواصل مع الأجيال، وكذلك نهج الإيمان فلا امتناع في حملها على الجنسية، بل الامتناع على تخصيصها بالعهدية؛ لاستلزامها أنْ يكون الحوار في قضية خارجية لا تهم غيرهم، وهو خلاف غرض القرآن ودواعيه، فإنّ غرض القرآن تعليم الإنسان وهدايته وتكميل عقله وروحه وتزكية عمله.

وهذه الغاية عامة تشمل جميع البشر سوى أنّ الاستعدادات والمعوقات فيهم تختلف، فالكافر الجاهل موانعه أقل من الكافر المعاند، وارتقاء الإنسان المؤمن الذي يخلط العمل الصالح بالطالح أصعب من ارتقاء الذي يتمحَّض في العمل الصالح، وكامل العقل بالتهذيب والتربية أكثر استعداداً من ناقصه بالإهمال وتغليب الشهوة عليه، وهكذا.

فخطاب القرآن وغايته هداية الجميع وتكميل الكل كل على حسب استعداده وقابلياته، فلا مانع من مخاطبة المكذِّب بالمعاد بالإنسان؛ لأنه يريد منه المكذبين على مختلف مستوياتهم، والمؤمنين على قدر مستوياتهم، سوى أنّ المكذِّب يخاطب لأجل تصحيح اعتقاده، والمؤمن يخاطب لأجل تثبيت اعتقاده أو تكميله أو موعظته وتعليمه، وهذه قاعدة عامة في عموم الخطابات القرآنية، وتوافقها جملة من القواعد التي قررها المفسرون والفقهاء والأصوليون، وتشترك معها في الغاية:

الأولى: أنّ المورد لا يخصص الوارد، وأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أنّ الأمثلة والوقائع والقرائن السياقية تذكر من شأن النزول والداعي لا حصر الدلالة.

الثالثة: أنّ الروايات الواردة في تفسير الآيات في الغالب تُحْمَل على التفسير بالمصداق لا لحصر المفهوم، ولا يخرج من ذلك إلّا ما دل دليل خاص عليه.

المفردة الثانية: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾

يراد بضمير الجمع الإشارة إلى جمعية الصفات الجمالية والجلالية والعلل التوسيطية في الخلق والإيجاد، ويراد بالخلق الإيجاد التركيبي أي خلق الشيء من الشيء[1]، وضمير المفرد يعود على الإنسان، وهو يشمل جسده وروحه الحيوانية دون الإنسانية؛ لأنها تلازم تكوينه من الأصلاب وفي الأرحام، وهي مع بدن الإنسان مخلوقة من النطفة، وهي أصله.

وأما روحه الإنسانية فهي إفاضية من الله سبحانه ينفخها الباري عزّ وجلّ فيه بعد استواء بدنه إذا أتمّ الأربعة أشهر في الرحم. قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2] وقد وصف نفسه بالمبارك وبأحسن الخالقين بعد إفاضة الروح الإنسانية على البشر، وفي

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٦، (خلق).

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

ذلك دلالة على عظمة الروح الإنسانية وجلالة قدرها عند الله سبحانه، وهي سرّ الأسرار في عالَم الوجود الإمكاني، كما أنها أقرب الطرق للإيصال إلى الله سبحانه؛ لذا ورد في الأحاديث: ﴿مَن عرفَ نفسه فقد عرفَ ربه﴾[1] لأن فيها اجتمعت الحياة والعلم والقدرة، واجتمعت فيها الأفعال والآثار، وكلما يمعن الإنسان في حقيقة الروح وآثارها يزداد ذهولاً وتحيُّراً، وهي التي يعيش بها الإنسان، وهي ذاته يجهلها ولا يدرك إلّا آثارها، فكيف يريد الإنسان أنْ يُدرك حقيقة ربه وهو بهذا المستوى من العجز والقصور، وفي ذلك إشارة للملحدين وضعاف الإيمان والطبيعيين والحكماء والعرفاء وغيرهم الذين يريدون معرفة ذات الخالق، وهم يجهلون ذواتهم وأرواحهم.

و(من) في قوله: ﴿**مِن نُّطْفَةٍ**﴾[2] نشوية والنطفة الماء الصافي، ويُعبَّر بها عن ماء الرجل[3] باعتبارات ثلاثة:

الأول: أنها مُستخلَصة من غذائه ومن سائر خلايا جسمه؛ لذا تحمل خصائص البدن، وتكون مشابهة لأصولها النسبية، كما أنها الكائن الذي يحمل الخصائص الإنسانية الذي يلقح البيضة، وهو مستخلص من الماء.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٠٢، ح١٤٩؛ الجواهر السنية: ص١١٦؛ البحار: ج٢، ص٣٢، ح٢٢.

(٢) سورة يس: الآية ٧٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٩٩٥، (نطف)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧١٢، (نطف).

والثاني: أنها قليلة تنفد بقضاء الوطر.

والثالث: تخرج على شكل قطرات. يقال نطفت القربة ونطف السحاب إذا أقطر، وسقاني نطفة عذبة أي قطرة، وجاء على جبينه نطاف من عرق أي قطرات، والمنيّ كذلك[١].

فالنطفة في معناها اللغوي الماء الصافي القليل الذي ينزل قطراً، ثم كثر استعماله في المني الذي ينشأ منه الولد حتى صار لا يُعرَف غيره بإطلاقه، فهو من الوضع التعيني، والمني سُمّيَ به لأنه من المنى والعطاء؛ لأن الولد يقدر منه ويُطلب بواسطته[٢].

وبهذا التعبير يكشف القرآن عن حقيقة تكوينية اكتشفها العلم في الأزمنة المتأخرة، وهي أنّ النطفة أخصّ من الماء، وهي التي تكون منشأ التخصيب، وهي الأخرى لها بيئة تعيش فيها هو الماء، أي السائل المنوي بشهادة قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ**﴾[٣] فالمنيّ والماء المهين والماء الدافق ليس هو منشأ الولد، وإنما البيئة الحاضنة، والنطفة هي البيضة المُلقّحة، وتطلق على ماء الرجل باعتبار المآل، ولذا تحدَّث القرآن عن تكوين الولد و جعل أول مراحل نشوئه النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم اللحم، ثم إفاضة الروح.

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٣١، (نطف).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٥٤٢، (٢١٨٢)(بتصرف).

(٣) سورة القيامة: الآية٣٧.

والآية المباركة دعت الإنسان إلى النظر في أصله وهو النطفة، وهو قبل التلقيح ليس بإنسان، بل يحمل الاستعداد له في ماء الرجل وفي بويضة المرأة، فمتى ما تم اللقاح وتخصبت صارت نطفة، وهي أصل الإنسان الذي يحمل خصوصية الأبوين، وقد حثّ الباري الإنسان على النظر في أصله لإلفاته إلى أمور:

الأول: أنه كله نقص وعجز وهو صغير في شأنه وتكوينه حجماً وقيمةً، فإنَّ حجمه بدرجة من الصغر بحيث لا يرى إلّا بعد تكبيره بمرات كثيرة، وحتى بعد تكبيره فإنّ المليارات من النطف لا تملأ إناءً صغيراً في حجمه، وهي كلها تخرج من موضع البول، وتوضع في مجمع الدم وهو الرحم، وقد وصف بالماء المهين لأسباب عديدة:

منها: أنه في خصائصه وبيئته مما يهان، فإنه صغير الحجم فلا داعي للتكبر والغرور والمعاندة، ويخرج من موضع البول، ويلقى مع القاذورات، ومحكوم بالنجاسة.

الثاني: أنه فقير ومحتاج، وكله حاجة، فهو في تكوينه الأولي يفتقر إلى والديه، ووالداه في تكوينهما وتكوين الولد يفتقران إلى إرادة الله، فلولا أن يقدِّر الباري لهم الإنجاب ويضع الحياة والقابلية فيهم للتخصيب فإنّ طبّ العالم وعلمه كله غير قادر على تكوين الولد، فلا داعي للغفلة عن إرادة الله وقدرته.

الثالث: أنّ كل هذه نِعَم عظيمة يغمر بها الله عباده فيوجدهم بلا استحقاق منهم، ولا حاجة منه إليهم، فيجب أنْ يشكروها ويشكروا ربهم، فذهابهم إلى عبادة غيره من الآلهة الكثيرة ظلم عظيم يستحق الذمّ والتوبيخ والتعجب، ولذا ابتدأت الآية بها بقوله: (أولَم).

المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

(فإذا) للتفريع والمفاجأة، ووجه المفاجأة هو حصول ما لا يتوقَّع منه، فإنه خُلِقَ ليعرف نفسه أولاً ويعرف ربه ويعبده، ويكتمل عقله وروحه وعمله، فإذا به يقع في عكس ذلك تماماً، فيتجاهل أصله الضعيف، ويكون مغروراً طاغياً، ويهمل عقله وموازينه، ويعيش بشهوته وشيطانه، وبدلاً من عبادة ربه يعبد آلهته، وحتى في هذا الانحطاط الفكري والعملي هو مغرور وجبار، وله لسان سليط، وصوت عال.

فإنّ الإنسان السوي إذا أخطأ ونقض الأغراض وخرج عن النهج القويم قد يخجل من نفسه، ويسعى لتصحيح الخطأ، ويعتذر منه، فإذا صار ورغم كل ذلك يبرر لنفسه ويكون متفاخراً بخطئه وصلفاً في رَدِّهِ ومحاججته يعادي مَن أوجده وأحسن إليه وأكرمه ونعَّمَهُ كشف عن أقبح فعل وأقبح فاعل.

دل على ذلك قوله تعالى: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والخصيم فعيل مبالغة في الخصومة، أي مخاصم شديد الخصام، ولا يكون الإنسان كذلك إلّا إذا كان في غاية الطغيان والتجبُّر، والخصومة تدل على العداوة، و(المبين) مبالغة من البيان، واسم الفاعل يدل على أمرين:

أحدهما: أنه يظهر الخصومة ولا يكتمها بقوله.

وثانيهما: يظهرها بعمله، فعمله من دون قول ظاهر في الخصومة، وقوله يصرِّح بها فتكون خصومة شديدة الظهور لا تخفى، وخصومة العمل تظهر

بعبوديته لغير الله وارتكابه المنكرات والقبائح، وخصومة القول تظهر في معتقداته وآرائه، وموضع العجب والغرابة والاستنكار أنّ الإنسان يعادي مَن أحسن إليه بدلاً من أن يعادي عدوَّه الذي علم بعداوته له منذ أول الخليقة؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١] وهو شيطانه ونفسه يعادي من أوجده وأحسن إليه، ويتظاهر بهذا العداء في أفكاره وأقواله وأعماله، وكل هذا يصدر من نطفة مخلوقة من ماء مهين، فما أطغى هذا الإنسان وما أقبح أفعاله، ولذا كثر التعجب من ذلك في الأخبار الشريفة، فعن أمير المؤمنينعليه السلام: «عجبت لابن آدم أوله نطفة، وآخره جيفة، وهو قائم بينهما وعاء للغائط ثم يتكبَّر»[٢] وقريب منه ورد عن الباقرعليه السلام[٣].

وعن الإمام زين العابدينعليه السلام: وقع بين سلمان الفارسي رحمه الله وبين رجل كلام وخصومة، فقال له الرجل: مَن أنت يا سلمان؟ فقال سلمان: «أمّا أولاي وأولاك فنطفة قذرة، وأمّا أُخراي وأُخراك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة ووضِعَت الموازين فمَن ثقل ميزانه فهو الكريم، ومَن خفَّ ميزانه فهو اللئيم»[٤].

(١) سورة يس: الآية ٦٠.
(٢) البحار: ج٧٠، ص٢٣٤، ح٣٣؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٧٥، ح٢؛ الوسائل: ج١، الباب ١٨ من أبواب أحكام الخلوة، ص٣٣٤، ح٨٨٠.
(٣) البحار: ج٧٠، ص٢٢٩، ح٢٢؛ الكافي: ج٢، ص٣٢٩، ح٤.
(٤) الأمالي (للصدوق): ص٧٠٨-٧٠٩، ح٩٧٦؛ البحار: ج٧٠، ص٢٣١، ح٢٤؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٧٦، ح٣.

وفي ذلك يعلِّمنا سلمان أسلوب الرد الهادف الذي يعلِّم ويربي، فإنه:

أولاً: لم ينفعل من قول الرجل الباطل؛ لأن الانفعال يزيد الشحناء، ولا يوصل إلى غاية.

وثانياً: لم يشخصن الكلام بل أشار إلى حقيقة مشتركة بينهما، فقال: (أولاي وأولاك، وأخراي وأخراك) ليعالج الفكر الخاطئ والشعور القبيح.

وثالثاً: ألفته إلى معيار التفاضل والارتفاع والانحطاط والعلوّ والدنوّ في البشر، وإنه القيم والعواقب لا المظاهر والأشكال والأنساب، وهكذا هم عباد الله وأولياؤه.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: بين الرؤية والتعقل

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾[1] ولم يقل: أولم يعقل البشر أو ابن آدم؛ لوجود خصوصيتين في الرؤية والإنسان غير موجودتين في غيرهما تناسبان غرض الآية:

أما الأولى فلأنّ الرؤية تقوم على إدراك لا يقبل الإنكار، بخلاف التعقل فإنه يقوم على الحدس والاحتمال والتصورات الذهنية، وهي قابلة للخطأ، وكثيراً ما تخطأ، وفي الخلق والتكوين دلالتان هامتان لم يدعهما أحد:

أحداهما: أنه مخلوق بديع ضمن موازين الحكمة لم يدَّع أحد أنه خالق إلّا الله.

ثانيتهما: أنّ في الخلق حياة وإحساساً لم يدَّع أحد أنه سبب لها إلّا الله، وهي في الإنسان قضية وجدانية يدركها بنفسه، وهي محسوسة ومرئية للجميع، ولا تتوقف معرفتها على دراسة علمية أو دخول معاهد وجامعات، بل يدركها كل أحد مهما بلغ في مستواه الفكري أو المعرفي،

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

والعقل والفطرة يدركان بأنّ للخلق والحياة خالقاً حيّاً، ولكن يجهلون خصائصه وصفاته التامة، فجاء النبيﷺ والكتاب يشرحان للناس حقيقة الخالق وصفاته وما ينبغي له وما لا ينبغي، والعقل يقضي بوجوب تصديقهما؛ لأنهما يحملان الحجج الدامغة الموافِقة للفطر والعقول، ويقرنان ذلك بالمعاجز والكرامات، وفي عين الحال لم تعارضها دعوى مضادة تصلح لإبطالها، فإنَّ من قواعد قبول الدعوى عدم وجود المعارض المبطل لها، فلو كان لهذا الخلق والحياة خالق آخر لادّعى ذلك، ولأبطلَ دعوى الأنبياء والرسل.

وبأدنى التفات إلى هذه الحقيقة يصل الإنسان إلى معرفة ربه واستحقاقه العبودية، وهذا كله يتوقف على رؤية لا مجرد تعقُّل؛ لأن التعقل بلا استناد إلى حسّ ومشاهدات عينية للنبي والكتاب، وآياتهما لا يصل إلى النتيجة المطلوبة.

وأما الثانية فلأنّ الإنسان في معناه اللغوي والاصطلاحي يتضمَّن صفتين تناسب المعنى.

الأولى: العقل والتفكير، وقد عُرِّفَ الإنسان في بعض كتب اللغة بالكائن الحيّ المفكر[(١)]، وبذا عرَّفهُ المناطقة؛ إذ وصفوه بالحيوان الناطق[(٢)]، وأرادوا بالحيوان المعنى الاصطلاحي أي الحساس المتحرك بالإرادة،

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٢٩، (أنس).

(٢) المنطق: ص٧٤.

وبالناطق أي المفكر، وليس كما قد يتبادر إلى الأذهان منهما أولاً لوضوح أنّ الحيوان بالمعنى المعروف مباين للإنسان بوصف البهيمية، ويباينه الإنسان بوصف الإنسانية، والنطق اللساني ليس من خواص الإنسان؛ لأن الجنّ والمَلَك وبعض الحيوان ينطق باللسان الفصيح.

والثانية: الصفة النفسية، فإنّ الإنسان مأخوذ من الأُنس وهو الأُلفة والمحبة والفرح والإحساس اللطيف، وجامعها صفة الإنسانية في مقابل الوحشية والبهيمية التي هي صفات الحيوان(١)، والإنسان الراقي ذهناً وخُلُقاً يزداد إنسانية ورفعة(٢)، وكلما اشتدّا فيه بلغ الدرجات العالية، بخلاف البشر فإنها تطلق باعتبار بشرتهِ وشكله الخارجي، وابن آدم باعتبار أصله ونسبه، والآية المباركة في مقام التذكير والإلفات ليعود الناس إلى رشدهم ويتأملوا ويتعقلوا في حقيقة حالهم تعيَّن أنْ يصفهم بالإنسان؛ لأن الإنسان هو الذي يفكر وهو الذي يحس ويدرك القيم الأخلاقية في مقابلة الإحسان بالإحسان وشكر النِعَم، وحتى يكون الإنسان إنسانياً في معتقده ومواقفه يجب أنْ يتوفر على عدة خصائص:

الأولى: الركون إلى العقل لا الشهوة، ولذا يصف الباري عزّ وجلّ ابن آدم حينما يكون عقلانياً قوياً ناطقاً بالصواب بالإنسان كما في قوله تعالى:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٨٠، (٣١٥)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٤، (انس).

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٢٩، (أنس).

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢) فإنَّ التعليم يستدعي التعقل، وتعليمه البيان يستدعي النطق بالصواب، وقوام التكوين يستدعي توازن الخلقة بدناً وروحاً، وهو أصعب تكوين وأقومه.

الثانية: التجرد من العصبيات بأنحائها، فإنّ التعصب يسد منافذ الفكر، ويسيِّد المزاج والبلادة على العقل، وفي مثلها يكون الإنسان خطّاءً وجباراً لا إنساناً.

الثالثة: الانصاف في النظرة والحكم ليتوصل إلى النتائج بحسب مقدماتها العلمية الصحيحة على أنْ يخضع للخلفيات الفكرية المسبقة، ومَن كان منصفاً في النظرة والفكرة يكون كذلك في السلوك، فلا يظلم أو يبخس حق أحد، والظلم والعدوان يخرجان الإنسان عن إنسانيته.

والخلاصة: أنّ إنسانية الإنسان تتقوَّم بعقلانيته وعدالة نظرته وإنصاف حكمه، ومثله لا يمكن أنْ يتكبَّر أو يتعالى أو يجحد مَن له حق عليه، فلابد وأنْ يكون مؤمناً صالحاً، والمؤمن الصالح مساوق للإنسان الكامل في إنسانيته.

---

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

اللطيفة الثانية: ثلاثة مدعيات للملاحدة والحكماء

قوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾[١] أشار فيه إلى إبطلان ثلاثة مُدعيّات لمنكري المبدأ والمعاد:

الأول: أنه سبحانه قادر على إعادة الخلق في الآخرة؛ لأنه قدرَ على خلقه وإيجاده في الدنيا، لأن الإيجاد إبداع من العدم إلى الوجود، وهو أصعب من الإعادة، وهو مجرد تركيب من الوجود إلى الوجود، وهذه القدرة في المبدأ دليلها الحس والوجدان، فتكون دليلاً على الإعادة؛ لأن حكم الأمثال واحد.

الثاني: أبطل شبهة امتناع المعاد الجسماني؛ لأن الخلق الأول ابتدأ من نطفة مجهرية كانت مودعة في تراب الأرض، ثم كيَّفها وأنشأها، والخلق الثاني يمكن أنْ يكون من ذرة مجهرية مودعة في تراب الأرض ثم يُكيِّفها ويبعثها، وتعززه الآيات والروايات التي نصت على أنّ السماء تمطر أربعين صباحاً لأجل الإعداد وتهيئة الخلايا الترابية للنشأة من جديد[٢]، فهناك تطابق في القانون والكيفية في الخلق بين الإيجاد والإعادة.

الثالث: أبطل شبهة الطبيعيين الذين يدّعون أنّ الأشياء بمقتضياتها الطبيعية توجد صدفة وتنمو، فإنّ ذلك ممتنع عقلاً، ومستلزم لحدوث الحادث دون مُحْدِث، ولأن الطبيعة من حيث ذاتها لا عقل لها ولا حياة فكيف أعطت العقل والحياة، ومن حيث فعلها لا اختيار ولا إرادة لها -بحسب منطوقهم

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

(٢) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٣؛ نور الثقلين: ج٥، ص٩، ح١٥.

ومعتقدهم- فكيف أعطت الفاعل العاقل المريد والمختار، وفاقد الشيء لا يُعطيه، كما أنّ الفاعل غير العاقل، والمُريد أفعاله لا تكون متطابقة ومُحكَمَة فكيف أوجدت هذا العالَم المنتظم المُحْكَم؟

فالعقل والفطرة يتفقان مع منطوق الآية، ويشهدان ببطلان دعوى الطبيعيين والملاحدة بحسب مبانيهم العقلية؛ لأن نظريتهم تقوم على ثلاث قواعد:

الأولى: قانون السببية، وأنّ لكل شيء سبباً لكنهم يقولون بأنّ الطبيعة هي السبب.

الثانية: قانون التماثل في الأشياء، وأنّ القانون واحد يحكم بين المتماثلات.

الثالثة: أنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

والآية أبطلت النتيجة لا الأصل، فإنّ أصل قانون السببية والتماثل والفقدان تام في نفسه، إلّا أنها أبطلت أنْ يكون السبب الطبيعة؛ لأن الطبيعة فاقدة للعقل والحياة والإرادة فلا يعقل أنْ تصدرها.

كما أبطلت دعواهم بإنكار المعاد؛ لأن قانون التماثل يلزم بقبوله؛ لأن القادر على المبدأ قادر على المعاد، كما أبطلت دعوى المُنكرين للمعاد الجسماني؛ لأن المبدأ والمعاد واحد في النشأة، ومن لطائف التعبير تشبيه نشأة الإنسان بنشأة الشجر، فإنّ الإنسان والشجر كلاهما نبات الأرض.

والشجر متنوع الأصول والفروع والأشكال والثمار مع أنّ منشأه واحد وهو التراب والماء، وكذلك الإنسان متنوع في أعراقه والفروع

والمظاهر والثمار مع أنّ منشأه واحد وهو التراب والماء، والوجدان شاهد على نشأة الشجر وإعادته فيكون دليلاً على نشأة الإنسان وإعادته كذلك، فالذي يشهد للأول ويقرّ به لابد وأن يذعن للثاني، فلو أنكر ذلك والحال هذه كان مثاراً للعجب. أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾[1].

ووصفهم بالكفر بربهم لأنهم بغفلتهم هذه جحدوا قدرة الخالق على الإعادة مع أنهم يشاهدون قدرته على الابتداء، ولأنهم غللوا عقولهم وأفكارهم بعصبيتهم أو بشهواتهم ومصالحهم لابد وأن يُغلّلوا في أعناقهم جزاءً وفاقاً، ولأن التعصب يجعل صاحبه مكابراً معانداً فإنه لا يجد فرصة للتوبة والرجوع؛ لذا يخلد في كفره ويكون مخلَّداً في النار، وهذا ما وردت به بعض الأحاديث إذ وصفت الإلحاد بالكبر وأن أدناه ذلك؛ لأن الكبر والتكبر في المعرفة يقود إلى العصبية، وهي الأخرى تسد منافذ العقل والقلب، وتقود صاحبها إلى الجحود[2].

(١) سورة الرعد: الآية ٤- ٥.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٣٠٩، ح١؛ ص٣١٠، ح٧؛ البحار: ج٦٦، ص٣٩٩، ح٩١.

اللطيفة الثالثة: الإبداع الروحي أعظم من البدني

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1] ورد بلسان المفاجأة، وتقدَّمَ بعض وجوهها في بيان المفردات، وتضاف عليها وجوه أخرى:

الأول: أنّ من كان منشؤه نطفة صامتة وأصلها من تراب جامد يصبح ناطقاً، والنطق يستدعي وجود العقل وحافظة للمعاني التي ينتجها العقل وإرادة لبيانها وقصداً لمعانيها، وهذا كله إبداع، فإنّ إبداع الفهم والنطق والإرادة والقصد في الإنسان أغرب من خلق جسده، والعجيب أنّ المنكرين يشكون في إعادة جسده تركيباً وإبداعاً، ولا يلتفتون إلى الإبداع الحاصل في روحه من عقل وشعور وإرادة ونطق، والروح في إيجادها إبداعية، وفي بقائها ودوامها وعَودها لجسدها بعد موته أعجب وأكثر دلالة على القدرة والإبداع.

الثاني: أنّ نطق الإنسان ليس بيانياً بل خصومياً؛ لأن الخصومة في النطق أقوى دلالة على العقل والبيان والإرادة من أصله؛ لأن نطق الإنسان في غير الخصومة يعبر عما يريد، وأما في الخصومة يريد به إثبات نفسه وإبطال حجة الغير والتغلب عليه، ولا يكون كذلك إلّا إذا اتصف بقوة الحجة والمنطق والبيان، فالخصومة وإنْ كانت قبيحة في شكلها ودواعيها إلّا أنها دالة على وجود قوة الإرادة في إثبات الذات ونطقها، وهذه خصوصيات تستدعي العجب.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

الثالث: الأعجب من ذلك أنّ الآية نسبت الخصومة للإنسان وليس إلى نُطقهِ فقالت: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[١] وفي ذلك دلالة على قيام شخصية الإنسان بروحه وبجسده وعدم الانفكاك بينهما، فإنّ أفعال الجسد هي آثار أفعال الروح، وإذا كان المنكرون للخالق أو للمعاد ينكرون ذلك في الجسد فإنه لا مجال لإنكار ذلك في الروح؛ لإذعان كل ذي عقل إلى أنّ الروح أصلها وآثارها ليست من عالَم الطبيعة؛ إذ ليس لها وجود مادي أو معايير مادية، فإنّ التعقل والمحبة والشعور والنطق ليست ممّا تدرك بالمقاييس المادية، ولا تنطبق عليها الشبهات التي ذكروها، وكل مَن يلتفت إلى ذلك لابد وأنْ يتوصل إلى أنّ مبدعها وموجدها خالق عظيم، وإذا أذعن المنكرون لحدوث الروح ومُحْدِثها يجب أنْ يذعنوا بذلك للجسد، والنتيجة الإذعان لوجود مبدأ ومعاد للإنسان هو بيد الخالق العظيم، فلو قبلوا ذلك في الروح ولم يقبلوه في الجسد كان ذلك من دواعي العجب.

الرابع: أنه سبحانه ذكر الخصومة والبيان في الإنسان دون باقي الصفات؛ لأنها هي الأخرى شاهد حسي وجداني لبني البشر في قدرتهم على إحداث الكلام وإيجاده، كما أنهم قادرون على إعادته ثانيةً، وما يقال في الكلام يقال في الصور الذهنية، بل وفي الصفات النفسية كالخصومة، فإذا كانوا هم – وأصلهم نطفة صامتة وضعيفة ومخلوقون وعاجزون – لكنهم قادرون على إيجاد بعض الأشياء وإعدامها لاسيَّما في موضع الخصومة فإنها

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

تقتضي التكرار والإعادة عادةً، فإنّ مَن خلق الإنسان وأوجده أقدر على ذلك فإذا أذعن الإنسان لقدرته على إيجاد بعض الأشياء وإعادتها ولم يذعن لقدرة الله سبحانه على ذلك كان مدعاة للتعجب والغرابة.

ويتحصل من مجموع اللطائف: أنّ الآية المباركة تجيب عن شبهات الطبيعيين وأمثالهم من منكري المعاد، وتبطل مُدّعاهم بحجج وجدانية ومبنائية تزيل عنهم الغفلة، ولا تدع لهم مجالاً للشك والتردد لو كانوا منصفين، فإذا لم يستجيبوا لذلك كله ولم يؤمنوا كشف عن كونهم خصماء اتّخذوا موقفاً معادياً لله سبحانه وبراهينه، ومثلهم لا يستحق إلّا العذاب.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: الفكر سبيل الخلاص

الآية المباركة تدعو الإنسان بمختلف مستوياته أن يكون نظره نظر عبرة، وما يشاهده ويعيش معه يتفكر فيه. إنّ الإنسان كائن مفكِّر ولا ينجيه من الصعوبات والأزمات ويقوده إلى الحياة الأفضل إلّا الفكر ولذا عدَّ من أفضل العبادات كما في الأخبار، والذم والاستنكار على عدم الرؤية والتفكر في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾[1] دلالة على وجوبه، وأنّ مَن لا يتفكَّر في أموره إذا وقع في ورطة كان مستحقاً للوم.

ومن هنا قال جمع من المفسرين بأنّ الآية دالة على حسن النظر في الدين؛ لأنه سبحانه أقام الحجة على قيام النشأة الثانية بوجود النشأة الأولى، وألزم مَن أقرَّ بالأولى أن يَقرَّ بالثانية[2].

ومن هنا يتضح أنّ الذين يضلون والذين يكفرون أو ينحرفون في العقائد لا يفكرون، وربما يتأثرون بغيرهم، والذين يبتلون في حياتهم

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

(٢) البيان: ج٨، ص٣٦٢؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٩١، مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠٠.

اليومية بخسارات مالية أو صحية أو مشاكل اجتماعية كذلك لا يفكرون بالتفكير الصحيح، ولو فكروا لتمكنوا من الخلاص من المشاكل؛ لأن الفكر مرآة صافية يهدي إلى الرشاد، ويُنجي من سوء العواقب كما تضافرت به الأخبار(١).

التعليم الثاني: كيف يقمع الإنسان غروره؟

إنّ الإنسان مُبتلى بالغرور والتكبر والطغيان، ويحتاج دائماً إلى كوابح تمنعه من هذا التعالي، ولذلك أدوات وسبل مَن أهمها النظر إلى أصله ونشأته، فإنّ النظر إلى المبادئ وتذكرها يقوِّم النتائج، فلو تذكر الإنسان وهو في ذروة قوَّته وسلطانه على نفسه وماله فضلاً عن منصبه أنه كان نطفة مهينة واحتاجَ إلى والديه وإلى ربه حتى ينمو ويكبر فإنه لا يجفو والديه إذا كبر، ولا يتمرَّد على ربه ويعصيه ويخاصمه، ولا يمكن أن يكون الإنسان مكتمل العقل والنفس وهو يغفل عن أصوله ويتعالى على غيره، ولذا ورد عن الباقر عليه السلام: «ما دخل قلب امرئ شيء من الكِبَر إلّا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك قلَّ ذلك أو كثر»(٢) وفي بعض الأخبار أنّ العبد إذا تكبَّر واستمر متكبراً يُكتَب عند الله من الجبارين، والجبارون ينازعون الله سبحانه صفته(٣)، ولذا كلما يزداد الإنسان الكامل مقاماً يزداد تواضعاً.

---

(١) انظر ينابيع الحكمة: ج٤، ص٣٥٣.

(٢) البحار: ج٧٥، ص١٨٦، ح١٦؛ وانظر التواضع والخمول: ص٢٧٣، ح٢٢٦.

(٣) انظر البحار: ج٧٠، ص٢١٤، ح٤؛ ص٢١٥، ح٥؛ الترغيب والترهيب: ج٣، ص٥٦٣، ح١٤.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لو رخَّصَ الله في الكبر لأحد من عباده لرخَّصَ فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كَرَّه اليهم التكابر، ورضيَ لهم التواضع»[1] وفي الأخبار بيان لِعلَّة التكبر وهو العقدة والذلَّة النفسية، فعن الصادق عليه السلام: «ما من رجل تكبَّر أو تجبَّر إلّا لِذلَّة وجدها في نفسه»[2] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما تكبَّر إلّا وضيع»[3] وهذه ماثلة في الآخرة؛ إذ يحشر المتكبرون والجبارون أمثال الذر في صُوَر الرجال يغشاهم الذلُّ من كل مكان[4]، ويطأهم الناس بأقدامهم[5]، ويسكنون في جهنم بواد يقال له سَقَر، وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «أنّ شدة حَرِّهِ تُحْرِق جهنم»[6].

ومعلوم أنّ التكبر يشمل الظلم وبخس الحقوق، فإنه لا يبخس حقوق الناس إلّا المتكبر الجبار، والذي يجفو والديه ولا يبرهما، والذي يأكل أموال إخوانه، والذي يظلم زوجته وأولاده، والمدير الذي يظلم موظفيه،

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٤٤، الخطبة ١٩٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣١٢، ح١٧؛ البحار: ج٧٠، ص٢٢٥، ح١٧.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص٤٧٥.

(٤) انظر مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٥٨ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣١، ح١٣٤٢٩؛ المحجة البيضاء: ج٦، ص٢١٥؛ كنز العمال: ج٣، ص٥٢٨، ح٧٧٥٠.

(٥) المحجة البيضاء: ج٦، ص٢١٥؛ مجمع الزوائد: ج١٠، ص٣٣٤؛ الاستذكار: ج٢، ص٥٤١، ح٤٧٨.

(٦) الكافي: ج٢، ص٣١٠، ح١٠؛ المحاسن: ج١، ص١٢٣، ح١٣٨؛ ثواب الأعمال: ص٢٢٢.

والضابط الذي يظلم جنوده، والمدرس والأستاذ الذي يظلم تلاميذه والعيال إذا ظلموا كناتهم وبالعكس، وكل مَن يظلم غيره ويتنكر لمعروفهم أو ينتقص من مكانتهم هو ظالم متكبِّر وهذا مصيره.

فلو التفتَ المدير الظالم إلى تأريخه وأنه كان موظفاً بسيطاً، والضابط إلى أنه كان ضعيفاً، والولد إلى أنه كان نطفة ولولا والديه لم يقم ولم ينهض لَمَا تكبروا ولا ظلموا، ولكن الغفلة عن ذلك تعمي القلوب فتوقع أهلها في الظلم.

التعليم الثالث: كيف تتعامل مع الخصومات؟

إنّ الخصومة بين الناس قضية طبيعية ملازمة للطبع البشري؛ لذا لا يمكن الانفكاك عنها، وهي ما تقتضيها طبيعة الحياة الاجتماعية، وأكثر الناس قد لا يقدرون على المنع من وجودها إلّا أنّ ما يقدرون عليه أمور:

الأول: أنْ لا يظهروا الخصومة فيما بينهم بواسطة العزم والإرادة؛ لأن الخصومة توجب العداوة، وهي الأخرى توجب الظلم والشحناء، وربما هدمت البيوت، وفرَّقت الأهل والمجتمع.

الثاني: السعي لتخفيفها وعدم السماح بتماديها بواسطة تربية النفس على الصبر والتحمل.

الثالث: السعي لرفع أسبابها بالإصلاح والتفاهم، خصوصاً إذا كانت مع المقربين والمحبين والأرحام والجيران.

ففي رسالة الإمام زين العابدين عليه السلام في الحقوق قال: «فحق أمك أنْ تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحدٌ أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا

يُطعِم أحدٌ أحداً، وأنها وَقَتْكَ بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها، مستبشرة فرحة، محتملة لِما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمّها حتى دفعتها عنك يد القدرة، وأخرجتك إلى الأرض، فرضيت أنْ تشبع وتجوع هي، وتكسوك وتعرى، وترويك وتظمأ، وتُظلكَ وتضحى، وتنعمّك ببؤسها، وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاءً، وحِجْرُها لك حَوَاءً، وثديها لك سقاء، ونفسها لك وقاءً، تباشر حرّ الدنيا وبردها لك ودونك، فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلّا بعون الله وتوفيقه[1].

وأما حق أبيك فتعلم أنه أصلك وأنك فرعه، وأنك لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك مما يعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه، وأحْمَد الله واشكُرهُ على قدر ذلك، ولا قوة إلّا بالله»[2].

وعن الإمام الهادي عليه السلام عن آبائه عن الصادق عليه السلام قال: «ثلاث دعوات لا يُحْجَبن عن الله تعالى: دعاء الوالد لولده إذا برّه، ودعوته عليه إذا عقَّه، ودعاء المظلوم على ظالمِهِ، ودعاؤه لمن انتصر له منه، ورجل مؤمن دعا لأخ له مؤمن واساه فينا، ودعاؤه عليه إذا لم يواسه مع القدرة عليه واضطرار أخيه إليه»[3].

---

(١) رسالة الحقوق: ص٣٨١؛ شرح رسالة الحقوق: ص٥٤٥.

(٢) رسالة الحقوق: ٣٩٩؛ وانظر شرح رسالة الحقوق: ص٥٦١؛ تحف العقول: ص٢٦٣، ح٢٢.

(٣) الأمالي (للطوسي): ص٢٨٠، ح٥٤١؛ عدة الداعي: ص١٢١؛البحار: ج٧٤، ص٧١، ح٥٧.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة من الذنوب تُعجَّل عقوبتها ولا تُؤخّر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»[١].

ومن كفر الإحسان العداوة والخصومة مع الله سبحانه.

التعليم الرابع: أصناف الخصومة مع الله

إنّ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[٢] يستفاد أنّ خصومة الإنسان ربه عزّ وجلّ قسمان مبينة وغير مبينة، والثانية هي الذنوب والمعاصي التي يرتكبها ابن آدم، أو الشكوك والوساوس التي لا يظهرها ولا يصرِّح بها، وأما الأولى فهي التي يظهرها بالقول والعمل، وهي أقسام ثلاثة:

الأول: خصومة العقيدة أي الكفر العقيدي.

الثاني: خصومة العمل أي العصيان.

الثالث: خصومة النظام، وهو الكفر المنهجي في النظام الاجتماعي والسياسي.

فإنّ التصريح بالكفر العقيدي بالقول قليل، وأما الكفر العملي والمنهجي فهو الغالب على الحياة الإنسانية، ولا يختص به الكفار والمشركون، بل حتى المؤمنون قد يقعون به، فإذا لا يلتفتون إليه ينالهم ذات الجزاء والمصير، فإنّ الإنسان الذي يرتكب المعاصي وهو يعلم أنها حرام

---

(١) الأمالي (للمفيد): ص٢٣٧، ح١؛ الأمالي (للطوسي): ص١٤، ح١٧؛ البحار: ج٧١، ص٧٤، ح٦٤.

(٢) سورة يس: الآية ٧٧.

والذي يسفك الدم الحرام والذي يأكل أموال الناس بالربا والظلم ويهضم حقوقهم والذي يسرق المال العام أو الخاص بالعناوين الصريحة والمغلفة هذه كلها خصومة مع الله تعالى ومبينة؛ لأنها ظاهرة، وكذلك القانون العام والنظام العام إذا قام على مخالفة أحكام الله تعالى وحدوده وقوانينه هي خصومة مع الله سبحانه لم يصرحوا بها بالقول، ولكن العمل يصرِّح بها.

فإنَّ الخصومة مع الله سبحانه لا تنحصر بمصداق بل كل معصية وذنب ومخالفة لله سبحانه وكل، جهل بدين الله هي خصومة مع الله سبحانه، فلو كانت لعبة رياضية والشباب مستمرون لمشاهدة اللعبة وهي لهو ولعب والمؤذِّن يناديهم للصلاة ولا يبادرون إلى الصلاة ماذا يعني هذا؟ يعني أنهم لم يستمعوا لنداء الله تعالى واستمعوا لنداء شهواتهم.

والمرأة التي لا تبالي بالحجاب وتبدي زينتها للرجال الأجانب ولا تتعفف - والله عزّ وجلّ يأمرها بالحجاب وعدم إبداء الزينة - ماذا يعني؟ والأب الذي يظلم أولاده والزوج زوجته والجار جيرانه، وهكذا لو التفتنا إلى أعمالنا وحياتنا اليومية نجد في الكثير من الأحيان أنّ بعضنا وقع في الخصومة مع الله تعالى وهو لا يعلم، وهذا مثار عجب واستغراب، وهو ما يلفتنا إليه القرآن، فلا ينبغي أنْ يتصور البعض بأنّ الآية تخص أهل الجاهلية الذين لم يؤمنوا بالله وبالمعاد، أو أنهم خاصموا الله في إنكارهم للمعاد، فإنّ هذه الظاهرة لازالت موجودة على الأرض، والكثير من الناس واقعون بها، فإنّ المعصية لا تقع لو كان الإنسان على وثوق ويقين من الموت والمعاد والحساب والعقاب، ولكن لضعف إيمانه يعصي ولا يبالي، ولضعف إيمانه بربه يخاصمه ويعاديه بعمله وإن لم يظهر عداوته بقوله.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ
خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ

يس/ ٧٨

الإلحاد بالمعاد

وردت الآية المباركة معطوفة على الآية السابقة، والغاية من العطف تعود إلى أمور:

الأول: إظهار فكرة إنكار البعث التي كانت معشعشة في أذهان الكفار بالمصداق، وبيان أنها تقوم على مبدأ حسّي وهو أنّ العظم الرميم البالي والذي قطع شوطاً طويلاً في الموت قد صار نخراً كيف يمكن إعادته ثانيةً؟

الثاني: بيان الخصومة المبينة التي ذكرتها الآية السابقة بمثال عملي؛ إذ جاء بعظم بال وفتّه أمام النبي صلى الله عليه وآله وقال: من يحيي العظام وهي رميم؟

ففي الاحتجاج عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام: «أنّ يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: فإنّ إبراهيم قد بَهتَ الذي كفر ببرهان نبوته؟ - وكأنه يشير إلى قوة حجة إبراهيم على حجة النبيّ - قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمد صلى الله عليه وآله أتاهُ مُكذِّب بالبعث بعد الموت وهو أُبي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركهُ ثم قال يا محمد: ﴿**مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾ فأنطق الله تعالى محمداً بمُحْكَم آياته وبَهَتَهُ ببرهان نبوَّته فقال: ﴿**يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ فانصرفَ مبهوتاً»[1].

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٣١٨؛ البحار: ج١٠، ص٣٢، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٩٥، ح٨٨.

وعن ابن عباس أنّ ضارب هذا المثل العاص بن وائل، وفي رواية أخرى إنه عبد الله بن أُبَيّ، وثالثة أنه أبو جهل[1] لا يبعد أنْ يكون الموقف قد تكرر كما تقتضيه طبيعة المجادلين المكابرين.

الثالث: بيان عمق الغفلة والجهل الذي ينحطّ فيه الإنسان حتى يغفل عن برهان ذاته ووجدانه ويناقش في غيره، وهذا هو شأن المكابرة والعناد تجعل الإنسان في جمود فكري وظلام قلبي بحيث لا يرى حتى نفسه، ويطالب بدليل والدليل بين يديه لا يراه ولا يبصره، فمثله مثل من يحمل الماء على ظهره وهو عطشان يلتمس الماء من مكان بعيد، أو من يحمل المصباح ويستنير بغيره.

هذا والبحث في الآية يقع في مباحث:

---

(١) الدر المنثور: ج٥، ص٢٦٩؛ تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٧١، هامش(١).

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾

(الضرب) إيقاع شيء على شيء والتأثير فيه[1]، وضرب المثل يراد به إيجاد المعنى وإظهاره ليؤثِّر في الأذهان، كما يقال ضرب الخيمة أي نصبها وأقامها، وضرب الدراهم والدنانير، و(المثل) تمثيل فكرة الإنكار والجحود بالمعاد، ونفي القدرة على إعادة الأموات إلى الحشر بواسطة العظم البالي النخر، وهو من بيان الأمر غير المحسوس بالمحسوس يؤتى به لدواع عديدة:

منها: إحراج الطرف الآخر.

ومنها: إشغاله بالمثل وصرف نظره لتبرير المثل عن أصل الفكرة.

ومنها: التشويش لأذهان العامة وتضليل أفكارهم عن المعاد؛ لأن بسطاء الناس يتأثرون بالحسِّ أكثر مما يتأثرون بالعقل، فيكون بالمثل الذي جاء به قد أثَّر على أذهان الناس كما أثَّر على دعوى المعاد ووجوب الإيمان به لكي ينفيه.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٠٦، (ضرب).

ومن لطائف التعبير أنه ذكر المثل ولم يذكر ضاربه، ولعلّ السرَّ فيه يعود إلى الحكمة، وهي تقتضي النظر إلى القول وليس القائل، وإنَّ الخلاف بين الإيمان والكفر منهجي لا شخصي، أو لأجل تعميم الفكرة لكل زمان ومكان بتخليصها من شأن النزول، أو لعدم أهمية القائل، أو لذلك جميعاً كما هو الحق، وفي ذلك تعليم مهم لأهل النظر والحوار والمناظرة.

والضمير في قوله: (لنا) يعود على رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وفيه ثلاث دلالات هامة:

الأولى: أنّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هو خليفة الله في أرضه والممثِّل لآيات جماله وجلاله، فقوله وفعله وتقريره حجة.

الثانية: أنّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هو الواسطة بين الله وبين عباده.

الثالثة: أنّ الآيات التي وردت بلسان ضمير الجمع المنسوب إليه سبحانه يراد به النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومَن يقوم مقامه كما أشرنا إليه في بيان العلل التوسيطية، وبذلك تبطل دعاوى الوهابية وأمثالهم النافين لخلافة المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ لله سبحانه على الأرض ووساطته بين الله وبين خلقه وحجية قوله وفعله.

المفردة الثانية: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾

(الواو) حالية أراد بها بيان عمق الغفلة التي يعيشها المنكرون للمعاد؛ إذ يضرب مثل لبيان استحالة إحياء العظام، وينسى نفسه أنه ممّا لم يكن ثم وجد حيّاً، وإنما عبّر عنه بنسيان الخلقة دون الغفلة؛ لأنه أخصّ منها، فإنّ الغفلة تكون عن عدم استحضار الموجود بالعقل سواء كان خارجا عن النفس أو داخلها، بخلاف النسيان فإنه عدم تذكر ما كان موجوداً في النفس، وخلق الإنسان ممّا ينسى، ولكن لا يغفل عنه لسببين:

الأول: لأنه مما يدرك بالوجدان؛ إذ لا أحد ينكر أنه مخلوق وأنّ له خالقاً و موجداً.

الثاني: أنّ وجوده حدوثياً لا أزلياً - أي لم يكن ثم وُجِد - وأنّ أصل وجوده نطفة، وما كان بادئ خلقه حدوثياً بواسطة خالق فإنّ إعادته تكون كذلك؛ لأن حُكم الأمثال واحد، فنسيان الخلق يتضمَّن نسيانين نسيان أصل وجوده ونسيان عموم قدرة الله سبحانه على الخلق والإعادة.

ومن مثار الغرابة والعجب أنّ الإيجاد إبداعي من العدم إلى الوجود، وهو ممّا لا يقبل الإنكار، فكيف ينكرون ما كان من الإعادة وهو تركيبي، كما أنه أوجده من نطفة واهنة في غاية الضعف، وإعادته تكون إعادة لما هو أقوى من النطفة؟ ولو التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة وصل إلى المطلوب لكنه ينسى أو يتناسى.

وفي تفسير القمي: فلو أنّ الإنسان تفكَّر في خلقة نفسه لدلّه ذلك على خالقه؛ لأنه يعلم كل إنسان أنه ليس بقديم؛ لأنه يرى نفسه وغيره مخلوقاً مُحْدَثاً، ويعلم أنه لم يخلق نفسه؛ لأن كل خالق قبل خلقه، ولو خلق نفسه لدفع عنها الآفات والأوجاع والأمراض والموت، فثبت عند ذلك أنّ لها إلهاً خالقاً مدبراً هو الله الواحد القهار(١)، والخالق أولاً مُعيد ثانياً لعموم القدرة.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٨.

المفردة الثالثة: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

الاستفهام استنكاري تعجبي، والغاية منه نفي الإحياء بعد الموت والبعث بعد تلاشي البدن وتفرّقه، و(من) استفهامية تفيد العموم، وكأنّ المُنكِر يخبر عن عدم وجود أحد يحيي العظام وهي رميم، والرميم البالي، ووصف العظام بها لبيان تحقق الموضوع لا يراد به المفهوم؛ لأن المحال يجري في الرميم وغير الرميم، لكنه وصفها بالرميم لبيان شدة الامتناع فيها؛ لأن الرمَّ الفتات[1]، والعظم إذا تفتت دل على زوال صورته واضمحلال مادته بتراب الأرض، وربما انقلابها إلى ذرات أخرى فيكون أبعد عن الإعادة، ويبدو من الآية أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون باتِّحاد الروح والجسد، فإذا مات الإنسان مات بروحه وجسده، ولم يلتفتوا إلى أنّ الإنسان مركب من روح وجسد، وأنّ الروح إفاضية من خارج الجسد وليس منه، والموت مفارقتها للجسد، فإذا تلاشى الجسد بقيت روحه، وإذا حان موعد الحشر تكوَّن الجسد بقدرة الخالق وعادت الروح إليه.

ولعل تخصيص العظام بالذكر لأسباب:

الأول: لأن العظام أصل تكوين بدن الإنسان، ولولاها لم يستوِ قائماً، ولم يكن له وجود شاخص؛ إذ لا يقوم اللحم لولا العظم.

الثاني: لأن العظام تبقى بعد الموت مدة طويلة.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٦٥، (رمّ).

الثالث: لأن العظم أبعد عن الحياة من اللحم ونحوه، فيكون قد دل على مطلوبهم.

وسؤالهم عن إحياء العظام يدل على أنهم كانوا مؤمنين بالخالق وبقدرته في أصل الإيجاد والإحياء ولكنهم منكرون للمعاد، أو منكرون لقدرته على الإعادة.

ويتحصل من مجموع المفردات: أنّ المنكر للمعاد بنى معتقده على مجرد استبعاد القدرة على إعادة ما زال عن صورته وتفتت أجزاؤه، وهو استبعاد لا يستند إلى منطق ولا عقل؛ لأنه غفل عن أمور ثلاثة:

الأول: أنّ النشأة واحدة في المبدأ وفي المعاد، بل النشأة في المعاد أسهل؛ لأنها من وجود إلى وجود.

الثاني: أنّ المبدأ كان بقدرة الخالق العظيم وكذلك المعاد، فالقادر واحد والمقدور كذلك واحد والقدرة عامة.

الثالث: أنّ الحياة والإحياء تتم بالروح وهي ليست من الجسد، بل خارجة عنه، فحتى إذا تفتت الجسد يمكن إعادته؛ لأنه مجرد قالب وهيكل والعمدة فيه الروح وهي موجودة، فيعيدها بارئها إلى الجسد، فلماذا التعجُّب والاستنكار؟

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: تعاضد الحس والعقل في البرهان

إنّ الآية المباركة أقرَّت بأنّ الدلالة الحسية مهمة في إيجاد القناعات؛ إذ لم تبطل المثل الذي ضربه المُنكِر وإنما ذمَّت توقفه على الحس وعدم استنتاجه القانون الذي يستند إليه، ولذا تواتر في الآيات والروايات الحث على الاعتبار والاتعاظ من النظر والسمع وما يحسه الإنسان في حياته، فإنّ الحسَّ وحده لا يكون دليلاً إلّا إذا ترتب عليه استنتاج عقلي، ونلاحظ أنّ المُنكِر ضرب مثلاً بالعظم البالي ونسيَ خلقه الذي كان أسوأ حالاً منه، فإنّ العظم موجود قوي واستبعد إمكانية عَوده ونسيَ أنه كان معدوماً وأوجده، وضعيفاً وقوّاه، فالغفلة عن هذا الترابط والوحدة القانونية بين المبدأ والمعاد جعلته يغفل عن الواضح، ويكون مثاراً للغرابة، ولو التفت إلى عموم القدرة ووحدة القادر والمقدور في المبدأ والمعاد لَمَا وقع في الكفر والجحود، وهذه حقيقة هامة في الاستدلال والاستنباط.

اللطيفة الثانية: هل للعظام حياة؟

أقرّت الآية المباركة قضية كانت محلاً للبحث بين الأطباء والفقهاء، وهي أنّ للعظام حياة فتموت وتحيا أم لا؟ فجماعة قالوا بحياتها وجماعة أنكروا(١)، ويظهر من منطوق الآية أنّ العرب كانوا يعتقدون بذلك، والموت يسلب منها الحياة، فلذا سألوا عن إحيائها بعد الموت لا عن إيجادها، والقرآن الكريم أكّد هذه الحقيقة في الآية التي بعدها؛ إذ قال: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ وهذا ما يؤيده الوجدان الحسي، فإنّ العظم ينمو ويطول ويعرض ويقوى ويضعف، وإذا انكسر ينجبر ويلتحم، وهذه كلها آثار الحياة، فلو كان ميتاً لامتنع ذلك كله.

ولذا وجبَ الغُسُل على مَن مسّ عظم الميت قبل التغسيل، أو مسَّ العظم المُبان من الحيّ، ولا يجب الغُسُل إذا خلا من العظم وهو المروي عن الصادق عليه السلام، وأطبق الفقهاء على العمل به(٢)، ووجبَ تغسيل السِقْط إذا كان عمره أربعة أشهر أو أكثر دون ذلك(٣)، وهي المدة التي يكتمل فيها عظمه ولحمه، فالآية دالة على أنّ العظم ذو حياة فيؤثّر فيه الموت كسائر الأعضاء(٤)، وقد مرَّ البحث في أنَّ كل شيء في الوجود حي، والموت معنى نسبي لا حقيقي.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٥٣؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٤.
(٢) انظر مهذب الأحكام: ج٣، ص٣٣٣.
(٣) انظر المسائل الإسلامية: ص٢٣٠، مسألة (٥٦٢)؛ (٥٦٣).
(٤) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٠.

اللطيفة الثالثة: هفوة الإلحاد في الاستدلال

إنَّ المُنكِر للمعاد وقع في القياس بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه، فلمّا رأى أنّ البشر عاجز عن إحياء العظم الميت تصوَّر أنّ ذلك قاعدة عامة تجري حتى في قدرة الله سبحانه، وهو من القياس المستنبط، والباري عزّ وجلّ أبطلَ قياسه بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.

على إنَّ عظام البشر ليست جميعها ترمّ وتضمحل؛ لأنّ عظام ولحوم الأنبياء والأئمة والأولياء عليهم السلام المُقتدين بهم لا تبلى، ولا تأكلها الأرض؛ لأنها محرمة عليها وعلى الدواب والوحوش كما تضافر في الأدلة[1]، فيكون ذلك دليلاً نقضياً على المُدَّعى.

---

(١) انظر الفقيه: ج١، ص١٢١، ح٥٨٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨١.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: مناشئ الإلحاد

يتضح من الآية أنّ المنكرين للمعاد ليس لهم دليل على مُدَّعاهم، وإلحادهم ناشئ من أمور:

الأول: الاستبعاد وإتِّباع الظنون الشخصية، وفي الغالب مترددون مستغربون، وتحدَّث القرآن الكريم عن ترددهم في آيات عديدة؛ إذ كانوا يقولون: ﴿**أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[1] ويقول: ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾[2] وهذا نهج ينم عن جهل بأصول البحث العلمي، ولا يمكن أنْ يكون مداراً للمعرفة وبناء المعتقدات، فإنّ النتائج توجد بالأدلة القطعية لا بالتردد وعدم الدراية.

الثاني: المقايسات بين الأشياء، فما يجدونه في عالم الحس يقيسون عليه سائر الأمور، والغفلة عن التفاوت بين الأشياء، وأنّ لكلٍ قانونه، ولذا حيث رأوا تعذُّر عودة العظم الميت حيّاً في الدنيا توهموا أنّ ذلك أبدياً،

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية٨٢.

وحيث رأوا عجز الإنسان عن إحيائه توهموا أنه مستحيل في نفسه، ولا يقدر أحد على إحيائه مع أنّ العقل والبديهة فضلاً عمّا يثبت بالعلم بطلان ذلك؛ لأن العالَم أوسع من المحسوس، وحتى في المحسوس حقائق وخصائص لا تدرك بالحس، فليس كل ما ليس بمحسوس غير موجود، وعجز البشر لا يلازم عجز غيره، كما أنّ المعتقدات تُبنى على الأدلة والبراهين لا الظنون والاجتهادات.

الثالث: حصر التفكير في وجود الخالق لا في الخلق، وحيث إنّ عقولهم تقصر عن درك الخالق اللامحدود لاستحالة إحاطة المحدود باللّامحدود ضلوا وشطوا ولو فكروا في خلق أنفسهم لأيقنوا بأنّ للعالَم خالقاً وأنّ للمبدأ معاداً ولم ينكروا ذلك، فالخطأ المنهجي للإلحاد ساقه إلى الإنكار، ولو صحح المنهج لما بقي في ضلال.

التعليم الثاني: أنّ الآية المباركة تبطل دعوى امتناع المعاد الجسماني لأنها أقرَّت إحياء العظام من جديد، وهي ذاتها التي كانت ميتة تعاد وتنشأ من جديد.

التعليم الثالث: حقيقتان في سياسة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه

كشفت الآية عن حقيقتين هامتين كان الناس يعيشونهما في سياسة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِه.

الأولى: فتح باب التعليم والتعلم والسؤال والاستفهام مهما كان التساؤل.

الثانية: امتلاك الخصوم والمعاندين الحرية الكاملة في إظهار معتقدهم والاستدلال عليه لغاية إفحام دعوى النبي وإبطال حججه، ولم يواجهوا

بالقوة والقمع، بل بالحجة والبرهان، ومن الواضح أنّ الخصومة الاعتقادية كانت تتضمن خصومة سياسية، ورغم ذلك تركوا أحراراً. كل ذلك يشير إليه قوله تعالى: ﴿**مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾[(١)].

التعليم الرابع: قواعد منهجية في المعرفة

تضمنت الآية الدلالة على عدة مسائل من علوم مختلفة:

الأولى: يجوز نقل الأفكار الباطلة لهدف إبطالها كما حكى الباري عزّ وجلّ قول مُنكري المعاد وأبطلها.

الثانية: ضرورة استخدام الجواب النقضي مع المخاصمين والمعاندين، فإنّ المعاند يكابر على الحق فلا ينفع معه الحوار الجلي الذي يناقش الحجج العلمية بمثلها، فلابد من إبطال حجته بجواب ينقض أصل الدعوى كما قال سبحانه: ﴿**وَنَسِيَ خَلْقَهُ**﴾[(٢)].

الثالثة: أنّ الأشياء تُعرَف بأمثالها وأشباهها، فالمنكرون نفوا المعاد ونسوا ما يماثله في الوجود، ومذعنون له وهو المبدأ، ولو التفتوا إلى المماثلة آمنوا.

الرابعة: صحة قياس الأولوية، فإنّ القدرة على المبدأ ملازمة لشدة القدرة على المعاد لأنها أسهل.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٨.

(٢) سورة يس: الآية ٧٨.

الخامسة: أنّ أكثر الشبهات تنشأ من الغفلة في المقارنات والمناسبات، فإنّ آفة العلم والعلماء الغفلة والنسيان، والأولى تطرأ لدى الاستدلال، والثانية تطرأ على النتائج عادةً، فحتى يحفظ العالم النتائج العلمية لابد من معالجتهما.

السادسة: أنّ الأقوال تُناقَش من حيث ذاتها بغض النظر عن قائليها، كما، أهملت الآية ذكر القائل، ولهذا النهج ثلاث فوائد مهمة:

الأولى: تجريد البحث من الشخصنة والخلاف الشخصي.

الثانية: تعميم النتائج فتجري في كل زمان ومكان.

الثالثة: الإيصال إلى النتائج عن دراسة علمية خالية من التعصب والمزاج.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

يس/ ٧٩

قول النبيﷺ قول الله سبحانه

وردت الآية جواباً عن استفهام مُنكِر المعاد، والآية السابقة عن الذي يحيي العظام وهي رميم، ولأن السؤال وُجِّه إلى النبيﷺ أمرَ الباري عزّ وجلّ النبي بالإجابة فقال: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا**﴾ مع أنّ النبيﷺ عارف بذلك، ولو أجاب فإنه سيقول: (الله سبحانه يحييها كما أنشأها أول مرة) والغاية من ذلك بيان أمرين:

الأول: الإلفات إلى أنّ الله سبحانه حاضر معهم ومحيط بما يدور من حوار، وليس بغافل عن المُنكِر ولا غيره.

الثاني: بيان أنّ ما يقوله النبيﷺ هو قول الله سبحانه، وحُكْمُه حكمه بلا اختلاف ولا تفاوت، وحيث إنّ بعض مُنكري المعاد ما كانوا يُنكرون المبدأ بل يبدو من سياق الآية السابقة أنهم كانوا مُسَلِّمين بالمبدأ، وإنّ للخلق خالقاً فيجب أنْ يصدقوا بقوله، لكن إنكارهم للمعاد إما من جهة توهم أنّ الفاني يستحيل إعادته، أو من جهة عنادهم، فأمر النبيﷺ بأنْ يجيب بأنّ الخالق الذي كان ولم يكن معه شيء أوجدَ الأشياء أولاً، وهذا مما يعتقدون به، وهو نفسه باق بعد فناء الأشياء، فيوجدها ثانيةً كما لم تكن موجودة أول مرة وأوجدها كما هو منطوق الآية.

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾

الإحياء واضح المعنى[1]، والأمر بالقول هو تلقين بالجواب، ويتضمن الإجابة عن شبهات ثلاث لا زال بعضها محل جدل:

الأولى: شبهة أنّ الموت فناء وانعدام لا تبدل النشآت وتغيّر العوالم.

الثانية: شبهة استحالة إعادة المعدوم الفاني.

الثالثة: شبهة أنّ تفرُّق أجزاء البدن في مشارق الأرض ومغاربها وانحلالها في التراب أو اندماجها في أجساد أخرى والتي عُرِفَتْ بشبهة الآكل والمأكول يستحيل جمعها، وهذه الأخيرة تقرر بعد رفع اليد عن الثانية، فإنه لو قيل بعدم استحالة إعادة الفاني فإنّ ذلك يتصور في الفاني في محلهِ، وأما إذا تفرَّق وصار في محلات كثيرة وأجساد كثيرة وتلك الأجساد هي الأخرى تفرَّقت في أجساد أخرى فهو وإن لم يكن انعداماً حقيقياً إلّا أنه انعدام حُكمي، ولا فرق بينهما، لأن الاثنين فيه فناء فيستحيل إعادته،

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٦٨، (حيى)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٢١٣، (حيي).

فأجاب عن الشبهة الأولى بأنّ الموت ليس فناء بل تبدل نشأة فقال ﴿يُحْيِيهَا﴾ ومرجع الضمير هو العظام التي ماتت، ولولا أنْ تكون باقية لا يمكن أحياؤها نفسها بل كان الإحياء لمثلها لا لنفسها.

وبهذا المنطوق تجيب الآية عن شبهة استحالة إعادة المعدوم التي قررها الحكماء؛ إذ نصت على أنّ العظم الميت هو نفسه يحيا ويعاد من جديد، وهذا يعني أنه لم يكن معدوماً في ذاته، وما عُدِمَ منه هو صورته الوجودية لا حقيقته وذاته، وبنسبة الإحياء إليه سبحانه أجاب عن الشبهة الثانية، فإنّ الإحياء والإماتة من فعل القادر وهو واحد وقدرته واحدة وعامة لا تضعف ولا تزول، ولا تغلبها قدرة أخرى، فإذا أحيا أول مرة يُحيي مرة أخرى، لكن المُنكِر حيث قاس قدرة الخالق عزّ وجلّ مع قدرة البشر المعرَّضة إلى الزوال والضعف والمغلوبية ولاحظ أنه عاجز عن إعادة ما ذهب وزال توهم إنّ ذلك مستحيل في نفسه فأبطلت الآية توهمه.

كما أجاب عن الشبهة الثالثة بالتذكير بالإحياء أول مرة؛ لأن مبدأ الإنسان آنذاك كان متفرقاً في الأراضي والأشجار ولحوم الحيوانات فاجتمعت في أصلاب الآباء نطفاً حيَّة، ثم تكوَّن منها في نشأته الأولى بقدرته سبحانه، فكذلك في نشأته الآخرة يجمعها من أماكنها المتفرقة وينفخ فيها الحياة ويكوّنها من جديد.

المفردة الثانية: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

اسم الموصول يشير إلى الخالق عزّ وجلّ ولكنه أبهمه، ولعلَّه لم يذكر اسمه لسببين:

الأول: إبقاء البحث مجرداً عن المصاديق لتكون المحاورة علمية تتعلق بأصل النظرية، فإذا صحت يكون البحث المصداقي في المُحيي سهلاً، ويعززه أنّ المُنكر للمعاد كان يتوهم استحالة إعادة الفاني، وهي قضية نظرية تستدعي أن يكون الجواب مطابقاً لها، ولذا أبهم الباري ذِكْر المُنكِر وذَكَرَ سؤاله واستنكاره فقط في الآية السابقة.

والثاني: لتنزيه اسم الباري عزّ وجلّ عن هذه الأوهام والتوهمات، وفي عين الحال بيان قوة القدرة، ومرجع الضمير في أنشأها العظام وهو يدل على عموم القدرة وتساوي جميع المقدورات بالنسبة إليها و(الإنشاء) الإحداث والتربية[١]. يقال على الجيل الجديد بالنشأ الجديد لأنه حدث السن، ويفتقر إلى تربية، ووصفت البنات بأنهن ينشأنَ في الحِلْية في قوله تعالى: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ**﴾[٢] لأنهن زينة ويتزينن بالحلي والزينة.

و﴿**أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[٣] يشير إلى أن الخلق له مرات كثيرة، وأول مرة منه كان معدوماً ثم وُجِد، وكان فاقداً للحياة فصار حيّاً، وأما بعدها فليس

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٠٧، (نشأ).

(٢) سورة الزخرف: الآية ١٨.

(٣) سورة يس: الآية ٧٩.

يفنى ولا يعدم، بل تتبدل نشأته من وجود إلى وجود؛ لذا ينمو ويكبر ويزداد إدراكه حتى يصل إلى قمة النفخ، ثم يبدأ بالانحدار من جديد حتى يرد إلى أرذل العمر، وهذه تبدلات وجودية لا فناء فيها ولا عدم، فإذا مات وتحلل جسده وانتقلت روحه إلى محلها لا يراها الناس توهم الجاهلون والقاصرون أنه عدم وفنى، ويستحيل عَوده، فأخبر الباري عزّ وجلّ بأنّ الإعادة كالبداية، كلاهما مقدوران، وبذلك تشير الآية إلى عدة حقائق هامة:

الأولى: أنّ القانون الحاكم في نشأة الخلق هو ذاته حاكم في الإعادة.

الثانية: أنّ الإنشاء والإعادة كلاهما يتعلقان بقدرة القادر، وهي واحدة في الحالتين لا تتبدل ولا تتغير، ومبدأ تكوُّن الإنشاءين من نطفة متفرقة تجتمع في الأصلاب هو مبدأ تكوُّنه في القبور ونحوها.

الثالثة: أنّ القدرة الإلهية ثابتة وعامة لا تتبدل ولا تتغير ولا تضعف أو تزول، وجميع المخلوقات إليها متساوية النسبة والأثر.

الرابعة: إن الإيجاد والإعدام والإعادة كلها تعود إلى القادر المريد، فعلّة الحدوث والبقاء والإعادة واحدة.

الخامسة: وجود القابلية في المادة للبقاء والإبقاء دون انعدام.

السادسة: لا يوجد مانع عقلي أو تكويني من إعادة الأشياء بعد فنائها.

المفردة الثالثة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

بالضمير (هو) عرف المبدئ والمعيد، وأنّ البدء والإعادة نوع خلق وإيجاد، والخالق لا يكون كذلك إلّا إذا كان قادراً وعالماً بالخلق والمخلوق، والخلق إن أريد به المصدر دل على كيفية الإيجاد في الأشياء، وإن أريد به اسم المفعول دل على علمه بكل مخلوق، ولا فرق بينهما من حيث الأثر؛ للملازمة بين العلم بالخلق والعلم بالمخلوق وبالعكس؛ لوضوح أنّ العلم بالخلق لا يعقل بدون العلم بالمخلوق.

فالقدرة والعلم متلازمان في صفات الخالق، وكلاهما من صفات الذات التي يستحيل انفكاك الذات عنهما، وأما في غيره فهما قابلان للانفكاك؛ إذ يمكن للإنسان أنْ يكون قادراً غير عالمٍ، أو عالِماً غير قادر، ولا يجتمعان بالضرورة، ويمتنع انفكاكهما إلّا في الخالق تبارك وتعالى.

ومعلوم أنّ بدء الخلق يتوقف على العلم والقدرة كما عرفت من أنه يجمع أجزاءه المتفرقة في الأصلاب من التراب والأشجار والأطعمة والأشربة، كذلك في الإعادة يجمع أجزاءه المتفرقة أينما تكون، وربما يقال لماذا اكتفى بذكر وصف العلم دون القدرة؟

والجواب: لعلَّه لأسباب ثلاثة:

الأول: لأن قوله تعالى: ﴿**يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[1] دال على القدرة بالضرورة.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

الثاني: لأنه في مقام دفع شبهة استحالة جمع الأجزاء المتفرقة التي صارت في وجودات أخرى، فإن الجمع لا يمكن بالقدرة وحدها، بل لابد من وجود العلم أين صارت وفي أي مكان هي، فالغرض لا يتحقق إلّا بوصف العلم.

الثالث: تنبيه الإنسان إلى أنّ في المعاد حساباً وكتاباً وجزاءً وعقاباً، وأنّ كل ما يفعله ويقوم به من أفعال أو يعتقده من معتقدات مهما تفرَّقت وتنوَّعت هي تحت حيطة علمه، كما أنّ أجزاءه المتفرقة تحت حيطة علمه، فلابد وأن يجعل نفسه رقيبة عليه.

ويتحصل: أنّ الآية المباركة أجابت عن أهم الشبهات التي تدور في أذهان المُنكرين للمعاد بجواب منطقي بديهي قائم على وحدة القانون والسببية في بدء الخلق وإعادته، فإنكار المعاد يكون من قبيل إنكار الأمر البديهي؛ لأن الإعادة أهون من البدء، وهذا ما تضافر بل تواتر معناه في الآيات والروايات، ففي رواية الإمام العسكري عليه السلام عن الصادق عليه السلام في معنى الآية: ﴿أفيعجز من إبتدأ به لا من شيء أنْ يعيده بعد أن يَبلى؟ بل ابتداؤه أصعب عندكم من إعادته﴾(١).

وفي رواية الكليني بسنده عن أبي حمزة قال: سمعت عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: ﴿عجب كل العجب لِمَن أنكر الموت وهو يرى مَن

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٥٢٧، ح٣٢٢؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤٠٤، ح٤؛ الاحتجاج: ج١، ص١٥؛ البحار: ج٩، ص٢٥٦، ح١.

يموت كل يوم وليلة، والعجب كل العجب لِمَن أنكرَ النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى»[١].

وفي الاحتجاج في احتجاج أبي عبد الله عليه السلام مع مُنكري المعاد سأله المُنكِر: أفتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟

قال: «بل هو باق إلى وقت يُنفَخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى، فلا حسّ ولا محسوس، ثم أُعيدت الأشياء كما بدأها مُدبِّرُها، وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق، وذلك بين النفختين. قال: وأنّى له بالبعث والبدن قد بلي، والأعضاء قد تفرَّقت، فعضو ببلدة يأكله سباعها، وعضو بأخرى تُمزِّقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط؟ قال: إنّ الذي أنشأه من غير شيء وصوَّره على غير مثال كان سَبَقَ إليه قادر أنْ يُعيده كما بدأه. قال: أوضِح لي ذلك. قال: إنّ الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خُلِق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزَّقته كل ذلك في التراب محفوظ عند مَن لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وأنّ تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مُطِرَت الأرض مَطَرَ النشور، فتربو الأرض، ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٥٨، ح٢٨؛ منتقى الجمان: ج١، ص٣٢٣.

إلى قالبه، فينتقل بإذن الله تعالى القادر إلى حيث الروح، فتعود الصُوَر بإذن المصوِّر كهيئتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً﴾[١] وتضمَّنت دلالات هامة:

منها: أنّ الإنسان بعد الموت لا ينعدم بل يبقى إلى وقت نفخ الصور، فتبطل صغرى استحالة اعادة المعدوم التي ادعاها الحكماء، وبنوها على أنّ الموت انعدام فما يُعْدَم هو الصورة.

ومنها: أنّ ما يتفرق من أجزاء بدن الإنسان في الحيوانات تلقيه بنحو وبآخر فيحفظ في التراب.

ومنها: أنّ أبدان الروحانيين وهم المؤمنون الصالحون يتميزون في التراب بعلو المعدن وجلاء العنصر كالذهب في التراب، وفي ذلك دلالة إما على الحفاظ على أبدانهم في ترابهم فلا تأكلهم الأرض، وهو ما تضافر في الأخبار لاسيَّما أبدان الأنبياء والأئمة والأولياء[٢]، أو الحفاظ على أصول البدن في التراب في جوهر مضيء كما يحفظ الذهب، وهذا ما تشهد له بعض النصوص بأنّ خلايا البدن تتأثر بواقع الروح، فإنْ كانت مؤمنة كانت خلاياه منيرة.

ومنها: أن العنصر النوري لأبدان المؤمنين يتميز إذا مُطِرت الأرض استعداداً للحشر، ويتم تكوين البدن بجمع عناصره، وتتكون صورته

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٩٧.
(٢) انظر الفقيه: ج١، ص١٩١، ح٥٨١، ح٥٨٢.

الأصلية، ثم تعود الروح إلى الأبدان، وهذه ذات المراحل التي بدئ بها خلق الإنسان؛ إذ يتكون البدن أولاً، ثم صورته، ثم تنفخ فيه الروح، وهذه الحقيقة ممّا تضافرت عليها الشواهد الوجدانية والحسية والعقلية.

أما الأول: فبمثل المهندس الذي صنع الجهاز أول مرة فإنه يقدر على إعادته إذا تفرَّقت أجزاؤه، وإذا صح هذا في القادر العاجز والقدرات المحدودة صح في القدرة غير المحدودة والقادر المطلق.

وأما الثاني: فبمثل المغناطيس، فإنه إذا وضع في مكان يجمع كل العناصر الحديدية مهما صغرت وكانت كالذرات ويجذبها عنده، ومثله يمكن أن يكون جمع الأعضاء المتفرِّقة من أبدان البشر.

وأما الثالث: فحكم العقل بأن القدرة على الإنشاء قدرة على الإعادة؛ لوحدة القانون والقادر والمقدور، وحُكم الأمثال واحد.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: للإحياء ثلاث دلائل

في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾(١) أشار إلى استمرارية الإحياء وعدم توقفه في زمان أو مرحلة، وفي ذلك ثلاث دلائل هامة:

الأولى: دوام الفيض الإلهي على العباد، فلا ينقطع فيضه عنهم أبداً، وإلّا فنوا ولم يبقوا، فليس في فعل الله تعالى توقف أو تعطيل، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٢) واليوم يطلق على أي مدة من الزمن وإن قصرت(٣)، خصوصاً إذا تضمنت حدوث أمر عظيم(٤)، وحيث إنه سبحانه مجرد عن الزمان فإنّ إطلاق اليوم يكون باعتبار عالَم الإمكان أو ما يشمل العالَمَين معاً، فيحمل على الحال، والمعنى كل حال.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩٤، (يوم).

(٤) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٧٢، (يوم)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٦٧، (يوم).

والشأن كل أمر يهم المخلوقات، والمعنى أنه سبحانه في كل حال في شأن من شؤون رحمانيته وفياضيته وربوبيته لخلقه، والسر فيه هو استمرار السؤال والحاجة، فإنّ كل محتاج سائل كما في الرواية[١] أعمّ من سؤال الحال أو سؤال المقال.

وقد قرر المتكلمون أن علّة الحاجة هو الإمكان، والحكماء قرروها بالفقر، ولا فرق من حيث الأثر، فإن دوام الحاجة يُعيِّن دوام السؤال، وهو يقتضي دوام الإجابة بالعطاء؛ لأنه كتب على نفسه الرحمة، ولا يمنع رحمته أحداً من عباده في الإحداث أو في دوامه وبقائه، وهو ما نصت عليه الأخبار.

فقد ورد عنهم عليهم السلام: «أنّ الرب لينظر إلى عباده كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويُذلّ، ويفعل ما يشاء، ويغفر ذنباً، ويُفرِّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»[٢].

وفي الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه؛ لأنه كل يوم هو في شأن من إحداثِ بديعٍ لم يكن»[٣] فالخالق عزّ وجلّ في رحمة دائمة وفياضية لا تنقطع أبداً مادام الخلق فقيراً محتاجاً، فإحداث العالَم وتدبيره كله تحت أمره وإرادته وولايته وقيّوميته

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٦٣؛ البحار: ج٥٤، ص٦١، ح٣١؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٥٨٥، (يوم).

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٨؛ تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص٢١٦، ح٢٨.

(٣) الكافي: ج١، ص١٤١، ح٧؛ وانظر التوحيد: ص٣١.

سبحانه، وبذلك تبطل شبهة المُعطِّلة من اليهود وغيرهم الذين ذهبوا إلى أنه سبحانه خلق العالَمَ وتركه لحاله[1].

الثانية: إن المُحدِث للأحياء والمبقي لها واحد، فكذلك المعيد لها، وهو ما تعارف في اصطلاح المعقول التعبير عنه بأن العلّة المُحدِثَة هي المُبقية مع المسامحة في التعبير بالعلّة، وبذلك تبطل شبهة الطبيعيين الذين ذهبوا إلى أنّ حدوث العالَمَ صدفة ودوامه بالقوانين والأنظمة الحاكمة فيه، فإنّ ذلك كله من التناقض؛ لامتناع الصدفة وامتناع النظم والدوام دون سبب منظم قادر عالم وحكيم.

الثالثة: أنّ الإحياء عبارة عن تبدل صور الحي في كل لحظة وآن في نشأت مختلفة.

اللطيفة الثانية: شبهة الملحدين في الإمكان الوقوعي

قوله: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[2] يدل على أنّ الشبهة التي حصلت لدى المُنكرين ليست في الإمكان الذاتي بل الوقوعي؛ لأنهم استبعدوا وجود القدرة على جمع الأجزاء المتفرقة المتناثرة، ومنشأ الشبهة هو الغفلة عن عموم قدرة القادر وعدم المانع في المقدور، وإن الذي جمع المتفرق وكوَّنهُ إنساناً في الإنشاء هو قادر على جمعه مرة أخرى في الإعادة، ومع أنّ هذه القضية واضحة لا ينبغي أن يختلف عليها اثنان؛ لأن كل

---

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٦، ص١٢٨.

(٢) سورة يس: الآية ٧٩.

صانع إذا قدر على الصنع أول مرة هو قادر على الصنع في المرة الأخرى، لكن الشبهة تنشأ من الغفلة، وأكثر الشبهات في البديهيات تحصل بسبب الغفلة عن بعض جوانب القضية.

اللطيفة الثالثة: بين الإنشاء والخلق

إنّ الآية المباركة عبّرت عن ابتداء الخلق بالإنشاء بينما في الجملة التي تليها عبّرت بالخلق فقالت: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[١] ولعلّ السبب يعود إلى أنّ الخلق الأول إبداعي وهو إحداثي من العدم إلى الوجود فمن المناسب ان يعبر عنه بالإنشاء؛ لأنه تأسيس للموجود، بخلاف الخلق فإنه يتصوَّر في تصيير الشيء بعد وجوده شيئاً آخر، فالخلق صنع للموجود من موجود آخر. أما الإنشاء إيجاد للشيء بعد أن لم يكن موجوداً، ولعلّ من هنا لم يعبِّر الباري عن التأسيس في الإيجاد بل بالإرادة. قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[٢] لأن الإيجاد إبداعي لا عن وجود سابق ولا مثال.

وفي اللغة عرِّف الخلق بالتقدير[٣]، وهو لا يكون إلّا في الموجود ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء[٤]، والأصل حمل

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٢٢٤، (٨٧٤)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣١١، (خلق)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٥٢، (خلق).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٦، (خلق).

اللفظ على الحقيقة على أنّ الغالب في التنزيل العزيز هو الأول، خصوصاً ما يتعلق بخلق الإنسان. قال سبحانه: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾[1] وقال : ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ**﴾[2] و: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ**﴾[3].

والخلاصة: أنّ البدء حيث كان إبداعياً عبَّر عنه بالإنشاء، والإعادة حيث إنها تركيبية عبَّر عنها بالخلق.

اللطيفة الرابعة: بين الإنشاء والعلم

إنّ الآية المباركة عبَّرت عن الإيجاد بالإنشاء وأما في الإعادة بالعلم، ولعلّ السبب يعود إلى أنّ الإنشاء يتوقف على القدرة؛ لأنه إحداث وإيجاد من العدم وإن كانت القدرة الإلهية لا تفارق العلم، بل هي عينه، ولكن التأثير لجهة القدرة لا لجهة العلم، ولذا يعبِّر الباري عزّ وجل عن إيجاد الأشياء بالإرادة، ولم يعبِّر بالعلم، وأما الإعادة فتتوقف على العلم والقدرة؛ لأنّ فيه جمعاً للمتفرق، وهو يتوقف على العلم بالأجزاء ومحالها ومواضعها، والقدرة على جمعها، وهذا أمر مهم يكشف عن أنّ الفعل الإلهي يصدر عن الجهات المناسبة من الصفات.

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) سورة النحل: الآية ٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٢.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: يجب رد الشبهة العقدية

إنّ الشبهات يجب ردها خصوصاً العقدية منها حتى وإن كان مثيرها شخصاً واحداً كما ورد في شأن نزول الآية، وهذا جواب عقلي وشرعي. أما عقلي فلأن به حماية العقيدة والدفاع عن الحق، وأما شرعي فللأمر في قوله تعالى: (قل) وقد مرَّ أنّ الخطابات القرآنية لا تتحدد بزمان أو مكان أو أشخاص، والأحداث المنقولة منها هي دواعٍ للنزول وليست أسباباً تحصر الدلالة بها، وعلى هذا يتعين على المؤمنين التصدي للدفاع عن العقيدة الحقة بثلاثة أمور:

الأول: التحصين الذاتي ضد الانحرافات والشبهات التي يثيرها الخصوم أو ضعاف الإيمان عبر دراسة العقيدة عن علم وبرهان وإيمان واعٍ، أو الحضور عند العلماء الربانيين لعرض عقيدتهم عليهم، أو أخذ عقيدتهم منهم، وهذا ما قرره الفقهاء بعدم تجويزهم التقليد في أصول الدين، وأوجبوا على المكلفين تحصيل العقيدة عن دليل - ولو عبر شرح الدليل من قبل العالِم لهم - فعدم التقليد لا يعني أن يشرِّق الإنسان ويُغرِّب في عقيدته، بل يجب أن يعتقد عن دليل ولو عبر استعلامه من العلماء.

الثاني: التصدي الفردي لرد الشبهات؛ لأنه من مصاديق الدعوة إلى الحق وإرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية المباركة توصي بوجوب تحمُّل هذه المسؤولية، ولو كان المتصدي واحداً فلا ينبغي أنْ ييأس أو يفتر عزمه لأنه واحد.

الثالث: التصدي الجماعي بتكوين مدارس أو معاهد أو مراكز أبحاث ودراسات ووسائل إعلام تتصدى لرد الشبهات وتعزيز الإيمان في القلوب، وهذه مهمة القادة قبل غيرهم، وإنْ كانت في بادئها من الواجبات العينية إلّا إذا تصدَّى مَن فيه الكفاية لتكوين ذلك فإنه يسقط عن الباقين.

التعليم الثاني: حياة القلوب بيده سبحانه

إنّ الآية المباركة أشارت إلى أنّ الباري عزّ وجلّ هو محيي العظام الرميمة، وهو المعيد لخلق الأجساد وحشرها، فكذلك حياة الأرواح والقلوب والعقول تكون بيده، وتضافرت الأدلة والتجارب على أنّ الروح كالبدن تصاب بالتعب والمرض وسوء المزاج، وأنّ القلوب تظلم وتقسو، والعقول تتبلَّد وتجمد، ولو تعبت الأرواح أصيب الإنسان بالكآبة واليأس، ولو أظلمَ القلب ضلَّ ضلالاً بعيداً، ولو تبلَّد العقل صار الإنسان بلا فكر ولا تفكر، وكل ذلك يجعله ركاماً من التراب وقالباً من طين؛ لأن الإنسان بإنسانيته، وإنسانيته بروحه وقلبه وعقله لا بجسده ولباسه وطعامه ومسكنه ومنصبه وأمواله؛ لذا يجب على الإنسان أن يلتفت كما أنّ بدنه يحتاج إلى علاج وشفاء وتوازن في المزاج وسلامة من العيوب والنواقص كذلك باطنه بمكوناته الثلاثة.

وسلامة البدن وحياته بيد الله، وكذلك سلامة روحه وقلبه وعقله، وسلامة البدن يحييها الباري عزّ وجلّ بالأحكام الشرعية، وسلامة الروح بالأخلاق والتقوى، ولذا أشارت الآيات إلى أنّ البشر قسمان أحياء وأموات، ولا يراد بذلك أحياء الأبدان وأمواتها، بل القلوب والأرواح، ويتميز الحي عن الميت بالدرجات والحياة الطيبة؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ**﴾[١] ولو سأل سائل بماذا لا يستوون إن كان بحياة الأبدان كان ذلك من توضيح الواضح الذي لا يناسب حكمة الحكيم، فلابد وأن يكون بمعنى أعمق وهو حياة الأرواح، فإنّ الميت مَن ماتت روحه وضميره وإنسانيته، والحي من حييت به.

وقد وصف الباري عزّ وجلّ الحي بروحه بأنه يملك نوراً يمشي به في الناس، والميت الذي يعيش في ظلمات مدلهمة تطوقه لا يخرج منها. قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾[٢] وقد تضافرت الأخبار أنّ حياة أرواح المؤمنين ونورهم هي معرفة النبي والأئمة عليهم السلام والائتمام بهم والولاية لهم، فالذي لا يعرف الإمام الإلهي أو يقتدي بغيره فإنه في الظلمات[٣].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٣) انظر الكافي: ج١، ص١٨٥، ح١٣؛ تفسير العياشي: ج١، ص٣٧٥، ح٨٩ – ح٩٠؛ تفسير القمي: ج١، ص٢١٥.

ومَن امتلك هذا النور كان مؤمناً، والمؤمن يعمل الصالحات، ومَن كان مؤمناً ويعمل الصالحات كانت حياته طيبة؛ إذ قال سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[1] والحياة الطيّبة التي تستلذُّها النفس وحواسها[2]، وهي في كل شيء بحسبه، ففي الطعام ما لذَّ طعمه وصفا أصله وكان حلالاً، وكذا في طعام الروح، والحياة الطيبة الخالية من المنغصات والكدورات والآفات، ولا يقال إنّ ذلك ممتنع في الحياة الدنيا؛ لأنها مجبولة على المكاره وقائمة على الاختبار والابتلاء.

فالجواب: ذلك تام في نفسه إلّا أنّ طيب الحياة يكون بالمَلَكَات النفسية العالية، فإنّ المؤمن قنوع فلا يوجعه الفقر أو قلَّة النصيب، وصبور فلا يؤذيه المرض، وحليم فلا تنغِّصه المصيبة، وصافي القلب فلا تكدِّر حياته الأحقاد والحسد، فإنّ من عاش حياته قنوعاً صابراً حليماً مطمئن القلب والروح عاش سعيداً، وبعكسه يكون تعيساً وإن امتلأت خزائنه بالأموال، وذاعَ صيته بالشهرة، فإنّ السعادة والشقاء روحيان.

ومن هنا يجب أن يسأل الإنسان نفسه دائماً هل حياتي طيّبة أم ليست طيّبة؟ وماذا يجب أنْ أفعل حتى تكون طيّبة؟ فإذا شعر أنها ليست على ما يرام فليعرف أنّ ملجأه إلى الله تعالى، وأنه كلما ابتعد عن الله تعالى زادت حياته تعاسة، وظروفه كدورة، وعاش المنغصات، وكلما اقترب من ربه

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٧، (طيب)؛ نفحات الرحمن: ج٣، ص٦١٢-٦١٣.

وأعطى شيئاً من وقته للصلاة إليه وذكره والدعاء وتلاوة كتابه واتّباع أوليائه واقتدى بهم كان سعيداً يعيش أطيب الأوقات وأسعدها.

التعليم الثالث: جملة من القواعد المنطقية

إنّ الآية المباركة تثبت صحة جملة من القواعد العلمية:

الأولى: أنّ الوقوع الخارجي ضابطة هامة في الصح والخطأ والنجاح والفشل، كما أثبتت صحة المعاد وأنه جسماني يتعلق بعود الأجساد ثانية وحشرها من قبورها، وهو أمر نظري عبر الوقوع السابق في النشأة الأولى، ومثله يقال في التجارب، فقد وصفتها الأخبار بأنّ فيها علماً مستأنفاً أي علماً جديداً يكتسبه الإنسان منها، وما يثبت بالتجربة يقرب الكثير من المفاهيم النظرية البعيدة عن الأذهان، كما أنه دليل عام يثبت للخواص والعوام، بخلاف البراهين، ولذا اشتهر القول بتقريب غير المحسوس بالمحسوس؛ لأنه أحد وسائل التعريف.

الثانية: أنّ العلم والقدرة هي العلّة المُحْدِثَة للعالَم، وهي العلّة المُبقية، وهي المعيدة، وهذه خصوصية العلّة الحقيقية. أما العلل الطبيعية وغيرها فهي ليست عللاً حقيقية بل أسباباً.

الثالثة: إثبات صحة القياس المنطقي الذي يستعمل في الأدلة والبراهين، ويقوم على صغرى حسية وكبرى عقلية ونتيجة. أما الصغرى أنّ الله سبحانه أنشأ العظام وأحياها أول مرة، والكبرى كل من أنشأها أولاً قادر على إحيائها، والنتيجة أنه قادر على إحيائها ثانية[1]، وبذلك تبطل الدعوات المانعة.

---

(١) انظر تفسير المراغي: ج٨، ص٣٨.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ
الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ

يس/ ٨٠

دلائل إيجاد النار من الشجر الأخضر

الآية المباركة عطف بدل على قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1] والغاية منه رفع شبهتين شبهة الاستحالة وشبهة الغرابة على فرض الإذعان لعدم الاستحالة، فإن إيجاد النار من الشجر الأخضر يتضمن أموراً:

الأول: بيان مصداق حسي للإيجاد والإحياء يتعلق بالنار يقرب الحقيقة المعقولة إلى الأذهان، ويجيب عن شبهة استحالة تعلق الأرواح بالأجزاء الترابية اليابسة والعظام النخرة بإرجاع الأمر إلى القدرة، وبيان أنّ النار كالأرواح يحصلان بالقدرة، فالذي يلاحظ نشوء النار من الشجر الأخضر لا ينبغي أن يستبعد نشوء الحياة من التراب؛ لأن المبدأ والقانون والسبب واحد في الاثنين.

وحكي أنّ بعض الكفار كانوا يقولون في بيان الفرق بين النشأة الأولى والآخرة بقبول الأولى دون الثانية أنّ النطفة حارة رطبة طبعها الحياة يصح إخراج الحياة منها. أما العظم فيابس طبعه الموت، فيستحيل أن تخرج منه الحياة، لأنهما متضادان، فضرب الله سبحانه لهم مثالاً حسياً يشتمل على ما ذكروه، فإنّ الشجر الأخضر رطب بالماء وأخرج منه الحار اليابس وهو النار، وكانت العرب تعتقد أنّ في كل شجر ناراً، وكانوا يوقدون من المرخ

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

والعفار وهما شجران في بواديهم، وهما ذكر وأنثى، والعفار الزند وهو الأعلى، والمرخ الزندة وهي الأسفل. تؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار[١]، ومثل الأعلى هو المرخ وهو الذكر، والأسفل العفار وهو أنثى[٢].

وفي تفسير القمي أنّ المرخ والعفار كل واحد منهما يوقد النار، فإذا أرادوا أن يستوقدوا أخذوا من ذلك الشجر، ثم أخذوا عوداً فحركوه فيه فيستوقدون منه النار[٣]، فيكون مثل عود الثقاب والكبريت.

ومعلوم أنّ القابلية الحاصلة في الشجر للاشتعال مودعة فيه، والذي يوقد النار ليست إرادة الإنسان بل مَن خلقها وسواها جعل لها ذلك كله، فكذلك في تكوين التراب وإحيائه؛ لأن القضية تتعلق بقدرة الخالق القادر، فلا معنى للاستبعاد والغرابة.

الثاني: بيان أنّ الغرابة إن كانت في جعل التراب بدناً وإحيائه بنفخ الروح فيه مع أنها مجرد إعادة للشيء إلى محله فالغرابة في إيجاد النار من الشجر الأخضر أكثر؛ لأنه إيجاد للشيء من ضده، فإنّ النار والرطوبة متضادان، ويستحيل اجتماعهما من نفسهما للنفرة الوجودية بينهما، فإنّ

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٥، ص٦٠؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٥٤.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٢؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٣؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٣-٤٦٤؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧٥؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٧.

(٣) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢١٨.

الرطوبة ماء وهو يُطفئ النار، والنار هي الأخرى تبخر الماء، لكن الباري عزّ وجلّ بقدرته يجمع بينهما حتى تصدر النار من الرطوبة، وفي ذلك دلالة على أنّ الاستحالة الوجودية تنشأ من عجز القادر، فإذا كان القادر مطلقاً لا يستحيل عليه أمر. نعم يشترط في ذلك أنْ يكون الأمر في نفسه ممكناً، وإذا كان في نفسه ممتنعاً مثل اجتماع النقيضين، أو جمع العالَم في كرة صغيرة، فإنّ ذلك في نفسه لا يكون، فإذا لا يفعله الباري ليس لعجز في قدرته بل لعجز المقدور، كما ورد أنّ المقدور لا يكون نظير رمي الريشة في الهواء، فإنه قد يملك الإنسان قدرة على رمي ما وزنه عشر كيلوات مسافة عشرين أو خمسين متراً، لكنه لا يستطيع أن يرمي ريشة أو ورقة صغيرة مسافة متر أو مترين، وعدم الاستطاعة هذه لم تنشأ من عجز الإنسان، بل لعجز الريشة أن ترمى بهذه المسافة.

وعليه فلا ينبغي أن يستغرب منكرو المعاد من إعادة التراب إلى بدن بشري وتكوين أجزائه وعظامه، ثم إحيائها؛ لأنها سابقاً كانت مجتمعة، وفي المعاد يعيد جمعها، فإنَّ في إيقاد النار من الشجر الأخضر ما هو أكثر غرابة؛ لأنها إيجاد الشيء من ضده، وحيث إنهم مصدقون بالنار لأنهم يشهدون نشأتها فيجب أنْ يصدقوا بمعادهم وحشرهم كذلك.

الثالث: تطبيق واقع حياة الشجر وموته على الإنسان، فإنّ الشجر الأخضر هو الرطب كما هو الظاهر منه عرفاً، فإنّ العرف يطلق على الرطب أخضر لملازمة خضار الشجر للرطوبة، والشجر مادام حيّاً يكون رطباً، فإذا مات جف ويبس واغبر لونه، ولو بقي أكثر في التراب نخر وتفتت،

وكذلك بدن الإنسان فإنّ ثلاثة أرباعه ماء، فإذا مات جف ويبس وتحلل، فبين عظام الإنسان والشجر تشابه من جهتين:

الأولى: أنّ الشجر قوامه بسيقانه وأعضائه ووجوده الشجري بها، كذلك الإنسان فإنه لولا العظام لما استقام ولا استوى قائماً وقاعداً وماشياً وراكضاً ومؤدياً لأفعاله.

الثانية: أنّ حياة الشجر وثماره بسيقانه وأغصانه، كذلك الإنسان، وفيه إشارة إلى أنّ عظام الإنسان حية وليست جامدة لا حياة فيها.

فكما أنه يوقد النار من الشجر الأخضر واليابس حينما يكون حطباً كذلك الإنسان ينشأ من النطفة ومن تراب القبر، فبين الشجر والإنسان دلالة على المعاد.

ويتحصل: أنّ أول دليل على إمكان الشيء ودفع استحالته وقوعه في الخارج، وقد ضرب الباري عزّ وجلّ لِما توهمه الملحدون بالمعاد بمثال حسي واقع لا ينكره أحد، وهو إيجاد النار من الشجر الأخضر، ومن قبل ضرب مثلاً لهم بإحياء الأرض الميتة وجعلها واحات وغابات ومزارع، والاثنان إيجاد وإحياء، فكذلك إحياء الموتى يكون كذلك، فالآية تقرِّب غير المحسوس بالمحسوس، وتبدِّل الحقيقة العقلية إلى حقيقة حسية مشهودة لا ينكرها أحد، وهذا المعنى روي عن الصادق عليه السلام[(١)]. هذا ما يستفاد من العطف في الآية، وأما ذات الآية فالبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٢٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٨٧، ح٨٩.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾

في الآية السابقة قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وفي هذه الآية قال: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾؛ لأن الجعل يتضمن دلالتين:

الأولى: إيجاد شيء من شيء آخر[2]، فهو خلق تركيبي لا إبداعي؛ لذا قال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3] ولم يقل أنشأنا أو خلقنا؛ لأنه خلق تركيب لا إبداع.

الثانية: تصيير الشيء شيئاً آخر، وكلاهما متحققان في الإيقاد؛ لأنه تركيبي ناتج عن عنصرين، وفي عين الحال يتحول فيه الشيء إلى شيء آخر كتحوّل السائل إلى نار، والعود إلى فحم.

فهو أخص من الخلق، و(الذي) اسم موصول يعود على الخالق عزّ وجلّ يشير إلى الفاعل البعيد للتنزيه أو لتجريد البحث وحصره بمناقشة الفكرة بغض النظر عن مصدرها.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٧، (جعل).
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وقوله: ﴿لكم﴾ يفيد الغاية، وتتضمن دلالتين:

الأولى: بيان أنّ غاية إيقاد النار هم البشر لأجل أنْ ينتفع بها عموم الناس المؤمنون منهم والكفار، فلولاهم لم يجعلها.

الثانية: بيان محبة الله سبحانه ولطفه بعباده بما في ذلك الكفار المعاندون منهم؛ إذ خلق لهم ما ينفعهم وهي النار، ولولاها لماتوا من الجوع أو من البرد، فإنّ حياة البشر متوقفة على النار، فكذلك حينما يدعوهم إلى الإيمان والإذعان لخصائصه من الاعتقاد بالمعاد والإعداد له فإنه لأجل نفعهم؛ إذ لا يريد الخالق لعباده إلّا الخير والصلاح والسعادة، ولولا ذلك لم يخلقهم، وبهذا يجيب عن شبهتين كانتا ولا زالتا مثار بحث:

الأولى: ما هو سبب وجودنا.

والثانية: لماذا يوجب علينا الخالق الإيمان والالتزام بالدين وأحكامه.

والجواب: عن الأول أنه أوجد الخلق لأنه يحب خلقه، والكريم القادر الرحيم إذا أحب شيئاً أوجده، ولو لم يوجد لكان نقصاً والعياذ بالله، وقد تضافر في الآيات والروايات أنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة، ومن مقتضى رحمته بعباده أن يعطيهم الوجود والحياة؛ لأن الوجود خير لهم من العدم، وعن الثاني أنه يوجب عليهم ذلك ويحاسبهم إذا خالفوا؛ لأنه يريد لهم الصلاح والسعادة والانتفاع من خيرات الوجود؛ لذا لم يمنعهم من شيء، ولم يحرمهم من نعَمِهِ، وإنما قنَّن لهم الاستفادة من النِعَم بالطريقة الصحيحة التي ينالون بها خيرهم وارتقاءهم ولا يرتكبون القبائح والموبقات، والبحث في هذا مفصل نوكله لمحله.

المفردة الثانية: ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾

الشجر في اللغة يُطلَق على التداخل بين شيئين أو أكثر الملازم للعلوّ والارتفاع، وأطلق على ما له ساق من النبات شجر لتداخل أغصانه وارتفاعها، ولذا لا يسمى العشب شجراً لعدم ارتفاعه، ويقال للنزاع بين شخصين أو جماعتين شجار لتداخل كلامهم ببعضه وعلوه وارتفاعه(١)، وأطلق الشجر على النار لهذين السببين؛ إذ تحصل من تداخل شيئين وأكثر وترتفع منهما.

وعلى هذا فإنَّ قوله: ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: المفهوم، وهو كل ما يتداخل ببعضه ويولد ناراً مرتفعة، فيكون المراد بالأخضر اللون، وهو وصف للنار؛ لأن النار أول ما تنقدح تكون قليلة ولونها أخضر أو أزرق يميل إلى الخضرة، فإذا اشتدت صارت صفراء، ثم حمراء، وإذا اشتدت صارت زرقاء، وقيل إنّ الخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب، فلهذا سمي الأسود، أخضر والأخضر أسود وقيل سواد العراق للموضع الذي تكثر فيه الخضرة(٢).

الثاني: المصداق، وهو النبات الأخضر أي الرطب، والثاني أظهر وأوفق بغرض الآية، ولا تنافي بين المعنيين؛ لأن منشأ الاشتعال واحد، وربما يمثل

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٥٢٧، (شجر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٣٤٣، (شجر)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٧٣، (شجر).

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٢؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠٠؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٦.

له بوجود المادة الكبريتية القابلة للاشتعال في كل مشتعل، ولعلّ استخدام العرب المرخ والعفار لوجود المادة فيهما، ولكن من الواضح أنّ قابلية الاشتعال لا تنحصر بهما وإنْ كانت بعض الأشجار أسرع في الاشتعال أو أكثر قابلية على الاشتعال من غيرها، بل إن جميع الأجسام والأشجار لها قابلية توليد النار إذا توفرت العناصر اللازمة كالاحتكاك المتواصل مثلاً، وهذا أحد أسباب تولد الحرائق الهائلة في الغابات، فإنه في الغالب لا يُعْرَف لها سبب، وذهبت بعض التحقيقات إلى أنّ السبب هو حصول الاحتكاك الشديد بين أغصان الأشجار بسبب الرياح فتولد ناراً تلقيها الرياح هنا وهناك فتلتهم الأخضر واليابس في الغابة(١).

نعم حكي عن البعض أنّ شجر العناب لا تنقدح فيه النار(٢)، والنار عنصر طبيعي فعّال يمثله النور والحرارة المحرقة، وتطلق على اللهب المشتعل للملازمة بينهما(٣)، وإنما خص النار بالذكر لسببين:

الأول: أنّ دلالتها حسية مشهودة لا تخفى حتى على الأعمى، لأنها تدرك بواسطة حاستي البصر واللمس، وأجلى شيء للعيون النور، وأجلى شيء للمس الحرارة، فالذي لا يبصر النار يحسها فتكون شهادة حسية عامة.

---

(١) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨١.

(٢) روح البيان: ج٧، ص٤٣٦.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٦، (نور)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٦١، (نار)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٨، (نور).

والثاني: لأن حياة الإنسان تتقوم بالنار، فلولا النار لما أكل ولا شرب كما يشهد له الوجدان والواقع، بل إنّ قوام الحياة الأرضية بالشمس، والشمس تتقوم بالنار، فالتمثيل بها أدعى لإثارتهم وإلفاتهم إلى النظر فيها؛ لأن طبع البشر يهتم لما يهمه، ويهمل ما لا يهمه.

المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

فإذا للمفاجأة؛ لأن النار تحدث دفعة وملازمة للحرارة والضياء، و(أنتم) ضمير عام يشمل جميع البشر إلّا أنّ المقصود به أولاً هم منكرو المعاد ﴿مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ بصيغة الفعل المبني للمعلوم، والمضارع يدل على أنّ فاعل الإيقاد هو الإنسان على الدوام والاستمرار، وأنّ المنتفع منها هو نفسه وباختياره وبحسب حاجاته، و(من) في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ نشوية أي من الشجر الأخضر تستخرجون النار، فإنكم على عجزكم تستخرجون من الضد ضده؛ لأن الله سبحانه قدَّرَ ذلك، ولذا ضرب به المثل؛ لأن الإيقاد فعل لا يتحقق إلاّ بتوفُّر أربعة عناصر هي الموقِد والموقَد وهو الحطب ونحوه والموقَد عليه وزوال المانع، وهو جمع للمتفرقات في فعل واحد، والمعاد كذلك.

والإيقاد إحياء للحطب فيكون علامة على الإحياء والنشر ودليلاً على المعاد.

وتوضيح ذلك: أنّ إحياء كل شيء يكون بإظهار منافعه وخصائصه، فإحياء الدار بسكناه، وإحياء المسجد بالصلاة فيه، وليالي الإحياء لاستثمار

منافعها بالعبادة، والحي يقابل الميت؛ لأن خصائصه ومنافعه تظهر، وهكذا إيقاد الحطب هو حياته؛ لأن به يظهر نفعه، فيشير إلى أنّ الإحياء للنار هو إظهار خصائص الناس من أعمالهم وملكاتهم، وكل ينال جزاءه، وفي عين الحال إظهار خصائص التراب الذي كانوا مودعين فيه بعد أنْ كان ميتاً بحسب ظاهر حاله، وقد مرَّ أنّ الروحانيين كالذهب في التراب، وغيرهم عكس ذلك، وفي ذلك دلالة على عمق الدلالة القرآنية ولطف معانيها وإشاراتها.

ولو سأل سائل من أين عرف الناس الإيقاد من الشجر؟

والجواب من التجارب والمشاهدات الحسية، أو هو من الإلهام الإلهي للبشر، أو بتعليم الأنبياء، والأول أظهر، ولا تنافي بين المعاني الثلاثة لأنها جميعاً متلازمة.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: دلائل بعث النار على المعاد

إنّ بعث النار من الشجر الأخضر يتضمّن عدة دلالات:

الأولى: أنّ الحياة كامنة في الأشياء ولو بنحو الاستعداد الاقتضائي، والحرارة والنار كذلك لكنهما يظهران عند اجتماع الأسباب؛ إذ لولا توفّر الاستعداد والقابلية لا تظهر خصائص الأشياء، وإلّا لزم اختلاط الخصائص أو صدور كل خصّيصة من كل شيء، لكن الوجدان يكذبه، فإن خصوصية الماء إرواء العطش، وخصوصية النور الكشف والإضاءة، وخصوصية التراب الإنبات، ولو لاحظنا سائلاً آخر يروي العطش كاللبن مثلاً، ولاحظنا الفسفور مشعاً، والرمل ينبت الزرع، فإنّ ذلك يعود إلى وجود العنصر المشترك بين الماء واللبن والنور والفسفور والتراب والرمل الذي يحمل القابلية، ولولاه لم يشتركا في الأثر، ولذا لا نرى أنّ الماء يشع والنور يروي العطش ولا ينبت الزرع لعدم وجود القابلية.

ووجود النار في الشجر ناشئة من القابلية، فإذا توفرت الأسباب ظهرت، وكذلك وجود الحياة في التراب فإنها كامنة فيه؛ لذا ينبت النبات، وإذا توفرت الأسباب ظهرت، وهكذا يكون بعث الأبدان من قبورها.

وربما يستفاد من الأدلة أنّ منشأ الحياة من التراب، فكل المخلوقات منشؤها التراب، فالشجر أصله تراب والحيوان والإنسان وكذلك إبليس الذي كان يتعالى في خلقه ويتصور أنه أشرف من آدم بدعوى أنه مخلوق من نار فإن منشأه التراب، وهذا ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم عن الصادقعليه السلام: إذ قال لإسحاق بن حريز: «أي شيء يقول أصحابك في قول إبليس: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[(١)]» قلت: جعلت فداك قد قال ذلك وذكره الله في كتابه. قال: «كذب إبليس لعنه الله يا إسحاق ما خَلَقَهُ إلّا من طين» ثم قال: «قال الله: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾[(٢)] خلقهُ الله من تلك النار، والنار من تلك الشجرة، والشجرة أصلها من طين»[(٣)].

ومن ذلك يتضح لماذا خلق الله سبحانه الأشياء من التراب، ويتّضح أنّ كل الموجودات الأرضية المصنوعة من التراب لها قابلية الحياة كما لها قابلية الحرارة والنار وإن بدت في العين غير قابلة، لكن الحياة كامنة فيها، وتظهر عند اجتماع أسبابها، وبهذا تندفع الغرابة والاستبعاد من عودة الحياة من القبور من جديد.

الثانية: أنّ تحلل الأبدان في التراب وكذا الأشجار والحيوانات لا ينفي عنها الحياة لبقاء مرتبة من مراتب الحياة فيها، ولذا تنبت الأرض

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢.

(٢) سورة يس: الآية ٨٠.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٤-٢٤٥.

دائماً، وتتولد الكائنات الحية من ترابها، وكذلك تتكوَّن نُطَف الإنسان ثم تولد من جديد، ولعلّ هذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1] فالتحلل والاجتماع والتولد مستمر ودائب في كل يوم، سوى أنه قبل يوم القيامة يولد بحسب الأسباب الطبيعية التي قررها الباري، وأما في المعاد فتنمو وتتولَّد بأمر الله وإرادته المباشرة، فتطوى المراحل الاستعدادية بفترة أسرع، ويبعث الناس من قبورهم كباراً فيولدون من رحم التراب لا من أرحام أمهاتهم.

الثالثة: أنّ صدور النار من الأجزاء المتفرقة لا يكون إلّا إذا اجتمعت، فيطابق سنة تكوُّن الأبدان الحية من الأجزاء المتفرقة، فصدور النار يتم من جمع المتفرقات وكذلك المعاد، فلا استحالة ولا غرابة في الأمر، فتنتفي شبهة الآكل والمأكول.

الرابعة: أنّ النار تلازم النور والإضاءة، وهي في تكونها تجمع العناصر المتفرقة، ولولاها لا تصدر، وقد ضرب الباري عزّ وجلّ بها المثل لمُنكري المعاد ليلفتهم إلى ضرورة التفكير والاستنتاج وظواهر الأشياء وآثارها؛ لأن الفكر البشري هكذا حتى يضيء لابد وأن يجمع المتفرقات، ويربط بعضها مع البعض الآخر، ولولا فهم خصائص الأشياء ووجه الترابط بينها لا يمكنه أن يستنتج النتائج الصحيحة.

وهكذا العقيدة بالمعاد، فإنها بعيدة عن الحسِّ ولا تُدْرَك إلّا بالعقل، إلّا أنّ الوصول إليها يجب أنْ يقوم على مقدمات حسيّة، وفهم العلاقة

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

المشتركة بينها للوصول إلى النتيجة، والمقدمات الحسيّة هي ملاحظة صدور النار من الشجر، والنبات من الأرض، وتولّد الإنسان من النطفة، فيتوصل من ذلك إلى أمور:

الأول: وحدة القانون المشترك بينها.

الثاني: وجود الفاعل المؤثر في ذلك.

الثالث: وحدة الفاعل لا تعدده؛ إذ لو تعدد الفاعل لزم الاضطراب والاختلال، فعدم الاختلال كاشف عن وحدة النظم، وهو الآخر كاشف عن وحدة المُنَظِّم.

فلو أدرك الإنسان هذه الحقائق الثلاث لابد وأنْ يؤمن بالمعاد؛ لأن القانون الحاكم في إحياء الأبدان هو ذاته الحاكم في إنبات الشجر وصدور النار وتولّدها.

اللطيفة الثانية: الباري يجعل الأشياء وقوانينها

﴿**مِنَ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾[(١)] تحتمل معاني:

الأول: التبعيضية، أي أن النار تتّقد من بعض الشجر لا من كله، ولو تم أفاد أنّ ليس جميع أجزاء الشجرة يولِّد النار، بل بعضها، وهذا يعرفه أهله.

الثاني: النشوية، فيدل على أنّ منشأ النار هو الشجر من أي جزء من أجزائها.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٠.

الثالث: السببية، فتكون بمعنى الباء، والمعنى توقدون بالشجر الأخضر كما احتمله البعض[(١)]، باعتبار أنّ تولد النار يتم بسبب الاحتكاك، فلولاه لا تتولد، والأول ضعيف، والثاني أظهر، ولا يتنافى مع الثالث؛ للملازمة بين المنشأ والسبب، ومن قوله: ﴿**جَعَلَ**﴾[(٢)] و: ﴿**أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾[(٣)] يستفاد أنّ الجعل من الله والإيقاد من البشر، وهذه قاعدة كلية تجري بها السنن الإلهية في الوجود البشري، وتقوم على ثلاثة أركان:

الأول: أنّ الباري عزّ وجلّ يجعل الأشياء ويوجدها ويعطيها خواصها وآثارها.

الثاني: أنه سبحانه جعل لها مفاتيح وقوانين الاستفادة والانتفاع بها.

الثالث: جعل للإنسان القدرة العقلية والعضلية للانتفاع بها بالمباشرة أو الواسطة، وهذا كله فعل الله سبحانه، وأما الإنسان فمهمته توظيف هذه القوانين واستثمار المنافع المودعة في الأشياء، فليس الإنسان هو المُوجِد ولا المُقنِّن ولا المهندس، بل هو المستثمر، وبهذا يتميز الناس ويتفاضلون ويرتقون، فإنّ من يبذل جهداً في اكتشاف هذه القوانين وتوظيفها يبلغ المدى الرفيع في التطور، ومن لا يبالي بذلك يتأخر، وهذه الميزة لا يفترق فيها المؤمن وغير المؤمن؛ لأنها قوانين تكوينية، فإذا اتَّبَع المجتمع غير المؤمن هذا النظام تطوَّر وارتقى، ولو أهملها المجتمع المؤمن تأخر، لأن القضية لا تتعلق بالإيمان والكفر بل تتعلق بالعلم والعمل.

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٣، هامش (١).

(٢) سورة يس: الآية ٨٠.

(٣) سورة يس: الآية ٨٠.

وبهذا يتضح وجه الجواب عن شبهة الذين يتصورون أنّ التأخر في بلاد العالَم الثالث ناشئ من تدينهم أو هويتهم الدينية، والتطور في البلاد الأخرى ناشئ من هويتهم، فإنّ هذا الفهم غير صحيح؛ لأن التطور والارتقاء ناشئ من مناهج التعليم والخطط الإدارية والسياسية العامة والمسؤولية الاجتماعية ومدى الاهتمام لمعرفة القوانين واستثمارها.

والباري عزّ وجلّ وعد المؤمنين به بأمرين:

الأول: أن تكون حياتهم طيّبة في الآخرة، ويكونوا من أهل الجنة، وهذا فضل إلهي بسبب الإيمان.

الثاني: أن تكون حياتهم طيّبة من جهة إيمانهم وسعادتهم الروحية، وهذا نتيجة طبيعية للالتزام، وأما التطور العلمي والحضاري فما وعدهم بذلك، بل جعل الدنيا دار منافسة واستباق، وقال سبحانه: ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾(١) لأن الدنيا تقوم على قانون الأسباب والمسببات لكي يتم بها التكامل والاكتمال، كما يتم الاختبار فيها، وهذه الحقيقة تدلنا عليها الآية؛ إذ أودع الباري عزّ وجلّ خصوصية الاشتعال في الشجر، وجعل لها قانوناً وهو الاحتكاك ونحوه، وأعطى الإنسان القدرة على الفعل وفهم هذا القانون، ثم ترك الاستثمار وهو فعل الإيقاد له، فإن فعله استثمر النار وانتفع بها، وإلّا حُرِمَ منها، والأمر ذاته يجري في الرزق وتحصيل العلم والتطور الصناعي والزراعي وسائر ما يتعلق بالحياة الدنيوية.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

اللطيفة الثالثة: مناشئ الحياة في المبدأ والمعاد

إنّ الآية المباركة تدل على أنّ الحياة الإنسانية في المبدأ والمعاد تقوم على ثلاثة مناشئ:

الأول: منشأ الوجود في المبدأ وهو النطفة.

الثاني: منشأ الدوام والبقاء وهو النار؛ إذ لولا النار مات الإنسان جوعاً، واستباحته الأمراض والعِلَل.

الثالث: منشأ العودة وهو النفخة، وجميعها فعل الله سوى أنّ الأول والثالث بيد الله وجوداً وأثراً، وأما الثاني فأصله من الله، وأمّا استثماره من الإنسان، ومنه يتضح لماذا صارت الدنيا دار اختبار وامتحان، فالوجود الإنساني أينما يكون وكيفما يكون أصله من الله، وعَوده إلى الله، وبينهما هو بحاجة إلى الله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**﴾(١) فلو أخذته المعاصي بعيداً عن الله فإنّ الله سبحانه لا يحرمه قوته ورزقه في حياته الدنيا، ولكن مرجعه إلى الله، فلو كان مع الله عاش حياة طيبة في دنياه وأخراه، وإلّا كان قد جنى على نفسه، وأوقع نفسه في العذاب، والمنكرون للمعاد فإنهم بسبب غفلتهم ينكرون، ولو رجعوا إلى أنفسهم والتفتوا إلى هذه الحقائق أنقذوا أنفسهم من هذا الجهل والضياع، وهذا أحد معاني العدل الإلهي.

---

(١) سورة فاطر: الآية١٥.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ضرورة الدلائل الحسية في الحوار

في المحاورات المتنوعة تكون الأدلة الحسية والوجدانية - لأنها تُقرِّب المعاني العميقة إلى الأذهان، ولا تقبل الإنكار أو الجحود - أقوى في التأثير، كما مثَّل الباري عزّ وجلّ للمعاد بصدور النار من الشجر الأخضر بعد أنْ أنكره المُنكرون لقصور عقولهم، واستغربه المعاندون لتكبرهم، وهو ما يقرّه المنطق العقلي؛ لأن الإنكار العقلي يقوم على ركنين هما الاستحالة الذاتية والاستحالة الوقوعية، فما يراه العقل منتهياً إلى أحدهما يمنعه ويحكم باستحالته، فإذا قام دليل حسي وجداني على الوقوع فإنه يبطلهما معاً؛ لأن الوقوع الخارجي دليل الإمكانين، ويكشف عن أنّ ما حَكَمَ به العقل لدى المنكرين مبني على مقدمات خاطئة فكانت نتائجه مثله.

والخلاصة: أنّ مُنكري المعاد استبعدوا صدور الحيّ من الميت لتوهّم وجود مضادة بين الموت والحياة، فجاءهم الباري بمثال حسّي وقوعي فيه صدور للضدِّ من ضدِّه وهو النار والشجر الأخضر، وهو جواب نقضي

يبطل مُدَّعاهم، ويتضمَّن جواباً حلياً يدفع الشبهة، وهو أنّ القضية تتعلق بقدرة القادر لا عجز المقدور، وهنا يتجلّى عمق القرآن الكريم في المحاورة وإبطال الدعاوى الباطلة، ويظهر فيها أثر الأدلة الحسية الوجدانية، كما يتضح السرّ في الحَثّ الشديد في الآيات والروايات على اكتساب الإيمان بالله عزّ وجلّ وتعميقه بواسطة النظر في آياته وآثار قدرته في الأشياء دون التفكر في ذاته، ولمّا لم يلتفت إلى ذلك الطبيعيون وبعض الحكماء وقعوا في هفوات كبيرة قادت بعضهم إلى الإلحاد.

التعليم الثاني: بطلان نظرية التوافي

إنّ الآية المباركة نَسَبَت الجعل إلى الله والإيقاد إلى البشر، فأثبتت قانون السببية والجعل الإلهي للقوانين والأنظمة واختيارية الإنسان في أفعاله، فأبطلت نظرية الأشاعرة القائلة بالتوافي والعادة[١]، ونظرية المعتزلة القائلة بالتفويض التام للإنسان؛ لأن ما يفعله الإنسان ليس كله من اختياره ولا كله من التفويض إليه، بل يشترك فيه فعل الله سبحانه في أصل الإيجاد والقوانين المودعة وفعل الإنسان في التوظيف والاستثمار، وهذا هو معنى الأمر بين الأمرين الذي قرره الأئمة الأطهار عليهم السلام[٢].

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٧٦.

(٢) الكافي: ج١، ص١٦٠، ح١٣؛ التوحيد: ص٢٠٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١١٤، ح١٧؛ الجواهر: ج٦، ص٥٤؛ الحاشية على أصول الكافي: ص٥٠٧.

التعليم الثالث: تشابه النار والأفكار

إنّ الإنسان والشجر متشابهان في الحياة والموت، وقد وصف الباري الإنسان بأنه نبات من الأرض، فكما أنّ الشجر الأخضر يحوي ناراً وتصدر منه النار فشجرة الإنسان الخضراء أي الحيّ تحوي ناراً وتصدر النار، وما تحتويه من نار يتعلق بمعتقداته وأفكاره ونواياه وسجاياه، فإنها إذا كانت أباطيل وقبائح تكون ناراً، وإذا ظهرت على أفعاله وأخلاقه صدرت منه النار، وكان مصيره النار.

وبعكس ذلك قد يحوي النور ويصدر النور، فإذا كانت اعتقاداته حقَّة وأفكاره سليمة ونواياه حسنة وأفعاله صالحة ملتزماً بأحكام الله سبحانه احتوى النور، وإذا ظهرت على أفعاله وأخلاقه أصدرت النور، وكان مصيره النور، والنار والنور متلازمان؛ لأن النار تلازم الإضاءة والحرارة والنار البشرية كذلك، والحرارة آثارها السلبية، والإضاءة آثارها الايجابية.

التعليم الرابع: العلوم تستثمر القوانين الإلهية

إنّ كل ما في الوجود هو فعل الله سبحانه إما مباشرةً أو بالواسطة حتى ما يتصوره الإنسان أنه فعله فإنه في جوهره فِعْلهُ سبحانه وليس الإنسان إلّا موجهاً ومستثمراً للقوانين والانتفاعات، وليس بموجِد لها، وحتى العلوم الحديثة كلها لا تخلق الأشياء وتوجدها وإنما تستثمر القوانين وتركب الأشياء مع بعضها، وبهذا يتضح الفرق بين فعل الله وفعل البشر، وبذلك تظهر عدة حقائق تربوية للإنسان:

الأولى: لا ينبغي أن يغترَّ الإنسان ويتكبَّر ويتجبَّر فيما عنده؛ لأنه لولا الله تعالى لم يكن شيئاً مذكوراً فضلاً عن أفعاله وآثاره.

الثانية: لا ينبغي أنْ يستغرب أو يستنكر لحوادث الوجود ووقائعه؛ لأن كل شيء من الله والله قادر على كل شيء.

الثالثة: أنّ على الإنسان أن يفوِّض أمره ويوكله إلى ربه لأنه يحبه ويكرمه، ولذا أوجده وأعطاه كل ما ينفعه في تكوينه، فلا يمكن أنْ يخذله أو يتركه للأقدار إذا لجأ إليه وتوكل عليه، ولذا ورد عن الصادق عليه السلام: «إن الغِنى والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[1] والبحث في هذا مفصل نوكله لمحله.

الرابعة: يجب أنْ يعرف الإنسان بأنّ سعادته ونفعه في إطاعة ربه والالتزام بمناهجه، فكما أنه أعطاه كل ما ينفعه تكويناً فإنه يعطيه كل ما ينفعه تشريعاً، فالكفر والعصيان وأفعال القبائح خروج عن النهج الإنساني.

التعليم الخامس: مدار العلاقات الإنسانية

يعلِّمنا الباري عزّ وجلّ من صدور النار من الماء أنّ العلاقات بين الأشياء لا ينبغي أن تقوم على المنافرة بل المواءمة، فالماء قد تصدر منه النار ولا يطفئها، وكذلك نحن يجب أن نسعى لأن نكسب الناس ونحتفظ بعلاقاتهم ونبادلهم المحبة والخدمة، ولا نجعل هذا صديقاً

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٥، ح٣؛ الوسائل: ج١٥، الباب ١١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٢١٢، ح٢٠٣٠٦؛ وانظر تحف العقول: ص٣٧٣.

وذاك عدواً فنباغضه أو نعاديه؛ لأن مَن نتصوَّر أنه ضدّنا يوماً ربما يقف لنا موقفاً ينفعنا أو ينجينا.

نعم يجب على الإنسان أن يضع مراتب للناس، فبعضهم أخ، وبعضهم صديق، وبعضهم زميل، وبعضهم دون ذلك، وتختلف مراتب المحبة والثقة والتعاون منهم، وشأن المؤمن محبة الجميع وخدمتهم بحسب اختلاف مراتبهم، وليس من شأن المؤمن العداوة والبغضاء مع الناس، فإن العدو الواحد كثير في معايير الإيمان والإنسانية كما تضافر في الأخبار[١].

(١) انظر الوسائل: ج١٢، الباب ٧ من أبواب أحكام العشرة، ص١٦، ح١٥٥٢٢؛ الأمالي (للصدوق): ص٧٦٦، ح١٠٣٢؛ الفصول المهمة: ج٣، ص٣٥٥، ح٣٠٩١.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

يس/ ٨١

إقرار الكفار بأمرين في العقيدة

الآية معطوفة على الآية السابقة لمكان الواو العاطفة ومتمِّمة للاستدلال على قدرته سبحانه على إحياء الموتى وبعثهم وحشرهم، وقد وردت بلسان الاستفهام التقريري، ويتضمَّن معنى الاستنكار أيضاً، وتضمَّنت جواباً نقضياً وحَليّاً مثبتاً لحقيقة ومبطلاً لشبهة، وهذا من عجائب البيان أن يتضمَّن النص دلالات كثيرة ومتعاكسة في الدلالة، فإنّ الاستفهام التقريري يراد به الإقرار بالمعنى، ومع الإقرار لا يبقى موضوع للاستنكار والذم، لكن في الآية وردا معاً، كما أنّ الدليل إما يكون مثبتاً للمطلوب أو مُبطِلاً لمخالفه لكنه في الآية تضمَّن الاثنين معاً، وقد جاءت الآية بلسان التقرير؛ لأنّ الكفار كانوا يقرون بأمرين:

الأول: أنّ السماوات والأرض مخلوقات وخالقها هو الله سبحانه، وكانوا يُصرِّحون بهذا، وإذا سُئِلوا عنها أجابوا بجواب المؤمنين يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[1] وقد ورد هذا المنطوق أو قريب منه جداً في آيات عديدة[2].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية٦١.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٥؛ الزمر: الآية ٣٨؛ الزخرف: الآيتان ٩ و ٨٧.

الثاني: أنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس يؤكده قوله تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(١) والعقل يقضي بأن مَن يُقرّ بأنّ الله خالق لِما هو أكبر وأعظم يجب أنْ يقرّ بما هو دونه وهو إحياء الإنسان بعد موته، فإنّ الإنسان هو جزء من منظومة السماوات والأرض وليس بخارج منها، والقادر على الكل قادر على الجزء بالضرورة ولكنهم غفلوا عن ذلك وأقرّوا بأنه سبحانه خلق السماوات والأرض ونفوا إمكان إحياء الإنسان بعد موته، وهذا مدعاة للاستنكار والذمّ، وأكبرية خلق السماوات والأرض من خلق الناس فيها معنيان:

الأول: الأكبرية الوجودية في الزمان والمكان؛ لأن السماوات والأرض أكبر من خلق الناس عمراً وزماناً، وأكبر مساحة؛ لأنهما ظرف للناس وما يتعلق بشؤونهم، وحتى الجنة والنار مظروفان للسماوات والأرض.

والثاني: الأكبرية في المقام؛ لأنهم كانوا يتصورون أنّ خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، وهو قد يخطر للأذهان العادية بلحاظ أنّ الأكبر في الخلق أعظم في المكانة، وعلى كِلا التقديرين فإنّ ما كانوا يعتقدون به ينبغي أنْ يوصلهم إلى الإيمان بالمعاد؛ لأنه إذا سلَّم بوجود القدرة على خلق الأكبر والأعظم يجب أنْ يُسلِّم بوجودها على خلق الأصغر والأدنى في العظمة لكنهم لم يفعلوا عناداً منهم ومكابرة.

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٧.

ويتلخص: أنّ الآية المباركة تثبت حقيقتين بلسان الاستفهام:

الأولى: أنّ الله سبحانه هو من خلق السماوات والأرض، وهذا استفهام تقريري لم يُنكره المُنكِرون للمعاد.

الثانية: أنّ القادر على خلق السماوات والأرض هو قادر على خلق الإنسان وإعادته من جديد، فلماذا الإنكار؟ وهذا استفهام استنكاري، وبذلك يتضح الترابط الموضوعي مع الآيات السابقة؛ إذ يقيم الباري عزّ وجلّ دليلاً حسيّاً وعقلياً على إثبات المعاد، وهو تعلق القضية بالقادر، فإنّ القادر على الأكبر قادر على ما دونه في الجرم والتكوين.

والعقل يقضي بأنّ القادر على الشيء قادر على مثله وما دونه بل إنَّ خلق السماوات والأرض من جهة أخرى أعجب؛ لأنه خلق من العدم وبحجم عظيم مُتَّسِع لا يُقدَّر بمقدار، ولا يُعرَف بمقياس، والمعاد ليس خلقاً من العدم، بل إعادة تركيب وبجرم صغير، فكل عاقل يُقرّ بالأول لابد وأن يقرّ بالثاني، فإذا أنكر والحال هذه استحق الذمّ، وهذا ما ورد عن الصادق عليه السلام في بيان هذه الآيات، ففي الاحتجاج: «إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي فكيف جوَّزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم والأصعب لديكم ولم تجوزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي؟»[(١)].

---

(١) الاحتجاج: ح١، ص١٥؛ البحار: ج٢، ص١٢٦، ح٢.

وإنما أرجع الإمام عليه السلام هذا الاعتقاد إلى أوهامهم؛ لأن ما يعتقدون به من عظمة خلق السماوات والأرض خاطئ، فإنّ أعظم خلق الله سبحانه هو الإنسان، فإنّ خلق الإنسان أعظم خلق في الوجود الإمكاني، وفيه حجج الله سبحانه وأولياؤه، ولكن لأن في السماوات والأرض حقائق مادية كونية كثيرة مجهولة مثل الأفلاك والنجوم وما فيها وما بينها وحقائق نورية كالحور والقصور والملائكة والجنّ ونحوها قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وكل ما في المخلوقات بوجوداتها الحسيّة وغير الحسيّة وبمادتها الكثيفة والنورية ليست أعظم من خلق الإنسان، فإنّ الإنسان خليفة الله ومظهر أسمائه وصفاته وجماله وجلاله، وبهذا يكشف القرآن للعالَم وأهل البحث العلمي أنْ لا يبحثوا عن وجود أعظم من الإنسان في كواكب أخرى، فإنّ كل ما يجدونه هو دون مقام الإنسان.

هذا والبحث في الآية يقع في مباحث:

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٧.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿أَوَلَيْسَ﴾

اختلف المفسرون في أنّ الاستفهام فيها تقريري أم استنكاري، وذهب إلى الأول جماعة[1]، وذهب إلى الثاني آخرون[2].

ومفاد الأول جملة خبرية تفيد أنّ من قدر على خلق السماوات والأرض واختراعهما مع عظمتهما وكثرة ما فيهما من أفلاك ومجرّات وجبال وبحار وغابات وغير ذلك ممّا هو كبير وعظيم قادر على خلق الإنسان إيجاداً فضلا عن إعادة خلقه[3]، وهذا الدليل لا يسع العاقل إلّا الإقرار به.

ومفاد الثاني أنّ الله الذي خلق السماوات والأرض بما فيهما من سِعَة مترامية ومشتملة على منظومات عظيمة من الكواكب والمجرّات والمحيطات والجبال والسهول التي تشكِّل العالَم بِرُمَّته وعلى نسق ونظام

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٤؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٨.

(٢) التبيان: ج٨، ص٣٦٣؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٢؛ تفسير الميزان : ج١٧، ص١١٣.

(٣) مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٢.

محكم ودقيق يحيّر العقول، والعالم الإنساني بكل معاهده وجامعاته وعقول عباقرته وعلمائه مشغول في دراسة هذه الحقائق واكتشاف أسرارها وخفاياها كيف لا يقدر أن يخلق الإنسان ويعيده إلى الحياة ثانية[١]؟ والحق ما ذكرناه من تضمُّن الآية للدلالتين معاً، سوى أنّ الأول يدل عليه المنطوق والثاني المفهوم.

المفردة الثانية: ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾

قيل في (الباء) معان وأكثر من قراءة[٢]، والأقوى أنها سببية، والمعنى بسبب القدرة يخلق مثلهم، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ووجه الاختلاف يعود إلى معنى مثل ومرجع الضمير (هم)، ففي اللغة المثل هو المشابه في الذات والشكل والصفة، فهو أعم من الشكل والشبه، فإنّ الشكل يطلق على ما يشترك معه في الهيئة والصورة والقدر والمساحة، ولذا يشكل الفرق بينهما[٣] كطائرين متشابهين في كل الجهات، ولذا اشتهر المثل (الطيور على أشكالها تقع)[٤] والشبه يقال لما يشابهه في الكيفية مثل التشابه في اللون والطعم وإن اختلفا في الشكل والذات مثل السُكَّر والعسل.

---

(١) تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٣؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٤.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٤؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٧٨.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٥٩، (مثل).

(٤) مستدرك أعيان الشيعة: ج٢، ص٢٣٦؛ وانظر كتاب النكاح: ج١، ص٢٦٧؛ تفسير الآلوسي: ج٣٠، ص١٢١.

والمثل يشمل التشابه في الذات أيضاً[١]، ولذا نفي عن الله سبحانه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢] لعدم وجود مثل له في ذاته أبداً، بخلاف صفاته فإنه جلّاها في أوليائه، وصاروا مظاهر لجماله وجلاله، وفي مرجع الضمير قولان:

الأول: أنه السماوات والأرض، وإنْ قيل بأنهما غير عاقلين والضمير للعاقل قالوا بأنّ ذلك باعتبار ما فيهما من موجودات عاقلة[٣]. نسب إلى جماعة من المفسرين، والغاية منه دفع توهّم قِدَم العالم المقتضي لعدم إمكان إعادته[٤].

والثاني: أنه البشر، والخطاب موجه للكفار المُنكرين للمعاد، والمقصود الكل، وهو أظهر، ويؤيده السياق وامتناع التفسير الأول لاستلزامه التصرف والمجازية، وهو خلاف الأصل، ومُناف لغرض الآية؛ لأن الغاية هو بيان إمكان إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، فيجب أن يكون الإثبات لذلك لا لخلق السماوات والأرض، بل إرجاع الضمير إليهما لغو؛ لأنه من تحصيل الحاصل، لِما عرفتَ من إقرارهم بأنّ الله سبحانه خالق السماوات والأرض، وهما لا يفنيان بل باقيان.

فالحق أنّ (مثلهم) يراد به عموم الناس، وعليه الأكثر، وفي معنى المثلية أقوال:

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٠٤، (١٢٢٠)؛ ص٤٨٠، (١٩٣٣).
(٢) سورة الشورى: الآية١١.
(٣) تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٣؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٥، هامش (١).
(٤) روح المعاني: ج٢٣، ص٧٦.

القول الأول: أنه المغاير، وهو جسم آخر غير الجسم الدنيوي تعيش به الروح وتُحشَر به، وهو البدن المثالي، ولأنه يُشابه صورة البدن العنصري يقال له مثله، وهو قول الحكماء القائلين باستحالة إعادة البدن المعدوم[(١)]، وهو ضعيف؛ لمنافاته لصريح الآيات المتقدمة التي نصَّت على أنّ الحياة تعود إلى ذات العظام الرميمة، وهذه الآية التي نصَّت على أنّ الإعادة خلق لمثلهم وليس حشراً بالبدن المثالي.

القول الثاني: أنه مثل الجسم الإنساني العنصري، فإنّ الأول يتحوَّل إلى التراب بعد الموت فيفقد شكله وصورته التي كان عليها، وفي المعاد يُعاد خلقه من جديد من ذات الموارد الأصلية له، ولكن بصورة جديدة غير الصورة الأولى؛ لاستحالة إعادة ذات الصورة القديمة؛ لأن الزمان قيد لها وهو ممتنع التكرار والإعادة، فيكون مثله مثل اللبنة الطينية إذا تحلَّلت ثم عُجِنَتْ وأُعيدَ تكوينها من جديد، فإنّ الصورة الثانية غير الأولى وإن كانت المادة واحدة.

ويؤيد هذا القول ما ورد في الأدلة النقلية من أنّ الناس يُحشرون في الآخرة شُبّاناً سالمين من العيوب والآفات، وهي ليست ذات الصفات التي كانوا عليها في الدنيا، وهو قول المتكلمين الإلهيين وأكثر المفسرين[(٢)]، ويعززه ما ورد عن الصادق عليه السلام في الرواية المتقدمة.

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٥، هامش (١).

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٤؛ تفسير الفرقان: ح٢٤، ص٧٧؛ تفسير الميزان: ح١٧، ص١٤؛ تفسير الأمثل: ح١٤، ص١٨٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ح٨، ص٥٤؛ روح المعاني: ح٢٣، ص٧٦؛ التحرير والتنوير: ح٢٣، ص٧٨-٧٩.

القول الثالث: إنه العَينية، أي أنْ يعيد الناس من قبورهم كما كانوا في عالم الدنيا بلا تفاوت، ووجَّهوه بأنْ يصب الباري عزّ وجلّ أجزاء الأموات المتفرقة في القالب حتى يخرج كل إنسان مثل ما كان أولاً[(١)]، وهو يعود على الثاني؛ لامتناع العينية من كل جهاتها، ولا نظن أنّ القائل يلتزم به لاسيَّما مع تصريح الآيات والروايات بتبدل الخلق واختلاف النشآت.

القول الرابع: إنّ المراد الأموات الذين يحييهم، فإنهم مثل المخاطبين بشر، فهم مثل الكفار الأحياء يكونون أحياء يزاولون الحياة يأكلون ويشربون ويتكلمون، وهذه صفة أهل الدنيا، فلم يؤثر موتهم في فاعليتهم شيئاً.

القول الخامس: إنه العينية باعتبارين:

أحدهما: حياتهم.

وثانيهما: مَلَكاتهم وسجاياهم.

وتوضيح ذلك: فإنَّ الحياة واحدة لا تختلف في النشآت، والتي تختلف هي الأبدان بصورها الظاهرية، وحيث إنّ الحياة من شؤون الروح والروح باقية فهي ذاتها تعود من جديد، ومن جهة أخرى فإنّ الناس في الدنيا عاشوا بسجاياهم ومَلَكَاتهم، وهذه هي التي تتجَّلى وتُحشَر في الآخرة، وقد دلَّت الأدلة على أنّ الحشر يكون على حسب طبائع النفوس وسجاياها، وهي لا تختلف بين الدنيا والآخرة، بل هي ذاتها، فيكون الحشر للعينية.

---

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٤.

فالمراد بالمثلية المثلية الذاتية في الأرواح ومَلَكَاتها، ولعلّ هذا هو المقصود بالآية؛ لوضوح أنّ الأشكال البدنية تتبدَّل وتتغيَّر؛ لأن الأبدان في الآخرة تتميز بمزايا تفوق الأبدان الدنيوية في الصفات والآثار، وهذا من المُسلَّمات، فلا يُعقل أنْ يكون المراد بالمثلية البدنية كيف ويصبح الطفل شاباً، ويعود الشيخ شاباً، ويتحد الشباب والشابات بعمر متقارب جداً، والإبداع في خلق الإنسان في الدنيا في روحه، وطاقاتها العظيمة أعظم من بدنه، وهي ذاتها تعود إلى أبدانها، ويبعث الناس من قبورهم.

ويمكن القول بعدم التنافي بين ما ذكرناه وما ذكره المتكلمون والمفسرون؛ لاختلاف اللحاظ باعتبار أنّ الإعادة تتعلق بالبدن بإعادة تكوينه، وتتعلق بالأرواح بإعادتها إلى أبدانها.

والمحصلة إنّ كل شخص في المعاد سيكون هو ذاته في روحه وملكاته، ويختلف من حيث شكله الخارجي، وبهذا الاعتبار كل واحد يكون مثل نفسه لا عينها من حيث البدن، ولكنه عينها من حيث روحه، ويؤيده الوجدان في الحياة الدنيا، فإنّ صُوَر الإنسان تتبدَّل بحسب سني عمره، فصورته وهو طفل رضيع تختلف عنه وهو صبي وغلام، وهي الأخرى تختلف عن صورته وهو شاب أو كَهْل، وتختلف أكثر حينما يكون شيخاً كبيراً، ولكنه بلحاظ روحه ومَلَكَاته واحدة.

المفردة الثالثة: ﴿بَلَى﴾

هو جواب للإقرار بالحق الذي ذكره، وهو إثبات بعد النفي، فيدل على الحصر، ويتَّسِم بثلاث مزايا:

الأولى: أنه جواب قاطع لا تردد فيه.

الثانية: أنه ينفي غيره من الأجوبة، فإنّ الإجابة عن السؤال قد تشتمل على أكثر من جواب صحيح، فأحدها لا ينفي ما عداه، وأما في قوله: ﴿بَلَى﴾ بعد النفي بقوله: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى**﴾(١) يفيد انحصار الجواب به، فلا يوجد جواب آخر سواه وإذا ذكرت أجوبة فكلها باطلة.

الثالثة: أنه جواب مستند إلى البرهان، ولذا علّله بقوله: ﴿**وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾(٢).

وقد اختلفوا في أنّ قوله: ﴿بَلَى﴾ هل هو جواب لفظي(٣) نظير قوله تعالى: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾(٤) فإنّ قوله: لله الواحد القهار هو جواب يقوله الباري عزّ وجلّ على قول، أو أولياؤه المعنيون بالحشر والحساب وهم محمد وآل محمد عليهم السلام والملائكة، أم هو جواب عقلي يعود إلى

---

(١) سورة يس: الآية ٨١.

(٢) سورة يس: الآية ٨١.

(٣) روح المعاني: ج٢٣، ص٧٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٧؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠١.

(٤) سورة غافر: الآية١٦.

واقع الحال ومستند إلى البديهة[١]، ولكل منها قائل، والأول أظهر؛ لأصالة حمل اللفظ على معناه الحقيقي ما دامت لا توجد ضرورة للتأويل.

على أنّ الجواب اللفظي يستدعي سراية البحث إلى القائل، وربما يقال هو الباري عزّ وجلّ، وعليه الأكثر[٢]، أو هم الملائكة، أو هو قول النبي صلى الله عليه وآله؛ لانتفاء قرينة الحال، ذلك لأنه طرف المحاورة، ومن قبل أمره الباري عزّ وجلّ أنْ يرد على شبهة المنكرين للمعاد بقوله: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ ولا تنافي بين الاحتمالات، ولا أثر للاختلاف بينها.

وأما على الجواب العقلي فإنّ القائل هو الجميع كل على سبيل الاستقلال.

المفردة الرابعة: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

الخلاق العليم وصف آخر للباري عزّ وجلّ، وهو من أعظم أوصافه، ويجمع جميع صفات الذات أي الحياة والعلم والقدرة، وجميع صفات الفعل، ولعلّ من هنا وردت بصيغة المبالغة (خلّاق) و(عليم)، فإنَّ (الخلّاق) يدل على حياته وقدرته واستمرارية الخلق والعطاء، والخلق يستلزم جميع الآثار من الرحمة والرزق والتربية والإنشاء، و(العليم) يدل على علمه سبحانه، والملفت أنه في آية سابقة قال: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا**

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٢.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٤؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٢؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠١؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٥؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٧٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤٣٧.

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١] فأشار إلى أنه عليم بالخلق أي المخلوق، وفي هذه قال سبحانه: **﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾** فأشارَ إلى جهة فعله، ولعلّ السبب يعود إلى وجوه:

الأول: لأن تلك الآية كانت في مقام الإجابة عن شبهة استحالة إعادة الأبدان المتفرقة، وهي تستدعي العلم بها، وأما هذه فلبيان القدرة على الإعادة.

الثاني: لأن في تلك الآية يتحدَّث عن إعادة الأبدان البشرية وإحياء عظامها، وفي هذه يتحدَّث عن خلق السماوات والأرض وما بينهما بما فيها خلق الإنسان وإعادته، وهذا يستدعي بيان خلاقيته وقدرته مع علمه.

الثالث: لأن صيغة خلّاق أقوى في دفع شبهة استحالة المعاد؛ لأنها تدل على استمرارية الخلق والتكوين وعدم توقفها في حال أو بمخلوق، وهي كلها عبارة عن إيجاد من العدم، أو إعادة بعد فناء وانحلال.

ويتحصل من مجموع المفردات: أنّ الآية المباركة تجيب عن شبهة إنكار المعاد بجوابين نقضي وحلّي. يتعلق الأول بإيمانهم بخلق السماوات والأرض فيجب أن يؤمنوا بإحياء الموتى؛ لأن إحياء الموتى جزء من السماوات والأرض، والثاني يتعلق بالقدرة وإرجاع خلق السماوات والأرض إلى قدرة الخالق العظيم، والقدرة على الكل قدرة على الجزء بالبداهة.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٩.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: لماذا يلحدون؟

الاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] وجوابه على إنكار المعاد يدلان على أمور:

أحدها: أنّ فكرة الإلحاد كانت قديمة، وهي من الثقافة التي كان يتمسك بها أصحاب النفوذ والقدرة والمصالح، وهم الذين كانوا يحملون لواءها وينشرونها بين الناس، ويتظاهرون بها في المجتمع، والذين تحاوروا مع النبي صلى الله عليه وآله في إحياء العظام كانوا منهم، إلّا أنّ واقعهم وباطنهم كان على خلاف ذلك؛ لأنهم كانوا يُقرّون بأنّ للسماوات والأرض خالقاً وهو الله سبحانه، وليست الأصنام ولا الشمس ولا القمر، والبديهة العقلية قاضية بأنّ القادر على الأكبر والأعظم قادر على الأصغر، والقادر على الكل قادر على الجزء، ولكن رغم ذلك أنكروا معاد البشر، والسؤال الذي يخطر إلى الأذهان لماذا أنكروا مع أن القضية بدرجة من الوضوح بحيث لا تخفى على أي عاقل؟ ولماذا أنكروا المعاد بالخصوص؟ ولعلّ لذلك جوابين:

---

(١) سورة يس: الآية ٨١.

الأول: يتعلق بشبهة فكرية ربما حصلت عند البعض لأنهم جعلوا محور العلم والإيمان الحس، وما يجدونه بحسِّهم، وحيث إنهم لم يروا إنساناً مات ثم أُحيي نفوا ذلك، وهذا جواب غير صحيح؛ لأنه منقوض بولادة الإنسان وتكوّنه المستمر، وبإنبات الأرض وإحيائها، فإنّ هذه حركة من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة، وهي كافية لتصديق أشباهها ونظائرها.

ومحلول عقلاً بأنّ من يؤمن بقدرة الله العظيمة على خلق الأعظم لا ينبغي أنْ يشك في قدرته على إحياء الميت، وهي مجرد تركيب.

وعقلائياً بأن العاقل إذا أخبره الصادق الأمين بقول ولا دليل عنده على بطلانه يجب أن يصدِّقه ويذعن له ولا يكذِّبه، فإذا خالف حكم عقله في الاثنين دلَّ على أنه مكابر يؤمن في واقعه، ويتظاهر بالإنكار، وبهذا يتضح وجود سبب آخر للإنكار.

الثاني: يتعلق بالمصالح والشهوات، فإنّ إنكار المعاد يعود على زعمائه بفائدتين:

الأولى: يحررهم من الحدود والضوابط التي يفرضها عليهم الإيمان بالمعاد والبعث والحشر والحساب والكتاب لكي يفعلوا ما يشاؤون دون قيود، فإن من مقتضيات الإقرار بالمعاد مراعاة العدل والإصلاح وتجنب الظلم والفساد، وهذا ما لا يروق لأهل الدنيا والمصالح.

إن قلت: لكننا نشاهد وجود جماعة يؤمنون بالمعاد ويقرِّون به ولكنهم يظلمون ويفسدون.

فالجواب: أنهم آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم تمام الإيمان، ولو آمنوا بقلوبهم لما ظلموا، فإنّ من أيقن بالموت والمعاد ولامس هذا الإيمان قلبه لا يمكن أن يفسد ويظلم.

الثانية: يحفظ سلطتهم ويحررهم من الإذعان لدعوى النبيﷺ والقبول به؛ لأنهم إذا أذعنوا له يجب أن يسلِّموا له القيادة، وينقادوا له في كل ما يقول وهذا من شأنه أن يفقدهم سلطتهم ومكانتهم بحسب ما يتصورون، فتمّسكاً منهم بما هم عليه ينكرون الدعوى، ويكذبون النبيﷺ وإن كان باطنهم يقرّ بصدقه.

وهذه هي الفتنة الكبيرة والمختبر الصعب الذي يبتلى به الزعماء والقادة وأصحاب النفوذ، إذ لا يستجيبون للعدل والحق خوفاً على المصالح، وهو الذي أبقى الظلم والاستبداد، وغصب آل محمدعليهم السلام حقوقهم على طول التأريخ.

ثانيها: أنّ الإلحاد الحديث لا يختلف عن الإلحاد القديم في مدعياته وأهدافه، ولعلّ البعض من أتباعه وقعوا في شبهة إلّا أنّ الذي يتبنى نشر هذا الفِكْر المنحرف ويروِّجه ويقف وراءه يحمل ذات الدواعي والأهداف، فإذا لا يلتفت المتأثرون إلى هذه الحقيقة يضيّعون أنفسهم ودنياهم وأخراهم لأجل أوهام ويكونون ضحايا لأهواء غيرهم.

ثالثها: أنّ أقرب الطرق للإيمان وبيان فشل الإلحاد وبطلان نظرياته هو التفكير في السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات عجيبة وأسرار وأنظمة عظيمة تُحيِّر العقول، وتبطل القول بالصدفة التي قالها الطبيعيون،

وأصل الأنواع التي قالها دارون، وتبطل نظرية اللّا أدريين لو أرادوا اللجوء إلى ما يَحكم به العقل السليم، فإنّ الإلحاد المُعاصر لو أنكر المبدأ صار أسوأ من الإلحاد الجاهلي؛ لأن هؤلاء كانوا يُقرّون بوجود الخالق ووحدته.

اللطيفة الثانية: خلق المِثل أيسر

قوله تعالى: ﴿**بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم**﴾[1] يدل على أنّ خلق المثل أسهل من خلق الأصل؛ لأن خلق المثل إيجاد تركيبي. أما خلق الأصل فهو إبداعي، والسماوات والأرض يكونان خلقاً إبداعياً أي لا عن وجود سابق ولا مثال، وهما يتكونان من أفلاك وكواكب وغابات ومحيطات وأنظمة وقوانين وملايين بل مليارات المخلوقات الحية، وغير الحية وهي في حال تكامل أو تبدل في الخلق والإيجاد من موت وحياة وعود للحياة كما تقرره الدراسات العلمية، وهذا الخلق التركيبي أسهل من خلق ذات السماوات والأرض، وعود الإنسان بعد موته من الخلق التركيبي، فهو أسهل من أصل وجوده.

وصيغة اسم الفاعل في (قادر) تدل على دوام التلبس وعدم انفكاك القدرة عنه، وأنها عين ذاته، فتبطل نظرية الأشاعرة القائلين بزيادة الصفات على الذات، كما تدل على استمرار الفعل ودوامه، فالخلق دائم لا ينقطع، وهذا ما يؤكده العقل والنقل.

---

(١) سورة يس: الآية ٨١.

أما العقل فلأنه يشهد بولادات جديدة دائمة ومستمرة، والعلم يؤكد أنّ كل شيء يبدل خلاياه بخلايا جديدة، ومنها الإنسان فإنه في كل عشرة سنوات تتبدل تمام خلاياه، وهذا التبدل ليس دفعياً، بل تدريجياً، ومعنى ذلك أنه دائماً في حالة تبدل وتغيُّر، والأمر في هذه الأيام من البديهيات.

وأما النقل فلشهادة قوله تعالى: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾(١) فإنّ اللبس هو الستر، ويقال للثوب لباس لأنه يستر البدن، ويقال للزوجة والزوج كل منهما لباس للآخر لأنه يستره بالمحاسن، ويبعده عن القبائح، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ**﴾(٢) لأن التقوى تستر العبد عن المعاصي والقبائح(٣)، وربما يقال اللبس في المعاني، فيقال التبسَ عليه الأمر لتداخله وضياع الحق فيه، وفي التنزيل ﴿**لاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ**﴾(٤) لأنهم كانوا يسترون الحق ويظهرون الباطل.

والآية المباركة بصيغة الاستفهام التقريري تدل على أنّ الخالق خلق الأشياء وأوجدها أولاً، ولم يُعجزه شيء منها، وهذه حقيقة يقرها الجميع بشهادة الوجدان، فأكدها بقوله: ﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾(٥)

---

(١) سورة ق: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية٢٦.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٤٦٢، (١٨٥٤)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٥، (لبس).

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٢.

(٥) سورة ق: الآية ١٥.

سواء كانت (بل) للإضراب أو للعطف تدل على أن الخلق مستمر ودائب دائماً، فكل مخلوق يتجدد خلقه، وكل خلق جديد يستر الخلق الأول ويخفيه إما من جهة فنائه وظهوره الجديد أو من جهة احتوائه عليه، ويعززه قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾(١) فما أفاده جمع من المفسرين من حَمْل اللبس على الشك والريب في أمر المعاد تفسير للمعنى بالأخص(٢)، والإطلاق يفيد الأعم، ومن هنا قال بعض أهل الكلام: إنّ معنى الآية: هم في هذه الدنيا مُتلَّبِسون في كل يوم بخلق آخر جديد(٣)، وهو ما يستفاد من بعض الأخبار(٤)، فماذا ينكر الملحدون، وبماذا يفسرون ظاهرة الخلق المستمر القائلون بالصدفة؟

اللطيفة الثالثة: بين بلى ونعم في الجواب

في جواب الاستفهام التقريري قال تعالى: ﴿**بَلَىٰ**﴾(٥) ولم يقل: (نعم) لأنّ بلى تتضمن دلالتين النفي والإثبات، بخلاف نعم فإنها تدل على الإثبات فقط، ولذا قالوا: إنّ بلى تأتي لنقض النفي الوارد بعد الاستفهام كما في قوله تعالى: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا**﴾(٦) أي نشهد بأنك ربنا لا غير.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.
(٢) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٣٢؛ مقتنيات الدرر: ج١٠، ص ٢١٤.
(٣) نفحات الرحمن: ج٥، ص٣٣؛ روح البيان: ج٩، ص١١١.
(٤) التوحيد: ص٢٧٧، ح٢؛ تفسير الصافي: ج٥، ص٦٠.
(٥) سورة يس: الآية ٨١.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

وأما نعم فتأتي للإقرار بالاستفهام كما في قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ**﴾(١) ولا يصح أنْ يقال هنا (بلى) لأنه يستلزم نفي صحة الاستفهام، ومثله يقال في الاستعمالات العرفية، فإنه لو قال شخص لآخر ليس لك عليَّ شيء فإنَّ قال بلى أفاد تكذيب القول، وادّعاء بثبوت الشيء عليه، وإنْ قال نعم أفاد الإقرار بعدم الثبوت فقط(٢)، فما يناسب مدلول الآية بلى دون نعم.

اللطيفة الرابعة: أنواع الخلق وأصنافه

إنّ وصفه خلّاقٌ وعليم في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾(٣) صيغة مبالغة، ويتضمن ثلاث دلالات:

الأولى: كثرة الخلق كمّاً.

الثانية: كثرته كيفاً.

الثالثة: كثرة الخلق دواماً واستمراراً.

وهذا ما يؤكده الواقع بأنّ السماوات والأرض تتضمَّن أنواعاً كثيرة من المخلوقات منه ما هو مادي كثيف مثل أبدان الإنسان و الحيوان والشجر ومنه ما هو شفاف مثل المَلَك والجنّ والروح، ومنها ما هو غازات، ومنها

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٤.

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٠٥، (٤١٩)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٤٦، (بلى).

(٣) سورة يس: الآية ٨١.

ما هو سوائل، ومنها ما هو صلب وهكذا، وكل تلك المخلوقات عبارة عن تركيبات من العناصر الأولية المختلفة، وفي حال تَكوُّن وانحلال دائب ومستمر، وذلك كله يتوقَّف على العلم والقدرة، فناسبها أن يعبِّر عن الخلق بصيغة المبالغة (خلّاق).

وقد ذكر البعض أنّ صيغة المبالغة لا تناسب صفات الباري عزّ وجلّ؛ فلذا تحمل على المجاز لسببين:

الأول: لأن المبالغة نقص في البيان وفي الصفة، وكلاهما لا يليقان به سبحانه، بداهة أنّ المبالغة أنْ يثبت للشيء أكثر ممّا له، وهو نوع من الكذب، وصفاته سبحانه متناهية في الكمال فلا يصح المبالغة فيها.

والثاني: لأن المبالغة تصح في الصفات التي تقبل الزيادة والنقيصة، وصفاته سبحانه منزهة عن ذلك[١].

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنّ الغاية من المبالغة في كلام الحكيم بيان الكثرة الواقعية وصفاته سبحانه أكثر ممّا تشملها العبارة؛ لأن الألفاظ قاصرة عن أداء حقيقة صفاته ومعانيها، فالمبالغة في حقِّهِ دائماً إخبار عمّا هو دون واقع الحال وليس بما هو أكثر، فيرتفع الإشكال من أصله.

الوجه الثاني: أنّ صيغة المبالغة تأتي لداعيين:

---

(١) انظر روح البيان: ج٧، ص٤٣٨.

أحدهما: بيان الكثرة حقيقةً وواقعاً.

وثانيهما: إظهار الكثرة على خلاف الواقع، والأول مُلازِم للصدق، والثاني مُلازِم للكذب، ومبالغات القرآن من قبيل الأول لا الثاني، وهو ما يؤكده الواقع؛ إذ لا شك في أنّ الباري عزّ وجلّ دائم الخلق، وهو خلّاق عليم في كل زمان وآن، فإذا وصف نفسه بـ ﴿الْخَلَّاق الْعَلِيم﴾ كان صادقاً.

الوجه الثالث: أنّ قوله بأنّ صفاته سبحانه لا تقبل الزيادة والنقيصة يصح في صفات الذات، وأما صفات الفعل فهي ممّا تقبل الزيادة والنقيصة بحسب الفعل على ما حُقِّقَ في علم الكلام، وعلى فرض صحته فإنّ المبالغة في صفاته دائماً صادقة؛ لأنها لا تفارق الكثرة.

وبيان ذلك: أنّ المبالغة في صفات الله تنشأ من أحد أسباب ثلاثة:

الأول: كثرة الصفة باعتبارها سبب الفعل.

الثاني: كثرة الفعل.

الثالث: كثرة المفعول.

وما يمتنع الأول لرجوعه إلى صفات الذات فيستحيل فيها الزيادة والنقيصة، وأما الثاني والثالث فلا مانع منه، ولذا وصف نفسه بالغفّار والتوّاب لكثرة المستغفرين وكثرة قبول استغفارهم وتوبتهم، وكذا يقال في وصفه بالرزاق لكثرة رزقه والمرزوقين، وحيث إنه يتعلق بالفعل ولا يعود إلى صفات الذات فلا مانع منه، ومنه (الخلّاق).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: طرق الإقناع في المحاورات

هناك عدة طرق للإقناع أشارت الآية إلى طريقين:

الأول: جعل السؤال طريقاً لإثارة الفكر وإرجاع الإنسان إلى كوامن نفسه لينطلق من وجدانه للإذعان للحقيقة، ومن هنا وردت الآية بلسان الاستفهام التقريري، فإنّ الاستفهام التقريري يقوم على ما هو راسخ في الضمائر وغفلت عنه، وبالسؤال تزول الغفلة ويلتفت الإنسان إلى الصواب.

الثاني: بيان المفاهيم بالمصاديق وتكثيرها لأجل التصاعد من الشك إلى الظن إلى اليقين، ولذا ذكرت الآيات في معرض مناقشة مُنكري المعاد جملة من المصاديق، وابتدأت من الأقرب ثم الأبعد، ومن الأصغر إلى الأكبر، فذكرت أولاً النطفة ثم الشجر الأخضر، ثم خلق السماوات والأرض، فإنّ الأقرب بمنزلة الأساس الذي يقوم عليه الاستدلال؛ لأنه محسوس ولا يقبل الإنكار، ولكن حيث إنه قد لا يفيد النفوس المضطربة أو الشاكة العلم يذكر المثال الآخر بعده لكي يعزز النتيجة، وإذا انتقل إلى الأكبر انسدت أبواب الشك وصارت القضية يقينية، وهذا نهج منطقي ووجداني في الاستدلال ينفع لعموم المحاورين.

التعليم الثاني: الخلق نظام دائم

إنّ نظام الخلق والتكوين مستمر ولا يقف عند حد أو زمان أو مكان كما تفيده صيغة المبالغة في (خلّاق) كما أنّ هذا النظام خاضع لغاية وليس عبثياً، ومُحْكَم فلا اختلال فيه ولا اختلاف، ولذا أردفَ الخلاقية بالعلم وبصيغة مبالغة أيضاً؛ لبيان عدم خفاء شيء من الخلق والمخلوقين عليه.

وهذا النظام مستمر حتى في الآخرة، فإنّ في الجنة والنار مستمر الخلق والإيجاد، فأهل النار كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا بجلود غيرها، وأهل الجنة كلما يأكلون ويشربون يوجد مكانه.

وهذا يدل العباد على وجوب التوكل والثقة بالله تعالى في جميع الأحوال واللجوء إليه، كما يدل على أهمية الدعاء والمسألة في جميع ذلك؛ لأن بالدعاء يصل العباد إلى مقاصدهم؛ لعطاء الله المستمر، فبما أنّ الفيض الإلهي دائم والخلق والإيجاد مستمر فما على العباد إلّا أنْ يهيئوا في أنفسهم القابلية لنزول الفيض عليهم، وشمول الرحمة الإلهية لهم.

التعليم الثالث: بعض القواعد الكلامية والفقهية والأصولية

إنّ الآية تشير إلى جملة من القواعد العلمية في علوم وفنون مختلفة:

الأولى: أنّ العالَم هو السماوات والأرض وهو مخلوق حادث وليس بقديم، فما يقوله بعض الطبيعيين من القِدَم الذاتي والحكماء بالقِدَم الزماني باطل؛ لأن الخلق يعني المسبوقية بالعدم وتجدد الحدوث.

الثانية: أنّ العلَّة المشتركة كافية للجزم بالمثلية في المعلول؛ لأن حُكم الأمثال واحد، ولذا أشارت الآية إلى المثلية في الإيجاد بين المبدأ والمعاد وإبداع النشأة وإعادتها بسبب وحدة القدرة والقادر.

الثالثة: صحة قياس الأولوية الذي يستند إليه الفقهاء والأصوليون والمتكلمون بل سائر العقلاء؛ لأن الآية المباركة أثبتت القدرة على الأصغر وهو إحياء الموتى بواسطة ثبوت القدرة على الأكبر وهو خلق السماوات والأرض.

الرابعة: جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى؛ لما عرفت من ورود الاستفهام فيها بالمعنى التقريري والاستنكاري، و(بلى) بالنفي والإثبات، فقول بعض البلاغيين والأصوليين باستحالته غير صحيح خصوصاً في الاستعمالات الشرعية؛ لأن الامتناع ناشئ من ضعف إرادة المستعمل وعدم قدرته على الإحاطة بالأكثر من معنى في آن واحد، وأما إذا كان المستعمل محيطاً بكل شيء فلا مانع منه[1]، وهو أحد معاني البطون.

ووقوع ذلك في القرآن يُثبِت أمرين:

أحدهما: أنه ممكن وليس بمستحيل كما توهّم المانعون.

وثانيهما: أنّ القرآن حجة على اللغة واللغويين والقواعد التي تقررها العلوم وليس العكس، ولذا خالف القرآن جملة من القواعد في الرسم

(١) تفسير تسنيم: ج١، ص٣٨.

والقراءة مثل: ﴿**وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ**﴾[1] فرفعَ الضمير والقاعدة تقتضي الجَرّ بالكسر، وقوله: ﴿**بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[2] مع أنّ القاعدة تقتضي أنْ يكون الرسم بالتاء المربوطة لا المبسوطة.

الخامسة: جواز الجواب والشهادة استناداً إلى العلم، ولذا قال سبحانه: ﴿**بَلَىٰ**﴾ واتَّخَذَهُ شهادة منه على إقرار الكفار بأنه خالق السماوات والأرض.

السادسة: أنّ إحياء الأبدان بيد الله تعالى فكذلك إحياء النفوس والقلوب، فلا رياضة روحية ولا سلامة قلبية إلّا بالذكر والدعاء والعبادة.

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) سورة هود: الآية ٨٦.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

يس/ ٨٢

ختام الكلام مع الكفار

بهذه الآية المباركة ختم الباري المحاورة مع الكفار والمشركين وضعاف الإيمان، وأبان أمرين:

الأول: أنه قادر على كل شيء ولا يتخلَّف عن إرادته شيء من الموجودات تكويناً، ولو شاء أن يُهلِك الموجودات أو يعذّبها أو يعطيها ما تريد كان قادراً عليه، ولو شاء أنْ يهدي قلوب الناس إلى الإيمان وعقولها إلى الصواب لفعل، إلّا أنه لا يفعل ذلك لأنه خلقهم للاختبار والتعلُّم والارتقاء، وخلق الأشياء لأجلهم لكي يستطيعوا أن يطووا مراحل الكمال.

الثاني: أنه قادر على إيجاد الأشياء في مبدئها بإبداعها من العدم إلى الوجود، وقادر على إعادتها والإنسان منها، فكما أوجده أول مرة بلا عناء ولا تعب ولا مقدمات، بل بقوله: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾ فإنّ الإعادة كذلك.

كما وردت الآية جواباً لأسئلة عديدة قالها الكفار:

منها: قولهم: ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

ومنها: قولهم: ﴿**مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾[2].

---

(١) سورة يس: الآية ٤٨.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

ومنها: قولهم: ﴿**مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾[1] فأجابتهم بجواب واحد ينفي الشكوك من قلوبهم وعقولهم، ويثبت حتمية حصول ذلك لوجود القدرة التامة على كل شيء بقوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[2] وتضمَّنت بيان سهولة المقدور عليه أمام قدرته مهما كان أعظم وأدق، فإنّ كل شيء لا يتخلَّف عن قدرته وإرادته، وهو في عين الحال جواب تام لكل ما تقدَّم من أسئلة أثارها الكفار عن أصول العقائد منذ أول السورة، لاسيَّما النبوّة والإمامة والمعاد، فالآية بمنطوق واحد تضمَّنت أغراضاً كثيرة، بل أغراض السورة كلها.

والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) سورة يس: الآية ٧٨.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾

(إنَّما) أداة حصر، وابتدأ بها الكلام لبيان حصر الفعل الإلهي بإرادته، فلا يتوقّف فعله على قيد أو شرط أو استعانة بالغير، كما لا يتوقّف على وجود مادة سابقة، بل مجرَّد تعلق الإرادة بإيجاد الشيء يتحقق، و(الأمر) الشأن، وجمعه أمور، وهو لفظ عام يُطلَق للأفعال والأقوال[1]، والضمير يعود إليه سبحانه، وإنما عبَّر بالأمر دون الشأن لتميزه بثلاث خصائص:

الأولى: أنه يستبطن معنى السلطة والقدرة، فإنّ الأمر لا يصدر إلّا من العالي إلى الداني، ومن خصوصيته أنه سريع الإجابة؛ لذا قالوا بأنّ الأمر هنا يدل على التسهيل والتهوين في الأثر، والتفخيم والتعظيم في المصدر[2].

الثانية: أنه يطلق في موارد الإبداع ونشوء الإرادة من النفس لا من الغير، وعليه حملوا قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[3] أي من إبداعه، والأمر الذي ينزل في ليلة القدر هو تقديره وإرادته، والأمر الطلبي الذي يستعمل في العُرْف يقال له أمر لأنه ناشئ من إرادة الآمر.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨، (أمر).
(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٢.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

الثالثة: أنه يختصّ به سبحانه، بخلاف الشأن فإنه لا ينفي ما عداه، لكن الشأن لا يقال إلّا فيما يعظم من الأمور[1]، بخلاف الأمر فإنه أعم من ذلك وهو الأنسب بغرض الآية؛ لأن الخلق متفاوت الدرجات والرُتَب، فبعضه عظيم الشأن وبعضه دان، وبعضه إبداعي، وبعضه إعادي، وكل ذلك مقدور له وفي حيطة إرادته وسلطته جلّ عُلاه، فلذا قال: (أمره) لا (شأنه).

والإضافة إليه سبحانه تدل على أمرين:

أحدهما: أنه أمر ليس كسائر الأوامر يتميز عليها بأنّ الفعل يلازمه، بخلاف أمر غيره فإنه لا يلازمه؛ لوجود قصور في الآمر أو المأمور أو الأمر نفسه، بخلاف أمره سبحانه.

ثانيهما: أنّ أمره مُطابِق للحكمة لا يكون عن هوى أو عبث أو نزعة شيطانية، فإنّ عدالة الأمر ونزاهته من نزاهة الآمر وعلوّ شأنه، وهذا وإنْ ينطبق على أمره التكويني والتشريعي إلّا أنّ المقصود هنا هو الأمر التكويني؛ لأن المراد لا يتخلَّف عنه، بخلاف الأمر التشريعي فقد أراد الله تعالى أنْ يتحقق المراد عبر إرادة المكلفين لا مباشرة؛ لذا يمكن أنْ يتخلَّف المراد عنه، فإنه سبحانه يريد من عبده الصلاة والطاعة ولا يريد منه العصيان إلّا أنه يريد عبر إرادة العبد نفسه واختياره، فإنْ أجاب كان مطيعاً، وإنْ خالف كان عاصياً؛ لتقوم سُنَّة الاختبار على ذلك، وبهذا يظهر الفرق بين الأمر التكويني والأمر التشريعي من وجوه ثلاثة:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧٠، (شأن).

الأول: أنّ الأمر التكويني إرادة تكوينية تعود إلى قدرة الخالق، والأمر التشريعي إرادة تشريعية أي أمر ونهي وتعود إلى حُكم الخالق.

الثاني: أنّ الأمر التكويني يستحيل أنْ يتخلف عنه المراد والأمر التشريعي لا يستحيل.

الثالث: أنّ الأمر التكويني يتعلق بإيجاد الأشياء وتكوينها مباشرة، وأما الأمر التشريعي فيتعلق بفعلها بواسطة فعل العبد، ومنه يظهر وجه الجمع بين القدرة الإلهية النافذة في الأشياء والاختيار في أفعال البشر، كما يتضح حِكْمَة وجود الشريعة وفلسفة الثواب والعقاب.

المفردة الثانية: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾

(إذا)، حينية؛ يراد بها بيان زمان تعلق الإرادة، والفعل الإلهي يمكن أنْ يقع في الزمان ولا يَخلّ بصفات جماله وجلاله؛ لأن الفعل من الحوادث، بخلاف ذاته تبارك وتعالى فإنها مجردة عن الزمان والمكان على ما قُرِّرَ في علم أصول الدين.

والإرادة مأخوذة من رادَ يَرود وهو السعي في طلب الشيء، ومعناها في الإنسان قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل(١) يعبر عنها بالعزم على الفعل أو الترك بعد تصور الغاية المترتبة عليه من خير أو نفع أو لذة ونحو ذلك، وهي أخص من المشيئة، فإنها ابتداء العزم بينما الإرادة متاحة، فمتى

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٧١، (رود)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٣٨١، (رادت).

حصلت صدر الفعل لا محالة[١]، وأما إرادته سبحانه للشيء فهي إيجاده له، وتشهد له الأخبار المعتبرة.

منها: رواية صفوان قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ فقال: «الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل؛ وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه، وهي صفات الخلق، فإرادة الله سبحانه الفعل لا غير ذلك يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا قول ولا نطق بلسان ولا هِمَّة ولا تفكر ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له»[٢].

وبعض أهل اللغة عرَّفها بالمشيئة وهو من باب الاستعمال؛ لصحة استعمال إحداهما مكان الأخرى، إلّا أنّ الإرادة من صفات الفعل وهي أخص من المشيئة، وقيل بعكس ذلك[٣]، وهو غير سديد؛ لِما رويَ عن عاصم بن حميد أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لم يزل الله مُريداً؟ قال: «إنّ المُريد لا يكون إلّا لِمُراد معه. لم يزل الله عالِماً قادراً ثم أراد»[٤]

ومن ذلك يتضح أنّ إرادته سبحانه على ضربين:

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٥، (١٣٨).

(٢) الكافي: ج١، ص١٠٩-١١٠، ح٣؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٦؛ تفسير البرهان: ج٤، ص١٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧١، (شيء).

(٤) الكافي: ج١، ص١٠٩، ح١؛ وانظر التوحيد: ص١٤٦، ح١٥؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٦، (رود).

الأول: إرادة حتم، وهي الإرادة المتعلقة بالتكوين كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وكل ما ليس من أفعال العباد الاختيارية، بل وليس لأفعال العباد دخل فيها، وهي المعنيّة بالآية الشريفة محل البحث بقرينة قوله: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾[١].

الثاني: إرادة حُكم، وهي المتعلقة بأفعال العباد وأعمالهم الاختيارية من الأمور التكليفية[٢]، ويُعبَّر عن الأولى بالإرادة التكوينية، والثانية بالإرادة التشريعية، وبهذا وردت الأخبار عن أئمتنا عليهم السلام[٣].

و: ﴿**شَيْئاً**﴾ الشيء هو ما يصح أن يُعلَم ويُخْبَر عنه، ولذا يوصَف به الموجود والمعدوم سواء كان في الوجود التقديري أو الذهني أو الخارجي، كما يُطلَق على الباري عزّ وجلّ وعلى غيره[٤]، وهو أعم العام يجري على الجسم والعرض والقديم والمحال ذاتاً وعرضاً، وفي وصفه سبحانه: (شيء لا كالأشياء)[٥] وقوله: ﴿**أَرَادَ شَيْئًا**﴾ أي إيجاد الذوات وصورها وصفاتها وحياتها وموتها إبداعاً وإعادة، والتنكير والإطلاق في قوله: (شيئاً) يؤكد سعة العموم بحيث لا يخرج عن حيطة قدرته شيء، وهنا سؤالان:

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٧-٣٨، (١٣٨).

(٣) الكافي: ج١، ص١٥٠.

(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٧١، (شيء).

(٥) التوحيد: ص٥٩؛ شرح أصول الكافي: ج٣، ص٥٩؛ خاتمة المستدرك: ج٥، ص٢٥١، ح٣٠٦؛ معجم الفروق اللغوية ص٣٠٧، (١٢٣٣)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٥٤، (شيأ).

السؤال الأول: هل المعدوم شيء؟

والسؤال الثاني: هل تتعلق إرادته سبحانه بالمعدوم؟

والجواب عن الأول: أنّ المعدوم شيء باعتبار التقدير؛ إذ يصح أن يُعلَم ويُخبَر عنه، فيُقال المعدوم غير موجود

وأما الثاني ففيه جوابان:

الأول: ما ذكره بعضهم من أنه سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً في عالَم اسمه عالَم المثال، فالأشياء موجودة بالفعل لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالَم الوجود[1]، وهو باطل من وجوه:

أولاً: لاستلزامه أزلية العالَم وقِدمه والقول بتعدد القُدماء.

وثانياً: أنه لا يُجيب عن السؤال؛ لأن لسائل أنْ يسأل حينما خلق الأشياء كانت غير موجودة فهل تتعلق بها الإرادة ؟

وثالثاً: أنّ ما ذكره مخالف لمنطوق الآية؛ لأنها صريحة في عالَم الخلق، والجواب يتعلّق بعالَم الإظهار.

والخلاصة: أنّ الجواب غير صحيح.

والثاني: أنّ إرادته تتعلق بالشيء غير الموجود فيوجده، وغير الموجود قسمان: غير الموجود لاستحالة وجوده وهو ما يُعبَّر عنه بممتنع الوجود مثل شريك الباري، أو اجتماع النقيضين، والثاني غير الموجود لعدم تعلق

---

(١) تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٩١.

إرادة الموجِد بإيجاده وهو ما يُعَبَّر عنه بممكن الوجود، والأول لا تتعلَّق به الإرادة لقصوره عن الوجود لضعف فيه وليس في القادر، فالعجز في المقدور كما مثّلنا له بعدم ارتماء الريشة إلى مسافة عشرة أمتار من قِبَل بطل يرمي الثقل بوزن عشرة كيلوات خمسين متراً، فإنّ القصور في المقدور منع الارتماء لا قصور الرامي.

وأما الممكن الذي لا يمتنع وجوده فتتعلق به الإرادة لإيجاده. أما كيفية إيجاده وتعلق الإرادة به فعقولنا تقصر عن درك ذلك، وإليه تشير الرواية خلق الأشياء لا من شيء، فإنّ الخلق تارةً يكون للشيء من شيء، وتارةً من لا شيء، وكلاهما باطلان؛ لأن الأول تحصيل حاصل، والثاني تناقض ومستحيل، ولا من شيء هو الإيجاد الإبداعي الذي تقصر عقولنا عنه[1].

وهذا أيضاً من قصور العبارة، والمعنى أنّ الأشياء حاضرة في حيطة علمه وهذه تتعلق بها الإرادة تعلقاً بسيطاً إبداعياً، فكما في المبدأ إبداع كذلك في الإعادة، وبهذا يبطل سؤال مُنكري المعاد عن كيفية الإعادة، فإنّ الأمر يتعلق بالقدرة والإرادة، والإنسان في أفعاله يقوم بهذا لكنه غافل، فإنّ الشخص الجالس في مكانه إذا يقرر الخروج يقوم ويخرج ولا يحتاج إلّا إلى تعلق الإرادة، فلا يحتاج إلى مقدمات ولا استعانات ولا قول، بل مجرد أن يقوم يذهب بلا فاصلة، ولو كان واقفاً يجلس، كذلك جمال الله وجلاله يتجليان في البشر، ولكن البشر في غفلة عميقة، وهذا المُنكِر للمعاد الذي يستبعد ذلك هو يقوم بهذا لكنه غافل عنه.

---

(١) انظر الاحتجاج: ج١، ص٢٣؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٥٨، (شيا).

وما يجب أنْ نعرفه أنّ القياس بين قدرتنا المحدودة وقدرة الله تعالى اللّامحدودة غير صحيح، فإنّ قدرته مُطلقة، والقادر المُطلق قادر على كل شيء وإنْ كنا لا نُدرِك كيفية ذلك.

المفردة الثالثة: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

فيها قراءات عديدة[1] والصحيح ما ورد في نصّ الآية، وهو أخص تعبير للدلالة على ثلاثة أمور:

الأول: بيان كيفية تعلق إرادة الخالق بإيجاد الأشياء وهو القول، وقوله كناية عن فعله، ولا يراد به القول اللفظي، بل حمله على القول اللفظي ممتنع؛ لاستلزامه وجود القول والمعنى قبل وجود الشيء.

الثاني: بيان عدم انفكاك المراد عن الإرادة، واستغناء فعله عن المادة والمدة والإعانة أو الشباهة ولا أي شيء آخر سوى إرادته سبحانه، وهذا هو معنى الغنى المطلق.

الثالث: بيان قدرته على إعادة خلق الأشياء في المعاد بقدرته على إيجادها بقوله: (كن)، وفي ذلك يجيب عن شبهة مُنكري المعاد الذين توهموا استحالة إعادة الأموات بسبب انعدام موادهم، فأجابهم بأنّ فعله لا يتوقف على مواد سابقة، وإنما يقول للشيء كن فيكون.

و(الفاء) للتفريع المباشر بلا فاصلة زمانية، و(الكون) هو الوجود، و(كن) أمر يراد به بيان تعلق الإرادة بالإيجاد، والضمير في (له) يعود على

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٥؛ التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٨٠.

الشيء الشامل لكل ما يقبل الوجود، وهو ظاهر في مخاطبة الأمر الموجود، ويشمل المعدوم بلحاظين:

الأول: كونه موجوداً في علمه وتقديره ثم تتعلق الإرادة بإيجاده، بل بعضهم عرَّفَ الإرادة بالعلم بما في الفعل من المصلحة(١)، وآخر بعلمه بنظام الكل على الوجه الأتم الأكمل(٢)؛ لبيان أنّ الإرادة والمراد لا ينفكان، وقد ورد في تفسير القمي في معنى الآية: (فإنّ خزائنه في الكاف والنون)(٣) وفي التوحيد بسنده عن مقاتل بن سليمان قال: قال أبو عبد الله الصادقعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لمّا صعد موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطور فناجى ربه عزّ وجلّ قال: ربِّ أرني خزائنك، فقال: يا موسى، إنّما خزائني إذا أردتُ شيئاً أنْ أقول له كُن فيكون﴾(٤) ومفاده إيجاد الأشياء بالتقدير العلمي لا بوجود سابق لها.

الثاني: كونه مُقدَّراً أنْ يوجد فيكون التقدير تحديداً وتشخيصاً له، وبها يخرج من العدم المطلق إلى العدم الخاص، والعدم الخاص له حظ من الوجود، فإذا تعلقت به الإرادة بالفعل وُجِدَ وظهر.

وفي الاحتجاج عن أبي إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿ولا أحده بلفظ شق فَم، ولكن كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ**

---

(١) النافع يوم الحشر: ص٤١، أقول؛ كشف المراد: ص٣٥٨؛ شرح إحقاق الحق: ج٢، ص١٢٨.
(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٧، (١٣٨).
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٨.
(٤) التوحيد: ص١٣٣، ح١٧؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤٠٦.

﴿فَيَكُونُ﴾[١] بمشيئته من غير تردد في نفس»[٢].

وفي نهج البلاغة: «يقول لِمَن أرادَ كونه (كن) فيكون لا بصوت يُقرَع، ولا بنداء يُسْمَع، وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً»[٣] والأخبار بهذا المعنى كثيرة[٤].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) الاحتجاج: ج٢، ص١٥٦.

(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٢٢، خطبة ١٨٦.

(٤) انظر البحار: ج٣، ص١٩٦.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: ما يوجد بكن من الموجودات

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ يدل على قضية دقيقة، أي إذا أراد إيجاد شيء في وقت معين يقول له كن فيكون، وهذا يشمل ثلاثة أنواع من الوجودات:

الأول: المعاجز والكرامات كشقّ القمر، وقوله في نار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[1] فإنه بمجرَّد إرادته تتحقق بلا استعدادات سابقة.

الثاني: العقوبات الاستئصالية كما في قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا عقروا الناقة: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾[2] بالزلزلة والصيحة فابتلعتهم الأرض[3].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٦٩.

(٢) سورة الشمس: الآية١٤.

(٣) نفحات الرحمن: ج٦، ص٥٠١.

الثالث: التحويلات بتبديل البشر إلى قردة كما في قوله تعالى: ﴿**كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[(١)] فإنّ هذه الوجودات تتحقق دفعة وبلا إعداد مسبق وأما سائر الموجودات فتوجد ضمن نظام عام يتوقف على عِدَّة، ويستغرق مدة، وهو تدريجي الحصول، مثل خلق الإنسان فإنه يطوي مراحل استعدادية كثيرة منذ تكوين نطفته إلى تكوينه في الرحم، والنبات والحيوان وكل شيء في عالَم الوجود خاضع لنظام خاص في الوجود، ولا يوجد (بكن فيكون) إلّا عند الضرورة.

إن قلت: إن هذا يتنافى مع أطلاق الآية الدالة على أن كل شيء يوجد بكن فيكون، والجواب من وجوه أذكر ثلاثة منها:

الوجه الأول: أنّ الآية المباركة لا تبيّن الوقوع الفعلي بل القدرة على الإيقاع؛ لمكان ﴿**إِذَا أَرَادَ**﴾[(٢)] و ﴿**أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[(٣)] فإنّ ذلك ظاهر في القدرة على الفعل لا وقوعه، وكل الموجودات بلحاظ القدرة متساوية يمكن أن توجد بقوله: (كن) إلّا أنه سبحانه شاء أن يكون الإيجاد بنحوين:

أحدهما: بكن فيكون كما في الموارد الثلاثة المذكورة.

وثانيهما: بنظام السببية وطي المقدمات الاستعدادية للإيجاد.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٥.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

والإيجاد بنظام السببية لا ينفي القدرة على الإيجاد الدفعي وبكن فيكون.

الوجه الثاني: أنّ الإيجاد بنظام السببية هو أيضاً يوجد (بكن فيكون) من جهتين:

الأولى: أصل جعل النظام لم يوجد تدريجياً بل دفعياً، وجعل الكل يلازم جعل الجزء كذلك.

الثانية: الإيجاد بحسب النظام فإنه يطوي مراحل إيجادية في كل مرحلة ليكون الإيجاد بنحو كن فيكون، فتكوين الإنسان من التراب إلى النطفة وإعطاؤها الحياة وإيداعها في الأصلاب وتخصيبها وطي مراحلها التكوينية -في كل هذه المراحل الوجودية- تكون بـ(كن) لكن سرعة الإيجاد وقصور اللحاظ وائتلاف الحالة ومعهوديتها تصرف النظر عن ملاحظة الدفعية الحاصلة في الإيجاد، ولو تأملنا ودققنا النظر لوجدنا أنّ العالَم كله إعجاز، وكله يقوم بنظام كُن فيكون، ولكننا لا نلتفت إلى تفاصيل إيجاده.

الوجه الثالث: أنّ الآية ذكرت قانون إيجاد الأشياء، ويمر بثلاث مراحل:

الأولى: أن يريد الخالق إيجادها.

الثانية: أن تتعلق الإرادة بذلك، ويدل عليه قوله: ﴿**نَّقُولَ لَهُ كُن**﴾.

الثالثة: مرحلة الوقوع وهو قوله: ﴿**فَيَكُونُ**﴾ وهذه المرحلة تحليلية عقلية، ويخضع لها الإيجاد الدفعي والتدريجي، وكلها من قبيل كن فيكون إلّا أنّ بعض الوجودات تتعلق الإرادة بإيجادها دفعة كالمعجزة فتوجد بلا مقدمات، أو بمقدمات متسارعة جداً لا تُؤخَذ بالحسبان، وبعضها الآخر

تتعلق بإيجادها تدريجياً؛ لوجوب حفظ النظام في الخلق والتكوين، أو لحاجة المخلوق وتكامله إلى النظام.

فالخلق والإيجاد في جميع الأحوال خاضع لنظام كن فيكون إلّا أنّ النظام نفسه خاضع لنحو تعلق الإرادة، فلو تعلقت الإرادة بإيجاد الموجود التدريجي بإيجاده دفعة لوُجِد كذلك كما في خلق عيسى عليه السلام، أو خلق آدم عليه السلام، فبعد أنْ كوَّنَ بدنه نفخ روحه فيه بقوله كن إذ قال: ﴿**كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[١] ولو أرادَ ما هو دفعي أنْ يوجد تدريجياً لكان كذلك، ويدل عليه (فيكون) الظاهر في الاستقبال فيرتفع التنافي، وسيأتي في اللطيفة الثالثة توضيح لهذا.

اللطيفة الثانية: ما المراد بقوله كن؟

في قوله تعالى: ﴿**أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[٢] اختلف المفسرون في أنّ القول لفظي أم فعلي على أقوال تتلخّص في قولين:

القول الأول: إنه لفظي، وهو لفظ (كن) نسب إلى أكثر العامة[٣]، ويرد عليه أنّ القول اللفظي يتوقف على وجود أدوات القول، وهو تجسيم أو تشبيه أو فقر وحاجة إلى الغير. قالوا: شؤون الله تعالى فوق ما تصل إليه الأفهام[٤]، وهو نوع إقرار بالإشكال وليس دفعاً له، ولو أجابوا بأنه يخلق

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) روح المعاني: ج٢٣، ص٧٧.

(٤) روح المعاني: ج٢٣، ص٧٧.

القول ويبدعه لكان أسلم وارتفع الإشكال، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في رواية مفصلة عن كيفية الخلق والإيجاد أنه خلق الحروف أولاً[١].

وقد اضطربت كلماتهم في تفسير كلام الله تعالى وبيان معناه، فالمعتزلة والكرامية قالوا: إنه حرف وصوت وهو حادث، وناقضهم الأشاعرة فقالوا: هو صفة نفسية للخالق وهو قديم[٢]، وعلى الأول لو أرادوا يتكلم به لا يخلقه لزمهم القول بالتشبيه والتجسيم، وعلى الثاني لزمهم القول بتعدد القدماء واجتماع القِدَم والحدوث في صفته سبحانه، إلى غير ذلك من الإشكالات التي لا يقرها عقل ولا نقل.

القول الثاني: أنه فعلي، أي أنّ قوله هو فعله، فإنّ خلقه يتحقق بمجرد تعلق الإرادة بإيجاده، وإنما عبَّر عن هذا الفعل بكلمة تدل عليه وهي (كن) وهو إخبار عن كيفية حدوث الأشياء وإيجادها، إذ لا يوجد تعبير يدل على سرعة الوقوع وانعدام الفاصلة الزمنية بين الإيجاد والوجود إلّا هذه المفردة، ولو كان البشر يدركون هذه الحقيقة بلا كلمة ولا لفظ لاستغنيَ عنها، إلّا أنّ قصور البشر عن درك الحقائق إلّا عِبْر الوسائط أوجب استعمال الألفاظ للدلالة عليها وهو قول الإمامية[٣]، استناداً إلى ما ورد

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٣٩، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٨٩، ح٩٩.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص١٠٤.

(٣) مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠١-١٠٢؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٣؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٤؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٦.

عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام، كما مرّ بعض ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام[١]، ويعزز ذلك شاهدان:

الأول: اللغة، فإنّ القول في اللغة يطلق على معان عديدة منها الدلالة على الشيء، ويشمل دلالة الفعل كما في قوله تعالى عن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢] وقولهنّ الخضوع والاستجابة له سبحانه.

الثاني: حكم العقل، فإنّ العقل يحكم بامتناع نسبة القول اللفظي إليه بالمعنى الذي ذكره العامة من جهتين:

الأولى: أنّ القول بمعنى اللفظ هو في نفسه مخلوق حادث، فإيجاده يتم بقوله: (كن فيكون) ويستلزم توقف القول على القول، وتوقف للشيء على نفسه، وهو دور، كما أنّ القول الثاني يتوقف على قول ثالث وهو تسلسل، والكل ممتنع.

الثانية: أنّ القول اللفظي يستدعي وجود سامع يسمع الكلام ويفهمه كالإنسان مثلاً، فيستلزم قِدَم الإنسان ووجوده قبل إيجاده، بل قِدَم اللغة التي يقع الكلام بها، فيقع الكلام فيهما كيف وجدا؟ إنْ كان بالقول لزم الدور والتسلسل، ولو قيل بعدم وجودهما استلزم لغوية القول؛ لعدم وجود مَن يسمع ويفهم، فحمل القول على اللفظ يستلزم المحال

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١١٩، خطبة ١٨٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١؛ انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨، (قول)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٦٧، (قال).

ويتلخص: أنّ القول في الآية يدور بين معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي، ويُحمَل على خلق القول مباشرة أو جعل الواسطة في الخلق، وهم وسائط الفيض الإلهي الذي دلَّت عليه النصوص، وهم الملائكة في رتبة دانية ومحمد وآل محمد عليهم السلام الأعلى رتبة بما أنهم خلفاء الله سبحانه في خلقه.

الثاني: المعنى المجازي، ويراد به الفعل والإيجاد بلا قول أو لفظ، وهو ما دل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تنافي بين القولين؛ لإمكان الجمع بحمل قوله عليه السلام على المعنى الظاهر، والأول على المعنى الباطن، أو أنّ قوله عليه السلام على قدر عقول المخاطَبين، وقد تواتر هذا المضمون في الأخبار. منها رواية جابر عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: ﴿اخترعنا من نور ذاته، وفوَّض إلينا أمر عباده، فنحن نفعل بإذنه ما نشاء، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا أردنا أراد الله، ونحن أحلَّنا الله عزّ وجلّ هذا المحلّ، واصطفانا من بين عباده، وجعلنا حجته في بلاده، فمَن أنكر شيئاً وردَّهُ فقد ردَّ على الله جلّ اسمه، وكفر بآياته وأنبيائه ورسله. يا جابر من عرف الله بهذه الصفة فقد أثبت التوحيد﴾[١] والبحث في هذا مفصل نوكله إلى مظانه[٢].

---

(١) البحار: ج٢٦، ص١٤، ح٢؛ مجمع النورين: ص٢١٤.

(٢) انظر الحقائق والدقائق: ج٦، ص٥.

اللطيفة الثالثة: بين الإرادة والمشيئة

الإرادة قد تستعمل في معان أخرى، ولذا بعضهم عرّفها بالمشيئة، ويستفاد من الأخبار أنّ الأئمة عليهم السلام تارة يطلقون المشيئة والإرادة على معنى واحد، وتارة على معنيين مختلفين، كما أحياناً يطلق على الإرادة المحبة والتقدير، كما قد يُعبَّر عن الإرادة بالقضاء كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾(١).

ووجه الجمع في ذلك هو اختلاف المراتب، فاختلاف التعبير ينشأ من اختلاف اللحاظ والمراتب، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بيان لذلك. قال عليه السلام: «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلّا بخصال سبع: بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل»(٢) وقريب منه ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام(٣).

ويتحصل منها: أنّ هذه الألفاظ متغايرة المعنى مترتبة الوجود، فالمشيئة قبل الإرادة، والإرادة قبل القدر، وهو قبل القضاء، وهو قبل الإمضاء أي الإذن، وهو قبل الوقوع والوجود، ومنها الكتاب والأجل، ومن باب تقريب غير المحسوس بالمحسوس مُثِّلَ له بخياطة الثوب، فإنك إذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً فلابد أنْ تكون عالماً بالغاية من خياطته كلبسه مثلاً وفوائده؛

---

(١) سورة البقرة: الآية١١٧.

(٢) انظر الخصال: ص٣٥٩، ح٤٦؛ الكافي: ج١، ص١٤٩، ح١؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٥٦٤، (شيأ).

(٣) الكافي: ج١، ص١٤٩- ١٥٠، ح٢؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٢.

إذ لولاها لَمَا أقدمت على خياطته، وبسبب الغاية يحصل لك ميل إلى لبسه، وهذه هي المشيئة، وهي تدعوك إلى خياطته، والإرادة تدعوك إلى تقطيعه بقياساتك وهو التقدير، ثم تباشر تقطيعه بحسب الحاجة بحذف الزيادات وضبط القياسات لكيلا تنقص وهو القضاء، ثم تخيطه وتجمع أجزاءه وتضعها في مواضعها وهو الإمضاء، وبه يتحقق وجوده الخارجي وهو الكتاب، والمدة التي تكوَّن بها هو لأجل[١].

وبه ورد الخبر عن الإمام الكاظم عليه السلام إذ سُئِلَ عليه السلام كيف علم الله؟ قال: ﴿عَلِمَ وشاءَ وأراد وقدَّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدَّر، وقدَّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم في المعلوم قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المُراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات﴾[٢] وقريب منه ورد في أحاديث عديدة[٣]، ويستفاد من الرواية دلالات مهمة:

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٨، (١٣٨).

(٢) الكافي: ج١، ص١٤٩، ح١٦؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٨- ٣٩، (١٣٨).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٢٥٧-٢٥٨، (شيأ).

منها: بيان كيفية حدوث الأشياء وانتقالها من ظرف العدم إلى الوجود، والذي وصفته الأخبار (لا من شيء) وأنها تجتمع في العلم الإلهي أولاً، ثم تتعلق بها المشيئة، ثم الإرادة، فالعلم متقدم على المشيئة والإرادة، وهذا حل عظيم لمشكلة كانت ولازالت محل بحث في كيفية إيجاد الأشياء.

ومنها: مكانة الدعاء والصدقة والعبادات في تغيير المُقدَّرات الإلهية، فإنّ الإرادة قبل الإمضاء قابلة للبداء، والدعاء والعبادة من عوامل تغيير المُقدَّرات؛ لأنه حتى في القضاء الإلهي هناك بداء، ومنه يتضح معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أفر من قضاء الله إلى قدره﴾[(١)] والبداء يتكيف في مرحلة الإمضاء، وأما قبله فكل شيء قابل للتغير، فإنّ القضاء المبرم هو الإمضاء.

ومنها: معرفة وجه الجمع الدلالي بين الأخبار العديدة التي اختلف التعبير فيها، فتارة تصف الإرادة بالمشيئة، وتارة بالتقدير، وتارة بالقضاء إلى غير ذلك.

ومنها: أنّ التقدير سابق على القضاء وليس كما هو المشهور على الألسنة من أسبقية القضاء للقدر فيُقال القضاء والقدر، كما أنّ الإرادة قد تُطلَق ويراد بها مجموع ذلك، وهو ما أشارت إليه الرواية المباركة، وهو المراد في الآية، وقد تُطلَق ويراد بها مرتبة من هذه المراتب، وبه ينحل الاختلاف الحاصل في منطوق الروايات، وبذلك يتضح وجه الجمع بين الوجود الدفعي والوجود التدريجي للأشياء.

---

(١) التوحيد: ص٣٦٩، ح٨؛ عوالي اللآلئ: ج٤، ص١١١، ح١٦٩؛ البحار: ج٥٦، ص٣، ح٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: مزايا الفعل الإلهي

إنّ قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] يعلّمنا أنّ فعل الله سبحانه يتميز بثلاث مزايا:

الأولى: أنّ جميع المقدورات متساوية لديه، فلا يوجد أقرب وأبعد، ولا كبير أو صغير، ولا عظيم أو حقير، ويكفي الكل أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فإنّ كل شيء مقهور صاغر له بدأه بقوله: (كن) وهي مفردة تدل على التصغير والمقهورية للأمر.

الثانية: أنه يصدر عن علم وقصد وإرادة، لا عبث فيه ولا جبر ولا خطأ.

الثالثة: أنه محكم متقن لا نقص فيه ولا خلل، وحتى ما يقوم به الإنسان من أفعال وأنشطة هي أيضاً من فعل الله سبحانه، فعلى الإنسان أنْ يتذكر هذه الحقيقة ويعرف قيمة التوكل وأهميته في حياته، ويتكل على الله تعالى في جميع أموره في رزقه وأمنه وسلامته وعموم شؤونه، وفيه يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2] أي يكفيه الأمور كلها[3].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) البحار: ج٦٨، ص١٥١، ح٥١؛ ج٧٥، ص٧٩، ح٥٦.

وفي جوامع كلم أمير المؤمنينعليه السلام: قال: ﴿مَن وثق بالله أراه السرور، ومَن توكل عليه كفاه الأمور، والثقة بالله حصن لا يتحصَّن فيه إلّا مؤمن أمين، والتوكل على الله نجاة من كل سوء، وحرز من كل عدو﴾(١).

والآثار المذكورة قد تكون من باب العطاء الإلهي جزاءً وفاقاً، أو من باب الأسباب والمسببات، وإذا وثق العبد بربه آتاه السرور بالتعويض عن الثقة، لأن أكثر الهموم والغموم والآلام والأحزان ناشئة من التوقعات الزائدة من الدنيا أو من الآخرين، فإذا صيَّرَ العبد ثقته بربه لا بغيره أفرغه من الهموم والغموم، ولو توكل والتجأ إليه في كل أموره كفاه صعوباتها.

فعلى الإنسان أن يعرف أنه بحول الله وقوته كائن ويقوم ويقعد ويتكلم ويأكل ويشرب وينجب ويقوم بأفعاله وأنشطته، فالغفلة عن هذه الحقيقة والاغترار بالقوة والقدرة والسُلْطة جهل بحقائق الأشياء تقود صاحبها إلى الهلكة.

التعليم الثاني: مزايا الناجحين والفاشلين

إنّ الباري عزّ وجلّ قدَّرَ أن يكون الإنسان فاعلاً حرّاً بالقصد والإرادة، وفعل الإنسان يقوم على أربعة أركان هي: العلم وهو المعرفة، والغاية وهي الفوائد، والطموحات والإرادة وهما العزم على الفعل والتنفيذ، ولا يتحقق فعل ناجح لدى الإنسان إلّا باجتماع هذه الأربعة مع بعضها البعض سواء في الأمور الشخصية أو الأمور النوعية العامة، ولو تتبعنا عوامل الفشل في كل عمل أو مشروع لوجدنا أنّ السبب يعود إلى

---

(١) البحار: ج٧٥، ص٧٩، ح٥٦.

فقدان بعض هذه العناصر، وحيث إنّ الإرادة بالمعنى الاصطلاحي تجمع الثلاثة الأوَل أي العلم والغاية والعزم فيُلخِّص علماء الإدارة عناصر الإنجاز بأمرين هما: الإرادة والتنفيذ.

فالناجحون يعملون بمعرفة وتخطيط مسبق وإرادة عمل وتنفيذ. أما الفاشلون فيملكون الطموحات لكنهم لا يملكون إرادة للفعل، أو يملكون إرادة الفعل لكنهم لا يفعلون، أو يفعلون بلا تخطيط ومعرفة، وهذا أحد أسباب التأخر والتخلف في بلاد العالَم الثالث، بالرغم من أنّ الكثير من الجهود والطاقات والأموال تُكرَّس للإنجاز لكن في الغالب إما لا تتحقق إنجازات للتقدم، أو إذا تحققت تكون ناقصة في مختلف المجالات، وتجد الوزارات يلوم بعضها بعضاً، والمسؤولون كلٌ يتخلى عن المسؤولية ويلقيها على غيره وهكذا.

والسبب أنّ الطاقة البشرية فيها لاسيما الرسمية وشبه الرسمية إما لا تمتلك إرادة للفعل، أو لا تمتلك معرفة للفعل، أو لا تريد أنْ تفعل لأسباب معروفة، ولذا تبقى دائماً في تأخر ومعاناة حقيقية، وهذه قضية لا تُعالَج إلّا بتقويم البنية الفكرية للمسؤول وصاحب القرار، ومَن يريد أنْ يحقق الإنجازات، وذلك يتحقق برفع مستوى المعرفة وتقوية الإرادة على الفعل، ومقارنة الإرادة للتنفيذ، وهذا هو الفارق بين الناجحين والفاشلين، وبين الدول المتقدمة والدول المتأخرة.

وهكذا يعلِّمنا الله سبحانه أنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كن فيكون، فالفعل لا يقع لمجرد العلم ولا مجرد الإرادة دون أنْ يقول كن، وهكذا الإنسان لا يقع فعله القويم إلّا بذلك.

التعليم الثالث: المدارس الفلسفية والكلامية في الإرادة

قوله تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ﴾[١] يدل على أمرين:

الأول: أنّ صفة الإرادة سابقة على فعله، فإنّه إذا لا يكون متصفاً بها لا يكون مريداً، ومعنى الإرادة في الآية هو التقدير والقضاء والإمضاء.

الثاني: أنه مختار في أفعاله، فربما يريد وربما لا يريد، وفي ذلك دلالة على ما تقدم بيانه، وهو أنّ التسلسل الرتبي للإرادة يكون سباعياً، فالإيجاد يبدأ من العلم أولاً، ثم الإرادة وهي المشيئة، والإرادة والتقدير والقضاء والإمضاء، ثم التحقق.

والمشيئة هي القدرة والاختيار، فإذا تعلق الاختيار بالشيء صار إرادة، وإذا تعلقت الإرادة بإيجاده تعيَّن أن يقدر له مُقدّراته ثم يحكم بإيجاده وهو القضاء، ثم ينفذ القضاء وهو الإمضاء، وبه يتم التحقق، وبهذا يمكن الجمع بين نظريات المدارس الكلامية والفلسفية في الإرادة، فقد اختلفوا فيها على أقوال عمدتها قولان:

الأول: ذهب إلى أنّ الإرادة من صفات الذات فهي قديمة.

الثاني: ذهب إلى أنها حادثة؛ لأنه يوجد الأشياء بقوله: (كن) كما في الآية، وإذا فيها زمانية، وكل ما يقع في الزمان فهو حادث، كما أنَّ كينونة الشيء متصلة بقوله (كن) وإرادته متصلة به، والمتصل بالحادث حادث، وهو قول بعض المتكلمين والحكماء[٢].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج١١، ص١٠٣.

ووجه الجمع هو ملاحظة المراتب المذكورة، فإنّ الإرادة تطلق على معان ومراتب عديدة، فإنْ عنى القائلون بالقِدَم مرتبة التقدير والقضاء والإمضاء فهو باطل؛ لأنها من صفات الفعل وهي حادثة، وإنْ عنى القائلون بالحدوث مرتبة العلم والمشيئة والاختيار فهو باطل؛ لأنها من صفات الذات وهي قديمة، وأما في الآية المباركة فالمراد بها صفة الفعل؛ لأنها ناظرة إلى إيجاد الأشياء وتكوينها لا مجرد القدرة عليها.

التعليم الرابع: حقائق علمية في التكوين

يستفاد من منطوق الآية جملة من الحقائق العلمية الهامة:

الأولى: أنّ قوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ**﴾[1] يدل على أنّ له جهة علوّ ومولوية وقيّومية على الأشياء، ولذا قال: ﴿**أَمْرُهُ**﴾ ولم يقل: (شأنه) والمولوية والقيّومية ملازمة لدوام الفيض وعدم انقطاعه عن الموجودات لحظة.

الثانية: قوله: ﴿**يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[2] يدل على أنّ مجرد الإرادة لا تكفي لإيجاد الأشياء تكويناً، فكذلك تشريعاً بالأولوية، فالقول مُبْرِز للإرادة تكويناً، فكذلك تشريعاً، وهذا ما قرره الفقهاء في أنّ العبادات والمعاملات تتوقف على الإبراز ولم يفرّقوا بين القولي والفعلي؛ لأن القول يشمل الاثنين كما بيَّناه في المفردات[3]، كما يؤكد ما قاله أهل المعرفة من ضرورة وجود الوساطة في الفيض الإلهي، وهي وساطة محمد وآل محمد عليهم السلام.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.
(٢) سورة يس: الآية ٨٢.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨ - ٦٨٩، (قول).

الثالثة: أنّ القول لمجرد الإبراز وليس سبباً للإيجاد، والعلّة التامة هي الإرادة، وهذا يقرر ما قاله الأصوليون في باب امتثال الأوامر الإلهية بكفاية معرفة ملاك الأمر، أو معرفة غرضه للتحرك والطاعة.

الرابعة: قوله: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾ يدل على صحة نظرية التوسيط في الأفعال ونظام السببية التي قالها أهل المعقول، وإذا كان الأمر كذلك في الفعل الإلهي دل على صحته في الأفعال البشرية بالأولوية القطعية، فإنّ سُنَّة القادر المطلق إذا جرت على التوسيط في الأسباب فإنّ الفاعل العاجز أولى بذلك، وتظهر أهمية هذا التعليم في الأعمال الإنسانية والاجتماعية والإدارية، فإنّ التفرد في الإنجاز ملازم للقصور والعجز بخلاف الاستعانة بالآخرين.

ومعلوم أنّ التوسيط في الفعل الإلهي لم ينشأ من حاجة الفاعل إلى ذلك، بل لحاجة الفعل من جهتين: تكوينية وتشريعية، ولحاجة المقدور إلى النظام العام الذي يقيم وجوده. أما الأولى فلعجز المقدور عن الإيجاد الدفعي المباشر دون توسيط، وأما الثانية فلأجل تعليم البشر ذلك وإيجاد الوسائط في ذلك، ومنه يتضح حاجة البشر إلى الحجة في التعليم والإنذار والتهذيب كالنبيّ والإمام والعالِم الرباني.

الخامسة: قوله: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1] يقرر ما ذكره أهل المعقول من تصنيف الإيجاد إلى بسيط وتركيبي، وما ذكره الأصوليون من تصنيف الجعل التشريعي إلى بسيط وتأليفي.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

السادسة: قوله: ﴿شيئاً﴾[١] و: ﴿له﴾[٢] يشمل الموجود التقديري والذهني والخارجي كما يشمل المعدوم إذا تقرر في الذهن، وتسمية المعدوم بالشيء لا بلحاظ تقرره في الخارج، ولا وجود حقيقته في الذهن؛ لأنه ممتنع، بل بلحاظ صورته ومفهومه، وبهذا ترتفع الشبهة التي يثيرها البعض في قولهم : (إنّ العدم لا يُخْبَر عنه)[٣] فكيف يقال: (التناقض مُحال) و: (شريك الباري ممتنع).

فالجواب: أنّ الإخبار بلحاظ تصوُّر المفهوم في الذهن والإخبار عنه كما يصح الإخبار عن المعدوم بضمير الغائب، وبذلك يتضح أنّ الموجود في نشأته الإلهية يمرّ بثلاث مراحل:

أولها: العلم.

ثانيها: التقدير، وهو من شؤون الإرادة.

ثالثها: الإيجاد، وهو من شؤون الفعل، وأما في الواقع الإنساني فليس له أكثر من مرحلتين هما: الوجود الذهني والوجود الخارجي، فإنّ التقدير من مراتب الوجود الذهني وليس مستقلاً عنه.

السابعة: إنّ الإرادة التكوينية لا يختلف عنها المراد، ولكن حدوث المراد متوقف على التعلق، ولذا قال: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾[٤] ومنه يتضح أنّ تعلق الإرادة لُطف إلهي ومِنَّة به على الخلق، ولو شاء أنْ يمنع تعلقه فسيبقى المقدور في كتم العدم.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

(٣) المنطق: ص٧٥، الرقم ٢.

(٤) سورة يس: الآية ٨٢.

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

يس/ ٨٣

ملكوتهم بيده

(الفاء) في قوله: (فسبحان) للتفريع، وتتضمن ثلاث دلالات:

الأولى: تنزيه الباري عن تقوّلات الملاحدة والكفار الذين أقروا بوجوده وأنكروا قدرته على إحياء الموتى؛ لأنه متنزه عن كل عجز.

الثانية: بيان عموم قدرته وسلطته وقيوميته للأشياء، فلا يعزب عن علمه وقدرته شيء في السماوات والأرض.

الثالثة: بيان قدرته لِما هو أعجب من وجودات الأشياء المادية أو الظاهرة، وهي القدرة على أمورها الباطنة، فليس المُلك بيده فقط بل ملكوت الأشياء كذلك، فكما أنه قادر على إيجاد الأشياء وقادر على إعادتها بهياكلها المادية الظاهرة فإنه قادر على إيجاد أرواحها وإحيائها، فهو الذي جعل الأرواح حية في أصل الإيجاد وبعد أنْ تموت في الصعق الأول كما في قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ**﴾[1] فإنّ جميع الأرواح تموت إلّا مَن خصَّهم بالحياة وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، كما قال: ﴿**إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ**﴾ وهم مَن شاء الله أنْ يبقيهم أحياء، وبالنفخ الثاني يعيد الحياة لأرواحهم ويديم حياتها: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٨.

وكذلك بيده العقول والقلوب والضمائر، فحياتها وموتها بيده، فالتفريع في الآية يشير إلى ثبوت حقيقة كلية مفادها أنّ الله سبحانه مالك لكل شيء في الوجود، وقيّوم عليه، فالوجود بظاهره وباطنه ملك له وتحت أمره وقدرته، وبهذه النتيجة يشير إلى حقيقة تحدَّث عنها في بادئ السورة وفي وسطها وهي: الإنذار والهداية التي أرسل بهما يس وأنزل معه القرآن الحكيم لينذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون، فدعاهم إلى الإيمان بالخالق وتصديق النبيﷺ وكتابه والإذعان لعدالته والتمسك بولاية الإمامعليه السلام واتِّباعه، وأشار إلى أنّ كل شيء أحصاه في إمامٍ مبين.

وفي وسط السورة أكد على العهد الذي أخذه من بني آدم أنْ لا يعبدوا الشيطان؛ لأنه عدو مبين، وأنْ يعبدوه، ووصف عبادته بالصراط المستقيم ثم دعاهم إلى الإيمان بالمعاد، ولما عاند أهل الدنيا ونقضوا العهد بيَّنَ هنا أنكم رفضتم الإيمان باختياركم، لكن جوانحكم وقلوبكم بيده، ولو شاء أنْ يهديكم لهداكم ولكنه أراد للبشر أنْ يكونوا مختارين يفعلون كما يشاؤون، ويجازون على ما يفعلون.

فالاعتقاد الحق بأصول الدين الخمسة والاهتداء إليها قضية ملكوتية تتعلق بأرواح البشر وعقولهم وقلوبهم، والتسليم لها وإنْ كانت تقوم على الاستدلال العقلي إلّا أنها في أصلها تعود إلى قضية قلبية، فالقلب النيِّر الذي يلين للحق يتقبَّل الاستدلال وما يملي عليه العقل، وأما القلب الأسود القاسي فلا يستجيب لنداء العقل، وهذه كانت صفة الكفار الذين كانوا يؤمنون في واقعهم، ويجحدون خوفاً على مصالحهم كما بيَّنا ذلك مفصلاً،

وتليين القلوب أمر بيد الله سبحانه، ولا يتوفق لها كل أحد، وهو ما أكدته الآية، فمُلك العالَم وملكوته كله بيده؛ لذا لا يستغني العبد عن الدعاء والتوسل والتوكل لبلوغ مقاصده، ومنه يتضح أنّ هذه الآية المباركة فيها مبدأ الكلام وختم الكلام، وهو أنّ العالَم كله من الله والى الله، فعبثاً يُنْكِر المنكرون ويشك المشككون ويتمرد المغرورون المتكبرون، أو يطغى الطاغون، فإنهم أينما كانوا وكيف فعلوا فإنّ مبدأهم منه، ومرجعهم إليه سبحانه، وهو ما نصت عليه الآية الكريمة، والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي﴾

السبحان مصدر يتضمن معنى التنزيه والتعجب[1] كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] فإنه يتضمن تنزيهه من أوصافهم، ويتعجب لقصور عقولهم ووضاعة فكرهم حتى يقارنوا الخالق العظيم والغني المُطْلَق بغيره الحقير العاجز، فالسبحان يتضمن دلالتين:

الأولى: تنزيهه تعالى عن الشريك والمماثل فلا يشبهه أحد في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإنه سبحانه خلّاق عليم، وقادر مطلق، ومحيي ومميت، ولا شيء غيره على هذا الحال.

الثانية: تنزيهه عن الجهل والعجز والظلم، فإنّ فعله عن علم وقدرة مُطْلَقة وعدالة، ويحاسب الناس على أعمالهم.

و(الذي) اسم موصول ويتضمن الإخبار عن البعيد لتأكيد التنزيه عن أوهام البشر وعقولهم، ولتنزيه فعله عن النواقص والعيوب، وتدل على

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٤١٢، (سبح)؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٨٥؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٦٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١؛ سورة الصافات: الآية ١٥٩.

التعجب أيضاً. إما لأنه سبحانه متفرد في كل شيء، فهو تعجب إيمان ومحبة، أو لأن المنكرين شاهدوا الآيات، ورأوا آثار قدرة الله وعلمه في كل شيء، ومع ذلك يعبدون غيره وينكرون المعاد، فهو تعجب استغراب واستنكار، ولا مانع من الجمع؛ لجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بل لجوازه بالدلالة التضمنية أو التلازمية باتفاق الكلمة.

المفردة الثانية: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

فيها أكثر من قراءة ولا أساس لها من الصحة[١]، و اليد الأصل فيها الجارحة[٢]، وإذا نسبت إلى الباري عزّ وجلّ تحمل على المعنى المجازي وهو القوة؛ لامتناع المعنى الحقيقي عليه سبحانه من باب تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، والمراد بها القدرة والقوة، و (الباء) في (بيده) تحتمل معنيين:

أحدهما: السببية، والمعنى أنّ بسبب قوته وجدت الأشياء، وبسببها تعمل وتتحرك وتزاول نشاطها.

ثانيهما: الظرفية، والمعنى أنّ ملكوت الأشياء في مُلكه وحوزته يتصرف فيها كيفما يشاء، واليد في كل شيء ما يتسلط عليه ويستحكم فيه، فمن السيف مقبضه، ومن الثوب كمّه، ومن النعمة والإحسان اصطناعهما، ومن السلطان قوته وقدرته، ومن القائد والزعيم أنصاره وهكذا[٣]، ولا تنافي بين المعنيين، والثاني أظهر، بل أشمل؛ لتضمنه للمعنى الأول كذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٥٤.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٩، (يد).
(٣) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٦٣، (يد).

و(الملكوت) مصدر من المُلك زيدت الواو والتاء للمبالغة، مثل الجبروت للمبالغة في الجبر، والمُلك بضم الميم أو بكسرها هو ما يملك ويتصرف فيه بالحيازة أو بالقوة عليه[(١)]، فالملكوت مبالغة في المُلك، ولا يصح إلّا في مُلك الله سبحانه لخلقه؛ لأنه يملك كل شيء فيهم بظواهرهم وبواطنهم، فله على الخلق المالكية والحاكمية المطلقة، وبين الملك والملكوت ثلاثة فوارق:

الأول: أنّ الأول يُدرَك بالحسِّ ويختصُّ بعالَم الشهادة أما الثاني فيُدرَك بالعقل والقلب وهو من عالَم الغيب.

الثاني: أنّ عالَم المُلك كقطرة من البحر بالقياس إلى عالَم الملكوت؛ لذا يقال له مُلك بلا مبالغة، بينما للثاني ملكوت؛ لِما تقرر أنّ زيادة المباني تدل على زيادة المعاني[(٢)].

الثالث: أنّ المُلك يشترك به الخالق والمخلوق. أما الملكوت فهو من مختصات الخالق عزّ وجلّ.

ولعلّ الآية ذكرت الملكوت دون المُلك لسببين:

الأول: لأنّ الملك معلوم يقيناً بمقتضى الخلق والإيجاد، فإن الخالق مالك بالضرورة، وحيث إنّ الناس يقرّون بخلاقيته فيقرّون بمُلكه، وهذا ما لا يخفى على أحد، فذكره يكون من توضيح الواضح.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٧٤، (ملك)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٦، (ملك).

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٥١١، (٢٠٦٣).

الثاني: لأن المُلك ما يُدرَك بالحسِّ بخلاف الملكوت لأنه غير محسوس، فلابد من التنبيه عليه والإشارة إليه. هذا وقد اختلف المفسرون في المراد بالملكوت على أقوال:

القول الأول: إنه وجود الأشياء، فإنّ كل موجود ممكن مركب من جزء مُلكي وهو الماهية وجزء ملكوتي هو الوجود، والوجه في وصف الأول بالمُلكي لأن الماهية بها قوام ذات الشيء، فمرجعها إلى نفس المخلوق، فهي دانية الرتبة بخلاف الوجود فإنه إفاضة ربانية من الوجود العالي كان ملكوتياً[١]، وهو ضعيف جداً، ولا دليل عليه، بل الدليل على خلافه.

أولاً: لأن الماهية والوجود ليسا بحقيقة واقعية، وإنما جزءان تحليليان عقليان، فإنّ العقل يلحظ ما به الاشتراك بين الموجودات وما به الامتياز فيقسمه إلى جزءين، وقد اتفق أهل المعقول على أنّ الماهية والوجود ذهنيان لا خارجيان، وليس في الخارج إلّا الموجود، وهذا الموجود مُلكي وملكوتي.

ثانياً: أنّ الماهية هي الأخرى من الله سبحانه، فإنه مُوجِد الذوات ومذوّتها، فيعود السؤال لماذا لم يصفها بالملكوت.

القول الثاني: إنه كل ما يتعلق بعالَم الغيب كالأرواح والنفوس والملائكة وعجائب السماوات والأرض التي لا تُدرَك بالحواس[٢]، ولأن

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٨٤.

(٢) تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٩٩؛ تفسير الصافي: ج٤، ص٢٦٣؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٨٧؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص١١٧.

الآية وردت تفريعاً عن آيات المعاد وكيفية إحياء الموتى وحشرها إلى الحساب - وذلك كله من عالَمَ الغيب الذي لا يُدرَك بالحواس - ناسبَ التعبير بالملكوت.

القول الثالث: ما به قوام الشيء وجوهره[١]، ومنه قولهم ملاك الأمر أي قوامه، وخلاصته وعنصره الجوهري[٢]، ويعود إلى الأول والثاني.

القول الرابع: التزم بالمعنى اللغوي فحمله على المبالغة في المُلك، والمعنى أنّ بقدرته مَلَكَ كل شيء[٣]، وضعفه ظاهر مما تقدَّم ؛ لأنّ الفرق بين المُلك والملكوت ليس في الصيغة اللفظية، بل المعنوية، فهو تعريف بالأخص.

القول الخامس: إنه أسرار الوجود الأعم من المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية، فإنّ عالَمَ المُلك والشهادة ليس كله ظاهر للعيان، وحتى ما هو ظاهر يحتوي على خفايا وأسرار لا يعلمها الإنسان ولا يكتشفها من نفسه، بل تنكشف له بأمر الله تعالى.

وقد ذكر بعض أهل المعرفة: أنّ أسرار الكون يظهرها الله سبحانه للبشر، وهو الذي يقرر إظهارها لهم في عصر وزمان.

---

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٦٥.

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٦، (ملك).

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٦٣؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٩٢؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص١٠٢.

فإنّ العلوم والمعارف لها مواليد، والإنسان باحث ومتحر عنها، ولكن بلوغ النتائج البحثية ليست بيده، بل بيد الله سبحانه هو الذي يهديه ويرشده إليها، وهو الذي يكشف له الحقائق والأسرار.

وعليه فإن كان الإنسان باحثاً وقدَّرَ الله تعالى أن يظهر السرّ على يديه فيكون مكتشفاً له، وإلّا أظهره الله سبحانه على يد غيره، وهذا أحد معاني قولهم عليهم السلام: ﴿إنّ لربكم في أيام عصركم نفحات فتعرضوا لنفحاته﴾[1] وقد قيل إنّ الكثير من مكتشفات الحياة ظهرت للناس مصادفة، أي أنّ الله سبحانه أظهرها لهم بلا جهد وتعب منهم[2]، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء**﴾[3] فإنه لولا أنْ يأذن الله سبحانه بظهور العلم لَمَا ظهر، ولذا لازالت الكثير من العلوم أسراراً، بالرغم من أن الجامعات والمعاهد والأبحاث لازالت تتوصل إلى المزيد والجديد مع أنّ الجهود كانت متواصلة منذ القدم.

والخلاصة: أنّ ملكوت الأشياء أسرارها الباطنية وهي بيد الله سبحانه يظهرها لعباده متى شاء، ويتلخص من مجموع الأقوال أنها تجمع على قولين هما المُلك بنحو عام والملكوت بنحو خاص، وهذا الثاني فيه أقوال جامعها المعنى الباطن.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١١، ص١٣٥.
(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٩٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

والحق أنّ جميع الأقوال تامة في نفسها ولا تنافي بينها؛ لأن الآية مطلقة، وما دام لا يوجد دليل على التقييد فحملها على الجميع بلا مانع.

والملكوت إذا ذُكِرَ وحده يشمل المُلك وزيادة بالتضمّن والأولوية، ولا يقال إنّ إضافة الملكوت إلى كل شيء في قوله: ﴿**مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾(١) يدل على الحصر بالمعنى الباطن، لأن الإضافة تقتضي وجود المضاف إليه أولاً، فلابد أنْ يكون الشيء بوجوده المُلكي موجوداً، ثم الملكوتي؛ لأن المُلك والملكوت متلازمان ولا ينفكان إلّا أنّ معرفة الإنسان قد تكون بأحدهما دون الآخر، فلا سابقية وجودية للمُلك على الملكوت، بل ما يستفاد من الأدلة القرآنية والروائية أنّ الملكوت سابق وجوداً على عالَم المُلك وعليه وجبَ أنْ يكون المعنى معكوساً.

فالحق أنه سبحانه مالك لكل شيء وحاكم في مُلكه وملكوته، وبوجوده الظاهر والباطن، ومالك وحاكم في الأشياء التي يعرفها البشر والتي لا يعرفها، وبهذا المعنى تحاكي الآية الآية التي سبقتها: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾(٢) سواء كان الشيء مُلكياً أو ملكوتياً، وسواء كان في نشأته الأولى أو نشأته الثانية بعد الموت، كما أنه مالك وحاكم على بواطن المخلوقات وأسرارها، ومنها هداية العقول والقلوب إليه سبحانه.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٣.

(٢) سورة يس: الآية ٨٢.

المفردة الثالثة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ومرجع الضمير في إليه يعود إلى الذي بيده ملكوت كل شيء، ورفع التاء بصيغة الفعل المبني للمجهول يدل على الرجوع القهري إما بالمباشرة بإرجاعهم إليه في المعاد، أو التوسيطي، أي مآل الناس إليه، والملفت أنّ الإرجاع يكون إليه لا إلى حسابه وعقابه أو معاده؛ لأنه الحكم العدل، وفي ذلك دلالة وضمانة. أما الدلالة فهو أنّ مبدأكم كان منه وعودكم كذلك إليه، فالعبد يتقلب بين إرادة الله تعالى وقدرته وهو في حيطة علمه من أوله إلى آخره، وفي ذلك بيان لحقيقة عظيمة في توحيد الربوبية والألوهية للعباد، وهي عصارة غرض السورة.

وأما الضمانة فلأنّ الرجوع إليه يوجب اطمئنان قلوب العباد في أنهم لا يُظلَمون، فلا المؤمن الصالح يضيع أجره، ولا المسيء يُعاقَب بأكثر من عمله، بل لو أحسن الظن به فإنه يُحاسَب بلطفه وامتنانه لا بعدله، وهذا من روائع التعبير الذي يعالج النفوس المضطربة والقلوب الوجلة.

هذا وقد قرأها البعض بفتح التاء بصيغة الفعل المعلوم وهو ضعيف؛ لما عرفت من الإشكال فيه[1].

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٧٧.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

اللطيفة الأولى: هذه يد الله سبحانه

اليد في قوله سبحانه: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ﴾[1] يشمل معنيين:

الأول: يد الله سبحانه والمراد بها المعنى المجازي أي قدرته، فإنّ القدرة كناية عن اليد، وهذا أمر واضح لا يشك فيه أحد ولا يختلف أحد في أنه سبحانه متنزه عنه.

الثاني: ولي الله، لأنه يد الله في خلقه، وهو النبي والإمام عليهما السلام؛ إذ تصرفه وفعله وعطاؤه يمثل فعل الله وعطاءه، وهذا المعنى يستدعي التنزيه والتعجب لضعف إيمان الناس به، أو لوقوع الاختلاف فيه عادةً لوقوع الشك في أنّ الإنسان كيف يصبح عالماً بالأمور وقادراً عليها وهي مستجيبة لإرادته، ولكن إذا التفت إلى أنّ ذلك ليس من نفسه بل من ربه فيكون عالما قادرا بقوة الله وإرادته وقدرته، وتصرفه كله بأمر الله وإذنه سبحانه، فيرتفع الاستغراب.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٣.

وواضح أنّ مثل هذه الحقيقة تستدعي ضماناً بالنزاهة ورفع التعجب، والضمان هو العصمة التي يعطيها الله تعالى لأوليائه فلا يخالفون له أمراً ولا فعلاً.

وهذا المعنى يحاكي قوله تعالى في بداية السورة: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[١] وقد ذكرنا في معناه أنه أحصاه علماً وقدرة عند الإمامعليه السلام، وفي هذه الآية أشار إلى أنه ليس مجرد إحصاء لُملكه، بل بيده الولاية للتصرف في ملكوت الأشياء، والولاية على مُلك الشيء تتحقق بإيجاده وتنميته وتربيته وإبقائه والتصرف فيه بالتصرفات كافة.

وأما الولاية على ملكوته بهدايته وتعليمه وتهذيبه، فبالولاية الربانية يدور مُلك الأشياء وملكوتها، وهي بيد أوليائه، ومنه يتضح قول أهل المعقول إنّ هداية الله سبحانه للبشر توسيطية، وهداية النبيصلى الله عليه وآله لهم إرائية، وأما هداية الإمامعليه السلام فهي إيصالية؛ لأنها توصلهم إلى مقاصدهم، بينما هداية النبيصلى الله عليه وآله أنْ يريهم الطريق كما يتضح لماذا قالت النصوص إنّ الأرض لا يمكن أنْ تخلو من إمام[٢]، ويتضح أيضاً معاني الروايات الكثيرة التي وصفت الإمام بالهادي، وأنه سفينة النجاة، وأنه المنجي والمنقذ وغير ذلك من الأوصاف العظيمة[٣].

(١) سورة يس: الآية ١٢.
(٢) كمال الدين: ص٦٥٧، ح١؛ الكافي: ج١، ص١٧٨، ح٢.
(٣) انظر الإمامة (للشفتي): ص٣٦-٣٩.

إن قلت: ما الدليل على أنّ وليّ الله هو يد الله ؟

فالجواب: الأدلة كثيرة أكتفي ببيان دليلين:

الدليل الأول: الكتاب والسنّة، فإنّ القرآن الكريم نصَّ على أنّ الخلق والتدبير يتم بالوسائط والأيدي. مثلاً السماء قال فيها تعالى: ﴿**وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾[1] وفي الأنعام قال: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾[2] فالأيدي هي الوسائط، والجمع يدل على أنّ الأيدي جماعة وهم أولياؤه الطاهرون عليهم السلام، وأعلاهم رتبة هم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وقد وصف يده بأنها يد الله، وأنه وجهه، وأنّ طاعته طاعته[3]، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[4].

فوصف البيعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله بالبيعة مع الله، وأنّ يده يد الله تبارك وتعالى، وفي مفردات الراغب قال معقباً على ذكر الآية: فإذاً يده عليه الصلاة والسلام يد الله، وإذا كان يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم، ويؤيد ذلك ما روي: ﴿ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٢) سورة يس: الآية ٧١.

(٣) انظر بصائر الدرجات: ص٨١؛ سورة الفتح: الآية ١٠؛ سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) سورة الفتح: الآية ١٠.

ويده التي يبطش بها»[١] وقال سبحانه: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[٢].

ولا يعقل أنْ يراد من الوجه المعنى الحقيقي؛ لأنه سبحانه منزَّه من الجسمية، ولا يعقل أنْ يراد بها الجهة؛ لأنه ليس في مكان، ولا يصح للآية معنى إلّا إذا حمل المراد على الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام؛ لأنه الوجه الذي يتوجه به الناس إلى الله سبحانه، ويشهد له قوله: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا**﴾ أي الأرض، والمعنى أنّ كل مَن على الأرض يفنى ويزول ويبقى مَن كان وجهاً لله سبحانه فيهم وهو النبي والإمام عليهما السلام[٣].

وبهذا المعنى تضافرت الروايات الشريفة، ولعلّ بوصفي الجلال والإكرام يشير إلى أنه سبحانه يجلّ عن الفناء، ويُكرِم بعض عباده، ويُعلي شأنهم لمقام الوجاهة في الأرض. هذا لو كانا وصفين لله، ولو كانا للوجه فإنهما يصدقان فيهما عليهما السلام؛ لأن النبي والإمام ذوا جلال ينزههم من القبائح والنواقص، وفي عين الحال لهما إكرام خاص من الله ومن الناس، وهذا ما تؤكده الآيات التي ساوقت بين إطاعة الرسول وإطاعة الله سبحانه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[٤] والروايات الواردة من طرق

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩١، (يد)؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٣٥٢، ح٧؛ المحاسن: ج١، ص٢٩١، ح٤٤٣.

(٢) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦- ٢٧.

(٣) انظر نفحات الرحمن: ج٦، ص١٢٦ تفسير الآية.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٠.

الفريقين تتفق على هذه الحقيقة، وفي بعضها أنّ النبي صلى الله عليه وآله أخذ إقراراً من الصحابة على أنّ حبَّه حبُّ الله، وطاعته طاعة الله، ومن طاعة النبي وحبِّه محبة وإطاعة الأئمة عليهم السلام من ولده[١].

كما أنّ العقل يمنع أن يكون المراد من وجه الله الوجه الحقيقي لأسباب:

الأول: لاستلزامه أن يكون له جسم وشكل، وأنْ يكون في جهة ومكان، وغير ذلك من المحالات.

الثاني: لاستلزامه لغوية البيان؛ لأن بقاء الله سبحانه وعدم فنائه من الضرورات التي تدركها بديهة العقول، ولا يتصور فيها فناء أو زوال أو موت، فلو أريد نفي ذلك عنه لزم منه توضيح الواضح، وإثبات الشيء لنفسه، ولا يستقيم للآية معنى إلّا إذا حُمِلَتْ على مَن يمثل وجه الله بين العباد، وهو النبي والإمام عليهما السلام، فباعتبار أنهما بشر تعرضهم ما يعرض للبشر من عوامل زوال وموت وفناء فالآية تخبر عن بقائهم وعدم تعرضهم لذلك.

الثالث: لأنهم عليهم السلام الوسائط بين الله تعالى وبين عباده، وهم مظهر إرادة الله وعلمه وقدرته، وهم الحجة على خلقه، فلا يعقل تعرضهم للزوال والفناء، وتؤكد هذا الأحاديث الكثيرة التي نصت على أنّ الحجة قبل الخليقة ومعها وبعدها، وتفصيل البحث في ذلك موكول إلى علم الكلام.

الدليل الثاني: العقل، فإنه يحكم بامتناع حمل اليد على الجارحة أيضاً كما عرفت.

---

(١) انظر مواهب الرحمن: ج٩، ص٧٢-٧٣.

إن قلت: يمكن أن يراد باليد قوته وقدرته.

فالجواب: لا مانع منه إلّا أنه لا يفي بالمطلوب؛ لأن القوة والقدرة الإلهية تتصرف بالأشياء عبر الوسائط والأسباب كما هو الحال في الملائكة فكذلك أولياؤه، بل هم سادة الملائكة وأمراؤهم.

فيتحصل: أن الآية المباركة تدل على أنّ اليد التي تملك ملكوت كل شيء اثنتان: يد الله ويد أوليائه عليهم السلام. الأولى بالذات، والثانية بالعرض، وعلاقة العباد وارتباطهم بالله سبحانه لا يكون إلّا بواسطة أوليائه؛ لذا لا يهتدون إلّا بهم، ولا يرشدون ولا يفوزون إلّا بهم.

اللطيفة الثانية: لكل شيء ملكوت

في قوله تعالى: ﴿**مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[١] يدل على أنّ جميع الأشياء لها مُلك وملكوت، أي ظاهر وباطن، ومظهر وجوهر، وقشر ولبّ، ومدار العقيدة والإيمان والعلم والكمال والجلال يتعلق بالنظر إلى باطن الأشياء وجواهرها، وحتى في أعمال البشر ومكاناتهم عند الله سبحانه فإنه سبحانه ينظر إلى ملكوت العمل أي جوهره؛ لذا الأعمال تتبع النوايا والقصود، وفي الأحاديث الشريفة: «إنَّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٣.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص٥٣٦، ح١١٦٢؛ البحار: ج٧٤، ص٨٨، ح٣؛ وانظر مكارم الأخلاق: ص٤٦٩.

وفي الآخرة صاحب القلب السليم هو الذي يحظى ويفوز بالنجاة، ومنه يتضح لماذا جعل الباري عزّ وجلّ المودة للقربى أجر الرسالة وجوهر الإيمان والإسلام، وأنها أساس قبول الأعمال والطاعات وصحتها، وفي ذلك تعليم أيضاً لنا نحن البشر أن ننظر إلى لُباب الأشياء لا مظاهرها؛ لأن المظهر قد يخدع إلّا أنّ اللُّب والجوهر صادق دائماً، ومن لطف الله سبحانه جعل الملكوت مخفياً لا يطّلع عليه إلّا ذوو البصيرة، ومن أراد الاطلاع عليه، وإلّا لتعذر النظام وما استقرت حياة اجتماعية.

ولأهل اليقين تعليم خاص ذكره الباري عزّ وجلَّ في القرآن يدفع به عن وساوس الشياطين وأوهام العقول والأفكار، وهو أنّ بلوغ هذا المقام أي اليقين يتم بالنظر إلى ملكوت السماوات والأرض لا إلى مظاهرهما فقط؛ لأن النظر إلى المظهر حسي يستند إليه العقل ليستدل على الثبوت، وأما النظر إلى الملكوت فيُري القلب والبصيرة، ويكشف له ما لا يكشفه العقل فيَصل إلى اليقين، وهذا التعليم ورد في قضية إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[1].

فإنَّ ملكوت السماوات والأرض يكشف عن جواهرهما وحكمة الخلق وأسرار الخالق المودعة فيهما، ودلالتها على الربوبية والخالقية والوحدانية أقوى من المُلك؛ لأن يد الله في المُلك خافية وراء نظام السببية والمسببية. أما الملكوت فيده ظاهرة فيه، ولكن الملفت أنّ الآية ذكرت الإراءة لا الرؤية،

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٥.

أي أنّ الإراءة تتحقق من الله سبحانه ولكن بشرط أنْ يذهب العبد إليها ليرى، ويبحث ليصل.

فإذا سعى العبد للرؤية والنظر إلى آثار حكمة الله ورحمته في الأشياء ينفتح له باب الإراءة فيصل إلى اليقين على اختلاف مراتبه بحسب مراتب اليقين، وهذا يُحاكي مضمون الحديث القدسي: «مَن تقَرّب منّي شبراً تقرّبت منه ذراعاً»[1] وكذا معنى الأحاديث التي حثت على معرفة الله بالله سبحانه.

اللطيفة الثالثة: الكل يرجع إلى الله سبحانه وأوليائه

في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] قدَّم الضمير لتأكيد وقوع هذه الحقيقة وحصر الرجوع إليه لا إلى غيره، وصيغة الفعل المبني للمجهول في (ترجعون) تنفي اختيار العباد في ذلك، وبقرينة ما تقدَّم من شواهد وما سنذكره يتضح أنّ الرجوع يكون إلى النبي والأئمة عليهم السلام؛ لأنهم خلفاء الله ومظهر حكمه وعدله وبيدهم أمر الحساب والكتاب، وبهذا يرتبط صدر السورة بختامها، فإنَّ في الصدر بيان مقام النبي والإمام عليهما السلام في البدء والنشأة والإنذار والهداية، وبهذه الآية بين أنّ الرجوع يكون إليهما، والوجه في بيان نفي الاختيار للإشارة إلى حقيقة تأريخية حدثت ولازالت مستمرة

---

(١) رياض السالكين: ج٦، ص١٥٧، الهامش؛ وانظر مسند أحمد: ج٢، ص٤٨٠، وفيه: ((إن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب ذراعاً تقربت باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)).

(٢) سورة يس: الآية ٨٣.

وهي: أنّ الله سبحانه أرسل النبيﷺ إلى العباد وأمرهم بطاعته وإتِّباعه، والنبي عيّن الإمامعليه السلام من بعده ليكون ملجأ الناس وهاديهم إلى الصراط المستقيم، ولكن جعلهم مختارين في ذلك، فبعضهم آمن، وبعضهم كفر، وبعضهم أطاع، وبعضهم عصى؛ لأن الدنيا دار اختبار، وزمانها زمان المُهلة، وأما في الآخرة فلا خيار للناس في ذلك؛ لأنه زمان العدل والحق، فكل مَن اختار إماماً غير عليعليه السلام والأئمةعليهم السلام وأصرّ على ذلك وعاند يُبتلى في الآخرة بأمرين:

أحدهما: الندم على ما فرَّط في جنب الله سبحانه بعد انكشاف الحقيقة وظهور الحق.

ثانيهما: الخجل والحياء من الله سبحانه ورسوله والأئمةعليهم السلام والملائكة، ولعلّه بقلبه لا يحب أنْ يواجه هذا الموقف، ويستحي منه، ولكنه لا يملك لنفسه خياراً حتى يفلت منه كما كان يملكه في الدنيا، ومرجع الضمير إلى الذي بيده ملكوت كل شيء وهو النبي والإمامعليهما السلام بعد الله سبحانه، وهذا ما تعززه الأدلة المتضافرة.

منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[1] فإنّ ضمير الجمع يدل على أنّ مَن يؤوب إليه العباد ويحاسبهم جماعة وليس واحداً، وحيث ثبت بالعقل والنقل أنه سبحانه ليس في مكان ولا في جهة كان لابد من وسائط لذلك وهم أولياؤه المقربون[2].

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢٥- ٢٦.
(٢) نفحات الرحمن: ج٦، ص٤٨٣ تفسير الآية المزبورة.

وتواترت الآيات والروايات على أنّ للحساب والعذاب والثواب ملائكة وخزنة، وأنّ الأنبياء والأولياء والعلماء شهود وشفعاء، وذلك كله يعود إلى قيادة وزعامة لكل هؤلاء، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنهم أشرف مَن خلق، والحجة على جميع العوالم، ويعززه شاهدان من الآية:

الأول: أنّ الإياب يعني الرجوع[1]، وهو يقتضي وجود مرجع ومكان للرجوع، وفرق الإياب عن الرجوع أنّ الإياب رجوع إلى منتهى المقصد، والرجوع أعم، ولأن القيامة منتهى المقصد عبَّر عن رجوعهم بالإياب[2]، فالإياب بالمعنى المذكور يتنافى مع مقام الخالق عزّ وجلّ، ولا يستقيم معناه إلّا إذا كان المرجع إلى خلفائه وحججه عليهم السلام.

الثاني: قوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[3] فإنَّ (ثُمَّ) تفيد التعقب والتراخي، و(علينا) يفيد أنّ أمر الحساب وحكمه عليهم، وليس فعلية الحساب؛ لأن البعض لا يُحاسبون وإنما يدخلون الجنة بغير حساب، أو النار فوراً، وهم أصول الإيمان وأصول النار. أما الأول لقوله: ﴿**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[4] وأما الثاني لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَن**

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٧٩، (أوب)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٧، (أوب).

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٨٧ (٣٤٦).

(٣) سورة الغاشية: الآية ٢٦.

(٤) سورة غافر: الآية ٤٠.

ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[(١)] والبعض الآخر تناهم الشفاعة، والذين لا تناهم الشفاعة يحاسبون، وهذا ما تواتر معناه في الأخبار الشريفة أيضاً.

وهذا العمل كله فيه مواقف وإجراءات لا تليق بشأنه سبحانه، فلابد من وسائط وهم حججه وأولياؤه عليهم السلام.

والعجيب أنّ مفسري العامة اضطربوا في بيان معنى هذه الآية، واختصروا البيان جداً، وبعضهم تغافل عن هذه الحقيقة الواضحة لدواعٍ معروفة، مع أنّ الروايات الواردة بطرقهم والدالة على أنّ أمير المؤمنين قسيم الجنة والنار كثيرة[(٢)].

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٢) انظر ينابيع المودة: ج١، ص٢٤٩، ح١ -٢؛ ج٢، ص٤٠٤، ح٥٧؛ معارج الوصول: ص١٥٥؛ روح المعاني: ج٣٠، ص٤٦٥ تفسير الآية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: لا داعي لليأس

إنّ كل شيء يرجع إلى الله سبحانه ليس في ذاته وملكه فقط، بل في ملكوته وخواصه وآثاره، فلا داعي لليأس عند الشدة، ولا للغرور والتكبر عند الرخاء.

التعليم الثاني: لا عبث في الخلق

إنّ الوجود لم يُخلَق عبثاً، والناس لا يُترَكون سُدىً بل هناك غايات وحِكَم تقف وراء ذلك كله، والذين لا يستجيبون للحق في الدنيا ولا يُسلِّمون لنداء الله وأوليائه اختياراً فإنهم يستجيبون لذلك قهراً في الآخرة، والعاقل في الدنيا يجب أنْ يستجيب؛ لأنه لا يخلو في مقابل هذه من حالتين:

الأولى: أن يكون مصدِّقاً بها ومؤمناً فلابد أن يستجيب.

الثانية: أن يكون شاكاً بها، فإنّ العقل والمنطق يلزمانه بالإجابة أيضاً؛ لأن القضية خطيرة جداً، وتتعلق بها أضرار بالغة، والعقل يحكم بوجوب دفع الضرر المُحتَمَل، بل والموهوم، لاسيَّما في قضايا الآخرة، فلو لم يستجب الإنسان لواحدة من هاتين الحالتين يجب أنْ يُعيد النظر في موازينه العقلية.

التعليم الثالث: حقائق الأشياء وآثارها بملكوتها

إنّ الملكوت أهم من المُلْك، وحقائق الأشياء بملكوتها، فعلى الإنسان أنْ يعلم بأنّ التغيير والتكامل والارتقاء ليس في المظاهر، بل في الجواهر، سواء في صعيد الأخلاق والسلوك الاجتماعي أو في صعيد المصالح العامة بما فيها تغيير البلاد وتطوير القدرات والقابليات فيها، فالتحضُّر يبدأ من الفكر والإنسانية من نُبُل المواقف، والحضارة تُبنى في العقول والقلوب أولاً، وليس في الشوارع والبنايات والسيارات الحديثة وموديلات الملابس، فلو التفت المعنيون بالقرارات في العالَم لاسيَّما في البلاد المتأخرة والنامية إلى أنّ التطوُّر والارتقاء يبدأ من البُنى التحتية وأهمها الإنسان لتمكّنوا أن ينهضوا ببلادهم وشعوبهم في برهة قياسية، ولكنهم يعتمدون المظاهر دون الجواهر والقشور دون اللباب فلا يفلحون.

وبذلك يتضح بعض السر في الأخبار الواردة في الحث على قراءة سورة يس، وبعضها نصَّ على أنها لو قُرئت على مريض أو ميت لاعتدل؛ لأن السورة المباركة تتصرَّف في ملكوت الشيء، كما يتضح بعض السر في وصفها بقلب القرآن[1]، ووجِّه ذلك بتوجيهات تتلخص في أنّ الإنسان حين يضعف وتخور قواه بالمرض أو الاحتضار للموت يكون قلبه مُقبلاً على الله تعالى بكلية .. فإذا قُرِئَتْ عليه سورة يس ازداد لبّه قوة، وازداد تصديقه بالحقائق الغيبية، واتصل بعالَم الملكوت فيزداد قوةً ونشاطاً؛ لأن عالَم الملكوت كله حياة.

---

(١) تفسير الصافي: ج٤، ص٢٦٣.

كما أن سورة يس لبّ القرآن وقلبه؛ لأنها تجمع روحه وعُصارة مقاصده، فإنّ المقصود الأهم من إنزال الكتب بيان أنّ للعباد خالقاً وإلهاً يجب أن يؤمنوا به ويعبدوه، وأنّ لهم معاداً يُحشرون إليه، ويُحاسبون على أعمالهم وأفعالهم، وهذا هو الروح الساري في آيات سورة يس، وقد ذكرنا في مفتتح السورة بعض التفاصيل عن ذلك.

التعليم الرابع: جملة من الحقائق الإعتقادية

إنّ الآية المباركة تدل على عدة حقائق علمية واعتقادية:

الأولى: أنّ أولياء الله تعالى هم يده ووسائطه، وبيدهم أمر المعاد والحساب، فأمرهم أمره، وطاعتهم طاعته.

الثانية: بطلان نظريتي التشبيه والتجسيم التي قالوا بها الْمُشَبِّهَة والمجسِّمَة.

الثالثة: أنّ أولياء الله سبحانه هم وسائل الهداية في الدنيا، وهم الشفعاء في الآخرة.

الرابعة: أنّ للدعاء والتوسل الأثر البالغ في التأثير في الأشياء؛ لأن الدعاء يطرق سبيل الملكوت، والعبد الداعي بملكوته النفسي يطلب من الله سبحانه.

الخامسة: أنّ طريق التوفيق في الدنيا والسعادة في الآخرة هو الارتباط بمحمد وآل محمد عليهم السلام واتّباعهم.

هذا آخر ما أمكن بيانه فيما يقوله القرآن في سورة يس من مفردات ولطائف وتعاليم، فالشكر لله سبحانه على ما وفقنا له، وأسأله أن يتقبله منّا بقبول حسن ويبعث ثوابه لوليه الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، والحمد له أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وآله سيّما بقية الله في الأرضين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

فاضل الصفّار

كربلاء المقدسة

١٨ من ذي الحجة ١٤٤٢هـ

المصادر

(أ)

١- الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، دار الفكر، ١٤١٦-١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٢- الآثار النووية: ليحيى بن شرف النووي، دار الفكر ، بيروت، ١٤١٤-١٩٩٤م.

٣- أحاديث أم المؤمنين عائشة: للسيد مرتضى العسكري، المجمع العلمي الإسلامي، ١٤١٨-١٩٩٧، الطبعة الأولى.

٤- الاحتجاج: للشيخ الطبرسي، دار النعمان -النجف الأشرف، ١٣٨٦-١٩٦٦م، مع طبعة أخرى.

٥- إحقاق الحق (الأصل): للشهيد نور الله التستري، من مصادر العقائد عند الشيعة.

٦- الإحكام: لابن حزم، مطبعة الجامعة – القاهرة.

٧- الأحكام: ليحي بن الحسين، ١٤١٠-١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٨- أحكام القرآن: لابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر.

٩- اختيار معرفة الرجال: للشيخ الطوسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٤.

١٠- الإرشاد: للشيخ المفيد، دار المفيد -بيروت، ١٤١٤هـ -١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

١١- أسباب نزول الآيات: للواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاؤه – القاهرة، ١٣٨٨ - ١٩٦٨م.

١٢- الاستبصار: لأبي الفتح الكراجكي، دار الأضواء – بيروت، ١٤٠٥، الطبعة الثالثة.

١٣- الاستبصار: للشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٦٣ش، الطبعة الرابعة.

١٤- الاستذكار: لابن عبد البر، دار الكتب العلمية -بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

١٥- الاستيعاب: لابن عبد البر، دار الجيل، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

١٦- الإصابة: لابن حجر، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

١٧- الأصول الستة عشر: لعدة محدثين، دار الشوشتري للطباعة- قم المقدسة، ١٤٠٥ – ١٣٦٣ ش، الطبعة الثانية.

١٨- أضواء البيان: للشنقيطي، دار الفكر، ١٤١٥-١٩٩٥م.

١٩- أضواء على الصحيحين: للشيخ محمد صادق النجمي، مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

٢٠- الاعتقادات في دين الإمامية: للشيخ الصدوق، دار المفيد – بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣، الطبعة الثانية.

٢١- إعلام الورى في صفات المؤمنين: للديلمي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث – قم المقدسة.

٢٢- أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين، دار التعارف - بيروت، ودار النعمان – بيروت، ١٤٠٣-١٩٨٣.

٢٣- إقبال الأعمال: للسيد ابن طاوس، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤و ١٤١٦، الطبعة الأولى.

٢٤- الاقتصاد: للشيخ الطوسي، منشورات مكتبة جامع جهلستون - طهران، ١٤٠٠.

٢٥- إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب: للشيخ علي اليزدي الحائري، تحقيق علي عاشور.

٢٦- الأمالي: للشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة -قم المقدسة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٧- الأمالي: للشيخ الطوسي، دار الثقافة - قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

٢٨- الأمالي: للشيخ المفيد، دار المفيد - بيروت، ١٤١٤-١٩٩٣، الطبعة الثانية.

٢٩- الإمامة والتبصرة: لابن بابويه القمي، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف- قم المقدسة، ١٤٠٤- ١٣٦٣ش، الطبعة الأولى.

٣٠- الإمامة والسياسة: لابن قتيبة الدينوري، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، مع طبعة أخرى.

٣١- الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لعبد الحليم الجندي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، ١٣٩٧- ١٩٧٧م.

٣٢- إمتاع الأسماع: للمقريزي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٠، الطبعة الأولى.

٣٣- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مصادر التفسير عند الشيعة، ١٤٢٦مع طبعة أخرى.

٣٤- الأنوار البهية: للشيخ عباس القمي، مؤسسة النشر الإسلامي –قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

٣٥- الأنوار العلوية: للشيخ جعفر النقدي، الكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨١- ١٩٦٢م، الطبعة الثانية.

٣٦- الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة: للسيد عبد الله شبر، مؤسسة الوفاء – بيروت، ١٤٠٣ -١٩٨٣، الطبعة الأول.

٣٧- الإيضاح: للفضل بن شاذان، دانشكاه طهران، ١٣٥١ش، الطبعة الأولى.

(ب)

٣٨- بحار الأنوار: للشيخ المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣، الطبعة الثانية؛ ومؤسسة إحياء التراث - دار التراث، ١٤٠٣ -١٩٨٣، الطبعة الثانية.

٣٩- البداية والنهاية: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٨- ١٩٨٨م.

٤٠- البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الوفاء – بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مع طبعة أخرى.

٤١- بصائر الدرجات: لمحمد بن الحسن الصفار، منشورات الأعلمي – طهران، ١٤٠٤-١٣٦٢ش؛ والأعلمي – بيروت، ١٤٠٤- ١٣٦٢ش.

(ت)

٤٢- تاريخ الإسلام: للذهبي، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧- ١٩٨٧م، الطبعة الأولى.

٤٣- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٧- ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

٤٤- تاريخ الطبري: للطبري، مؤسسة الأعلمي – بيروت، مع طبعة أخرى.

٤٥- تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر، دار الفكر – بيروت، ١٤١٥.

٤٦- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: للسيد حسن الصدر الكاظمي العاملي، مؤسسة تراث الشيعة، ١٤٣٨- ١٣٩٥ش، الطبعة الأولى.

٤٧- تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: للسيد شرف الدين علي الحسيني الاسترابادي، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام –قم المقدسة، ١٤٠٧- ١٣٦٦ش، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٤٨- تحفة الآحوذي: للمباركفوري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٠- ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

٤٩- التحفة السنية: للسيد عبد الله الجزائري، نسخة مخطوطة.

٥٠- تحف العقول: لابن شعبة الحراني، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤٠٤-١٣٦٣ش، الطبعة الثانية، ومؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م، الطبعة السادسة.

٥١- تخريج الأحاديث والآثار: للزيلعي، دار ابن خزيمة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

٥٢- التخويف من النار: لابن رجب الحنبلي، دار الرشيد – دمشق، ١٤٠٤ – ١٩٨٤م، الطبعة الثانية.

٥٣- تذكرة الموضوعات: للفتني، مصادر الحديث السنية – القسم العام.

٥٤- تصحيح اعتقادات الإمامية: للشيخ المفيد، دار المفيد – بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٣م، الطبعة الثاني.

٥٥- التعليقه على الفوائد الرضوية: للقاضي سعيد القمي، من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية.

٥٦- تفسير الآلوسي: للآلوسي، مصادر التفسير عند السنة.

٥٧- تفسير ابن زمين: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمين، الفاروق الحديثة، ١٤٣٣، الطبعة الأولى.

٥٨- تفسير ابن كثير: لابن كثير، دار المعرفة – بيروت، ١٤١٢-١٩٩٢م.

٥٩- تفسير أبي حمزة الثمالي: لأبي حمزة الثمالي، دفتر نشر الهادي، ١٤٢٠- ١٣٧٨ ش، الطبعة الأولى.

٦٠- تفسير أبي السعود: لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦١- تفسير الأصفى: للفيض الكاشاني، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٠- ١٣٧٨، الطبعة الأولى.

٦٢- تفسير الإمام العسكري عليه السلام: المنسوب للإمام العسكري، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف -قم المقدسة، ١٤٠٩، الطبعة الأولى.

٦٣- تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٢- ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

٦٤- تفسير البيضاوي: للبيضاوي، دار الفكر - بيروت.

٦٥- تفسير التبيان: للشيخ الطوسي، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٦٦- تفسير الثعلبي: للثعلبي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٢-٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

٦٧- تفسير جوامع الجامع: للشيخ الطبرسي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٨و ١٤٢٠، الطبعة الأولى.

٦٨- تفسير الرازي: لفخر الدين الرازي، مصادر التفسير عند السنة، مع طبعة أخرى.

٦٩- تفسير السمرقندي: لأبي ليث السمرقندي، دار الفكر.

٧٠- تفسير السمعاني: للسمعاني، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨-١٩٩٧.

٧١- التفسير الصافي: للفيض الكاشاني، مكتبة الصدر – طهران، مع طبعة الأعلمي ومؤسسة الهادي – قم المقدسة، ١٤١٦-١٣٧٤ش، الطبعة الثانية.

٧٢- تفسير العياشي: لمحمد بن مسعود العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية – طهران، مع طبعة أخرى.

٧٣- تفسير القرآن: للحويزي، مؤسسة إسماعيليان – قم المقدسة، ١٤١٢- ١٣٧٠ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة أخرى.

٧٤- تفسير القرطبي: للقرطبي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٠٥-١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

٧٥- تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، منشورات مكتبة الهدى، ١٣٨٧، ومؤسسة دار الكتاب - قم المقدسة، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة، ومطبعة النجف، ١٣٨٧.

٧٦- تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن: للشيخ الطبرسي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٥-١٩٩٥، الطبعة الأولى، ودار المعرفة.

٧٧- تفسير الميزان: للسيد الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين – قم المقدسة، مع طبعة أخرى.

٧٨- تفسير النسفي: للنسفي، مصادر التفسير عند السنة.

٧٩- تفسير نور الثقلين: للشيخ الحويزي، مؤسسة إسماعيليان – قم المقدسة، ١٤١٢-١٣٧٠ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة أخرى.

٨٠- تفسير الواحدي: للواحدي، دار القلم - ودار الشامية، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٨١- تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٦٥ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة الأعلمي.

٨٢- التواضع والخمول: لابن أبي الدنيا، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٩- ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

٨٣- التوحيد: للشيخ الصدوق، جماعة المدرسين – قم المقدسة.

(ث)

٨٤- ثواب الأعمال: للشيخ الصدوق، منشورات الشريف الرضي – قم المقدسة، ١٣٦٨ش، الطبعة الثالثة، مع طبعة أخرى.

(ج)

٨٥- جامع أحاديث الشيعة: للسيد البروجردي، الناشر المؤلف، ١٤١١-١٣٦٩، و١٤١٢-١٣٧١ش، ومنشورات مدينة العلم - قم المقدسة، ١٤٠٧-١٣٦٦ش، ومطبعة مهر، ١٤٠٩- ١٣٦٧ش.

٨٦- جامع البيان: لابن جرير الطبري، دار الفكر -بيروت، ١٤١٥-١٩٩٥م.

٨٧- جامع الخلاف والوفاق: لعلي بن محمد القمي، انتشارات زمنية سازمان ظهور إمام العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، الطبعة الأولى.

٨٨- جامع الشتات: للخواجوئي، تحقيق السيد مهدي الرجائي، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٨٩- الجامع الصغير: لجلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، ١٤٠١- ١٩٨١م، الطبعة الأولى.

٩٠- الجامع للشرائع: ليحيى بن سعيد، مؤسسة سيد الشهداء العلمية، ١٤٠٥.

٩١- جامع المدارك: للسيد الخوانساري، مكتبة الصدوق – طهران، ١٤٠٥هـ -١٣٦٤ش، الطبعة الثانية، وإسماعيليان – قم المقدسة، ١٤٠٥، الطبعة الثانية.

٩٢- جدلية الدين والفلسفة: لحسن الكاشاني، منشورات دليل ما – قم المقدسة، ١٤٣٤ هـ ق، الطبعة الأولى.

٩٣- الجواهر السنية: للحر العاملي، مطبعة النعمان- النجف الاشرف، ١٣٨٤-١٩٦٤م، مع طبعة أخرى.

(ح)

٩٤- حاشية رد المختار: لابن عابدين، دار الفكر – بيروت، ١٤١٥-١٩٩٥م.

٩٥- حاشية على أصول الكافي: لرفيع الدين محمد بن حيدر النائيني، دار الحديث، ١٤٢٤- ١٣٨٢ش، الطبعة الأولى.

٩٦- الحدائق الناضرة: للمحقق يوسف البحراني، جماعة المدرسين – قم المقدسة، ١٤٠٥- ١٣٦٣ش.

٩٧- الحديقة الهلالية: للشيخ البهائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

٩٨- حصر الاجتهاد: لأغا بزرك الطهراني، طبعة الخيام – قم المقدسة، ١٤٠١.

٩٩- الحقائق والدقائق: للشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء – بيروت، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، الطبعة الأولى.

١٠٠- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: لصدر الدين محمد الشيرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٩٨١، الطبعة الثالثة.

١٠١- حواشي الشرواني: للشرواني والعبادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(خ)

١٠٢- الخصال: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين – قم المقدسة، ١٤٠٣-١٣٦٢ش، ومع طبعة أخرى.

١٠٣- خصائص الأئمة: للشريف الرضي، مجمع البحوث الإسلامية – مشهد المقدسة، ١٤٠٦.

١٠٤- الخصائص الفاطمية: للشيخ محمد باقر الكوجري، انتشارات الشريف الرضي، ١٣٨٠ش، الطبعة الأولى.

١٠٥- خلاصة عبقات الأنوار: للسيد حامد النقوي، مؤسسة البعثة – طهران، ١٤٠٥.

١٠٦- الخلاف: للشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١١-١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، و١٤٢٠، و١٤٢٢، الطبعة الثانية.

١٠٧- الخلفاء والملوك: للشيخ فاضل الصفار، دار العلوم، ١٤٣٣ – ٢٠١٢م، الطبعة الأولى.

(د)

١٠٨- دراسات في الحديث والمحدثين: لهاشم معروف الحسني، دار التعارف –بيروت، ١٣٩٨-١٩٧٨، الطبعة الثانية.

١٠٩- الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة: للشهيد الأول، تحقيق جلال الدين الصغير.

١١٠- درر الأخبار: لحجازي وخسرو شاهي، نشر مطالعات تاريخ ومعارف إسلامي، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١١١- الدر المنثور: لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة – بيروت، ودار الفكر، ١٤٠٣، الطبعة الأولى.

١١٢- الدروس: للشهيد الأول، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الثانية.

١١٣- دعائم الإسلام: للقاضي النعمان المغربي، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية.

١١٤- الدعوات: لقطب الدين الراوندي، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام -قم المقدسة، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

١١٥- دلائل الإمامة: لمحمد بن جرير الطبري، مؤسسة البعثة، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

١١٦- دلائل التوحيد: لعبد الله بن محمد الهروي، المدينة المنورة، ١٤٠٤، الطبعة الأولى.

(ذ)

١١٧- ذخائر العقبى: لأحمد بن عبد الله الطبري، مكتبة القدس- القاهرة، ١٣٥٦.

(ر)

١١٨- رسائل الشهيد الثاني: للشهيد الثاني، مكتبة بصيرتي – قم المقدسة.

١١٩- الرسائل الفقهية: للوحيد البهبهاني، مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهاني، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١٢٠- الرواشح السماوية: للميرداماد محمد باقر الحسيني الاسترابادي، دار الحديث، ١٤٢٢- ١٣٨٠ش، الطبعة الأولى.

١٢١- روائع نهج البلاغة: لجورج جرداق، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٤١٧-١٩٩٧م، الطبعة الثانية.

١٢٢- روضة الواعظين: للفتال النيسابوري، منشورات الرضي، ومؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

١٢٣- روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان: للشهيد الثاني، بوستان كتاب – قم المقدسة، ١٤٢٢، الطبعة الأولى، ومؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث -قم المقدسة، طبعة حجرية.

١٢٤- رياض السالكين: للسيد علي خان المدني الشيرازي، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥، الطبعة الرابعة.

(ز)

١٢٥- زبدة الأصول: للسيد محمد صادق الروحاني، مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

١٢٦- زبدة البيان: للمحقق الأردبيلي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية – طهران.

(س)

١٢٧- السرائر: لابن إدريس الحلي، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الثانية.

١٢٨- سعد السعود: للسيد ابن طاوس، منشورات الرضي – قم المقدسة، ١٣٦٣.

١٢٩- سفينة النجاة: لسراب التنكابني، الناشر المحقق، ١٤١٩-١٣٧٧ش، الطبعة الأولى.

١٣٠- سنن ابن ماجة: لمحمد بن يزيد القزويني، دار الفكر.

١٣١- السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار المعرفة – بيروت، مع طبعة أخرى.

١٣٢- سنن النبي صلى الله عليه وآله: للسيد الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٩.

١٣٣- السيرة الحلبية: للحلبي، دار المعرفة، ١٤٠٠.

(ش)

١٣٤- شجرة طوبى: للشيخ محمد مهدي الحائري، المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ، الطبعة الخامسة.

١٣٥- شرح إحقاق الحق: للسيد المرعشي، تحقيق وتعليق السيد شهاب الدين المرعشي النجفي.

١٣٦- شرح الأخبار: للقاضي النعمان المغربي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة.

١٣٧- شرح أصول الكافي: للمولى محمد صالح المازندراني، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ١٤٢١-٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

١٣٨- شرح رسالة الحقوق: للساعدي، دار المرتضى – بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الطبعة الأولى.

١٣٩- شرح رسالة الحقوق: للسيد حسن السيد علي القبانجي، مؤسسة إسماعيليان – قم المقدسة، ١٤٠٦، الطبعة الثانية.

١٤٠- شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: لعبد الوهاب، جماعة المدرسين – قم المقدسة، ١٣٩٠- ١٣٤٩ش.

١٤١- شرح اللمعة: للشهيد الثاني، منشورات جامعة النجف الدينية، ١٣٨٧-١٩٦٧، مع طبعة أخرى.

١٤٢- شرح المقاصد في علم الكلام: للتفتازاني، دار المعارف النعمانية، ١٤٠١-١٩٨١م، الطبعة الأولى.

١٤٣- شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، أنوار الهدى -قم المقدسة، ١٤٢٩، ودار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٥٩م و١٩٦١و١٩٦٢، ومؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر.

١٤٤- الشفاء الروحي: لعبد اللطيف البغدادي، المجموعة الأخلاق.

١٤٥- شفاء الصدور في شرح زيارة القبور: للحاج ميرزا أبي الفضل الطهراني، نشر السيد علي الموحد الأبطحي، ١٤٠٩، الطبعة الثالثة.

١٤٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩ – ١٩٨٨م.

١٤٧- شواهد التنزيل: للحاكم الحسكاني، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي – مجمع إحياء الثقافة، ١٤١١ – ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

(ص)

١٤٨- الصحاح: للجوهري، دار العلم للملايين – بيروت، ١٤٠٧-١٩٨٧م، الطبعة الرابعة.

١٤٩- صحيح ابن حبان: لابن حبان، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤-١٩٩٣م، الطبعة الرابعة.

١٥٠- صحيح البخاري: للبخاري، دار الفكر، ١٤٠١هـ-١٩٨١، ودار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

١٥١- صحيح مسلم: لمسلم النيشابوري، دار الفكر – بيروت، ودار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

١٥٢- الصحيح من سيرة النبي الأعظمﷺ : للسيد جعفر مرتضى، دار الهادي – بيروت، ١٤١٥ – ١٩٩٥م، الطبعة الرابعة.

١٥٣- الصحيفة السجادية: للإمام زين العابدين، مؤسسة الإمام المهديعليه السلام، ومؤسسة انصاريان – قم المقدسة، ١٤١١، الطبعة الأولى،ومؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤٠٤- ١٣٦٣ش.

١٥٤- الصراط المستقيم: لعلي بن يونس العاملي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، ١٣٨٤، مطبعة الحيدري.

١٥٥- صراط النجاة: للميرزا جواد التبريزي، نشر دار الاعتماد، ١٤١٧، الطبعة الأولى، و١٤١٨-١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١٥٦- صفات الشيعة: للشيخ الصدوق، كانون انتشارات عابدي - طهران.

١٥٧- صلاة الجمعة: لمحمد مقيم اليزدي، كلبهار – يزد.

(ط)

١٥٨- طب الأئمة: لابن سابور الزيات، الشريف الرضي- قم المقدسة، ١٤١١- ١٣٧٠ش، الطبعة الثانية.

١٥٩- الطبقات الكبرى: لابن سعد، دار صادر – بيروت.

١٦٠- الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: لابن طاوس، مطبعة الخيام – قم المقدسة، ١٣٩٩.

١٦١- طرائف المقال: للسيد البروجردي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي – قم المقدسة، ١٤١٠، الطبعة الأولى.

(ع)

١٦٢- عجالة المعرفة في أصول الدين: لمحمد بن سعيد الراوندي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٦٣- عجائب الآثار: للجبرتي، دار الجيل – بيروت.

١٦٤- عدة الداعي: لابن فهد الحلي، مكتبة وجداني – قم المقدسة، مع طبعة أخرى.

١٦٥- العقيدة الإسلامية: للشيخ جعفر سبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤١٩ -١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

١٦٦- علل الشرائع: للشيخ الصدوق، منشورات المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨٥و١٣٨٦-١٩٦٦م، مع طبعة أخرى.

١٦٧- العمدة: لابن البطريق، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤٠٧.

١٦٨- عمدة القارئ: للعيني، دار إحياء التراث العربي -بيروت.

١٦٩- عوالي اللآلئ: لابن أبي جمهور الإحسائي، مطبعة سيد الشهداء -قم المقدسة، ١٤٠٥-١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

١٧٠- عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٠٤-١٩٨٤م، مع طبعة أخرى.

١٧١- عيون الحكم والمواعظ: لعلي بن محمد الليثي الواسطي، دار الحديث، الطبعة الأولى.

(غ)

١٧٢- غاية المرام: للسيد هاشم البحراني، تحقيق السيد علي عاشور.

١٧٣- الغدير: للشيخ الأميني، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٣٩٧-١٩٧٧م، الطبعة الرابعة.

١٧٤- الغذاء لا الدواء: للدكتور صبري القباني، دار العلم للملايين – بيروت، ١٩٦٥، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، الطبعة السادسة عشرة.

(ف)

١٧٥- الفائق في غريب الحديث: لجار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٧ – ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

١٧٦- فتح الباري: لابن حجر، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية.

١٧٧- فتح المعين: للمليباري الهندي، دار الفكر – بيروت، ١٤١٨ - ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١٧٨- الفتوحات المكية: لابن عربي، دار صادر-بيروت.

١٧٩- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

١٨٠- الفصول المختارة: للشريف المرتضى، دار المفيد – بيروت، ١٤١٤-١٩٩٣، الطبعة الثانية.

١٨١- الفصول المهمة في أصول الأئمة: للحر العاملي، مؤسسة معارف إسلامي الإمام الرضاعليه السلام، ١٤١٨-١٣٧٦ش، الطبعة الأولى.

١٨٢- فضائل الشيعة: للشيخ الصدوق، انتشارات عابدي - طهران.

١٨٣- فضائل الصحابة: للنسائي، دار الفكر – بيروت.

١٨٤- فقه الدولة: للشيخ فاضل الصفار، دار الأنصار، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م، الطبعة الأولى.

١٨٥- فقه الصادقعليه السلام: للسيد محمد صادق الروحاني، مؤسسة دار الكتاب -قم المقدسة، ١٤١٣، الطبعة الثانية و١٤١٤، الطبعة الثالثة.

١٨٦- فقه العلو والارتقاء: للشيخ فاضل الصفار، دار صادق ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الطبعة الأولى.

١٨٧- فقه القرآن: للقطب الراوندي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة، ١٤٠٥، الطبعة الثانية والطبعة الثالثة.

١٨٨- الفوائد الرجالية: للسيد بحر العلوم، مكتبة الصادق – طهران، ١٣٦٣ش، الطبعة الأولى.

١٨٩- في سماء المعرفة: للشيخ حسن حسن زاده آملي، مؤسسة أم القرى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

١٩٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير: للمناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥- ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

(ق)

١٩١- قرب الإسناد: للحميري القمي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المقدسة، ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى.

١٩٢- القواعد والفوائد: للشهيد الأول، مكتبة المفيد –قم المقدسة.

(ك)

١٩٣- الكافي: للشيخ الكليني، دار الكتب الإسلامية –طهران، ١٣٦٣، و١٣٦٥، و١٣٦٧، الطبعة الثالثة، والطبعة الرابعة، والطبعة الخامسة.

١٩٤- الكامل: لعبد الله بن عدي، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩– ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.

١٩٥- الكامل في التاريخ: لابن الأثير، دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٦– ١٩٦٦م.

١٩٦- كتاب الأربعين: للماحوزي، مطبعة الأمير – قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

١٩٧- كتاب الأربعين: لمحمد طاهر القمي الشيرازي، الناشر المحقق، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

١٩٨- كتاب الأوائل: للطبراني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٣، الطبعة الأولى.

١٩٩- كتاب التمحيص: لمحمد بن همام الاسكافي، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف – قم المقدسة.

٢٠٠- كتاب الدعاء: للطبراني، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

٢٠١- كتاب الغيبة: للنعماني، أنوار الهدى، ١٤٢٢، الطبعة الأولى.

٢٠٢- كتاب المكاسب: للشيخ الأنصاري، والمؤتمر العالمي لمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصاري، ١٤٢٠، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٠٣- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل: للزمخشري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ١٣٨٥-١٩٦٦م.

٢٠٤- كشاف القناع: للبهوتي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٨ - ١٩٩٧، الطبعة الأولى.

٢٠٥- كشف الخفاء: للعجلوني، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨-١٩٨٨م، الطبعة الثالثة.

٢٠٦- كشف الغطاء: للشيخ جعفر كاشف الغطاء، انتشارات مهدوي – أصفهان، الطبعة الحجرية، ومركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٢هـ ق -١٣٨٠هـ ش، الطبعة الأولى.

٢٠٧- كشف الغمة: لابن أبي الفتح الأربلي، دار الأضواء -بيروت، مع طبعة أخرى.

٢٠٨- كشف اللثام: للفاضل الهندي، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٤٢٤، الطبعة الأولى، ومنشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي -قم المقدسة، ١٤٠٥.

٢٠٩- كشف المحجة لثمرة المهجة: للسيد ابن طاوس، المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٧٠-١٩٥٠م.

٢١٠- كشف المراد في شرح تجديد الاعتقاد: للعلامة الحلي، تحقيق الزنجاني، انتشارات شكوري – قم المقدسة، ١٣٧٣، الطبعة الرابعة، و مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة السابعة.

٢١١- كمال الدين وإتمام النعمة: للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٤٠٥هـ-١٣٦٣ش، و١٣٩٥، الطبعة الثانية.

٢١٢- الكنى والألقاب: للشيخ عباس القمي، مكتبة الصدر – طهران.

٢١٣- كنز العمال: للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢١٤- كنز الفوائد: لأبي الفتح الكراجكي، مكتبة المصطفوي – قم المقدسة، ١٣٦٩ش، الطبعة الثانية، مع طبعة أخرى.

(ل)

٢١٥- لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة -قم المقدسة، ١٤٠٥، ودار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

٢١٦- لسان الميزان: لابن حجر، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧١م، الطبعة الثانية.

٢١٧- اللهوف في قتلى الطفوف: للسيد ابن طاوس، أنوار الهدى - قم المقدسة، ١٤١٧، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

(م)

٢١٨- مأساة الزهراء عليها السلام: للشيخ جعفر مرتضى، دار السيرة - بيروت، ١٤١٨- ١٩٩٧م، الطبعة الثانية.

٢١٩- مبادئ وأصول المعارف الإلهية: للشيخ فاضل الصفار، مكتبة العلامة ابن فهد الحلي.

٢٢٠- المبسوط: للشيخ الطوسي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، ١٣٨٧.

٢٢١- مثير الأحزان: لابن نما الحلي، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ١٣٦٩-١٩٥٠م.

٢٢٢- مجمع البحرين: للشيخ فخر الدين الطريحي، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨هـ-١٣٦٧ش، الطبعة الثانية، مع طبعة أخرى.

٢٢٣- مجمع الزوائد: للهيثمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨-١٩٨٨م.

٢٢٤- مجمع النورين: للشيخ أبي الحسن المرندي، طبعة حجرية.

٢٢٥- المحاسن: لأحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٧٠هـ -١٣٣٠ش، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٢٦- المحكم في أصول الفقه: للسيد محمد سعيد الحكيم، مؤسسة المنار، ١٤١٤-١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

٢٢٧- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الرسالة - الكويت، ١٤٠٣-١٩٨٣م، ودار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ -١٩٩٢م، الطبعة الأولى.

٢٢٨- المختصر: لحسن بن سليمان الحلي، المكتبة الحيدرية، ١٤٢٤-١٣٨٢ش.

٢٢٩- مختصر البصائر: للحسن بن سليمان الحلي، تحقيق مشتاق المظفر.

٢٣٠- مدينة المعاجز: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١٣و ١٤١٤و١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٣١- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: للعلامة محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش، الطبعة الثانية، و١٣٧٩هـ ش، الطبعة الرابعة، و١٤٠٧، الطبعة الأولى.

٢٣٢- المزار: لمحمد بن المشهدي، نشر القيوم -قم المقدسة، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

٢٣٣- مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام: للشهيد الثاني، مؤسسة المعارف الإسلامية -قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

٢٣٤- المستدرك: للحاكم النيسابوري، تحقيق وإشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وطبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة.

٢٣٥- مستدرك أعيان الشيعة: لحسن الأمين، دار التعارف - بيروت، ١٤١٨- ١٩٩٧م، الطبعة الثانية.

٢٣٦- مستدرك سفينة البحار: للشيخ علي النمازي الشاهرودي، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٤١٩.

٢٣٧- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: للمحقق الميرزا النوري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث -بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، و١٤٠٩، الطبعة الثانية.

٢٣٨- المسترشد: لمحمد بن جرير الطبري، مؤسسة الثقافة الإسلامية، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٣٩- مسكن الفؤاد: للشهيد الثاني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم المقدسة، ١٤٠٧، الطبعة الأولى.

٢٤٠- مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، دار صادر -بيروت، مع طبعة أخرى.

٢٤١- مسند الإمام الرضاعليه السلام: لداود بن سليمان الغازي، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٢٤٢- مسند الشاميين: للطبراني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤١٧ – ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.

٢٤٣- مشارق أنوار اليقين: للحافظ رجب البرسي، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤١٩-١٩٩٩، الطبعة الأولى.

٢٤٤- مشكاة الأنوار: لعلي الطبرسي، دار الحديث، ١٤١٨، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٤٥- المصباح: للكفعمي، مؤسسة الأعلمي -بيروت، ١٤٠٣-١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.

٢٤٦- مصباح الفقيه: لآقا رضا الهمداني، مكتبة النجاح -طهران، الطبعة الحجرية.

٢٤٧- مصباح المتهجد: للشيخ الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة -بيروت، ١٤١١-١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٢٤٨- المصطلحات: إعداد مركز المعجم الفقهي، المجموعة مصطلحات ومفردات فقهية.

٢٤٩- المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية: للشيخ فاضل الصفار، مؤسسة الفكر الإسلامي – بيروت، ٢٠٠٣-١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى.

٢٥٠- معارج الأصول في معرفة فضل آل الرسول: للزرندي الشافعي، تحقيق ماجد بن أحمد العطية.

٢٥١- معارج اليقين في أصول الدين: للشيخ محمد السبزواري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المقدسة، ١٤١٠- ١٩٩٣، الطبعة الأولى.

٢٥٢- معالم العلماء: لابن شهرآشوب، دار المحجة البيضاء – بيروت، ومكتبة دار علوم القرآن – كربلاء المقدسة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢، الطبعة الأولى.

٢٥٣- معاني الأخبار: للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٣٧٩، مع طبعة أخرى.

٢٥٤- المعتمد في الأصول: للشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء – بيروت، ١٤٣٩هـ -٢٠١٨م، الطبعة الأولى.

٢٥٥- معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف: للشيخ علي الكوراني العاملي، مؤسسة المعارف الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١١، الطبعة الأولى.

٢٥٦- المعجم الكبير: للطبراني، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤ – ١٩٨٤م، الطبعة الثانية.

٢٥٧- معجم لغة الفقهاء: لمحمد قلعجي، دار النفائس – بيروت، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.

٢٥٨- معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس زكريا، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، مع طبعة أخرى.

٢٥٩- معدن الجوهر: لأبي الفتح الكراجكي، مهر استوار – قم المقدسة، ١٣٩٤، الطبعة الثانية.

٢٦٠- مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهاني، نشر طليعة النور، ١٤٢٧هـ، الطبعة الثانية، ودفتر الكتاب، ١٤٠٤، الطبعة الثانية، ودار القلم -دمشق، والدار الشامية -بيروت، ١٤٢٤هـ ق-١٣٨٢ش، الطبعة الثالثة، و١٤٢٥هـ، الطبعة الرابعة.

٢٦١- مقدمة في أصول الدين: للشيخ الوحيد الخراساني، من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية.

٢٦٢- مكاتيب الرسول: للأحمدي الميانجي، مؤسسة دار الحديث الثقافية، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

٢٦٣- مكارم الأخلاق: للشيخ الطبرسي، منشورات الشريف الرضي- قم المقدسة، ١٣٩٢- ١٩٧٢ م، الطبعة السادسة، مع طبعة أخرى.

٢٦٤- مكيال المكارم: للميرزا محمد تقي الأصفهاني، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٢١، الطبعة الأولى.

٢٦٥- من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: لعبد العظيم المهتدي البحراني، انتشارات الشريف الرضي – قم المقدسة، ١٤٢١- ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

٢٦٦- مناقب آل أبي طالب: لابن شهر آشوب، المكتبة الحيدرية –النجف الأشرف، ١٣٧٦-١٩٥٦، والطبعة العلمية.

٢٦٧- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: لمحمد بن سليمان الكوفي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

٢٦٨- منتقى الجمان: للشيخ حسن صاحب المعالم، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٣٦٢ش، الطبعة الأولى.

٢٦٩- المنجد في اللغة: للويس معلوف، انتشارات دهقاني، ١٣٧٤، الطبعة الرابعة.

٢٧٠- المنطق: للشيخ المظفر، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة.

٢٧١- من لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين –قم المقدسة، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية، مع طبعة أخرى.

٢٧٢- منهاج الهداية: لإبراهيم الكلباسي، مخطوط.

٢٧٣- منية المريد: للشهيد الثاني، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩ – ١٣٦٨ش، الطبعة الأولى.

٢٧٤- المهذب في أصول الفقه: للشيخ فاضل الصفار، الفكر الإسلامي – بيروت، ١٤٢١ – ٢٠١٠، الطبعة الأولى، ومكتبة العلامة ابن فهد الحلي – كربلاء المقدسة، ١٤٣٨- ٢٠١٩م، الطبعة الثانية.

٢٧٥- مواهب الجليل: للخطاب الرعيني، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٦-١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

٢٧٦- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: للشيخ هادي النجفي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٣- ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

٢٧٧- الموسوعة الفقهية الميسرة: للشيخ محمد على الأنصاري، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٥، الطبعة الأولى.

٢٧٨- موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: للجنة الحديث في معهد باقر العلوم، دار المعروف، ١٤١٦-١٩٩٥م، الطبعة الثالثة.

٢٧٩- الموضوعات: لابن الجوزي، المكتبة السلفية – المدينة المنورة، ١٣٨٨-١٩٦٨م.

(ن)

٢٨٠- النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: للعلامة الحلي، دار الأضواء - بيروت، ١٤١٧-١٩٩٦م، الطبعة الثانية.

٢٨١- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: للحلواني، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ١٤٠٨، الطبعة الأولى.

٢٨٢- النص والاجتهاد: للسيد شرف الدين، الناشر أبو مجتبى، ١٤٠٤، الطبعة الأولى.

٢٨٣- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، مؤسسة إسماعيليان –قم المقدسة، ١٣٦٤ش، الطبعة الرابعة.

٢٨٤- نهج الإيمان: لابن جبر، مجمع الإمام الهادي عليه السلام - مشهد المقدسة، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٢٨٥- نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام: دار الذخائر - قم المقدسة، ١٤١٢هـ-١٣٧٠، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٨٦- نهج الحق وكشف الصدق: للعلامة الحلي، دار الهجرة – قم المقدسة.

٢٨٧- نهج السعادة: للشيخ المحمودي، مطبعة النعمان –النجف الأشرف، ١٣٨٥-١٩٦٥م، الطبعة الأولى، ودار التعارف- بيروت ١٣٩٦-١٩٧٦، الطبعة الأولى.

٢٨٨- نور البراهين: للسيد نعمة الله الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي –قم المشرفة، ١٤١٧، الطبعة الأولى.

(هـ)

٢٨٩- هداية المسترشدين: للشيخ محمد تقي الرازي، مؤسسة النشر الإسلامي –قم المقدسة.

(و)

٢٩٠- الوافي بالوفيات: للصفدي، دار إحياء التراث، ١٤٢٠-٢٠٠٠م.

٢٩١- وسائل الشيعة: للحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الثانية، والمكتبة الإسلامية –طهرن، ١٤٠٣هـ، الطبعة السادسة.

٢٩٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لابن خلكان، دار الثقافة، تحقيق إحسان عباس.

(ي)

٢٩٣- الينابيع الفقهية: لعلي أصغر مرواريد، دار التراث -بيروت، والدار الإسلامية -بيروت، ١٤١٠ -١٩٩٠م، الطبعة الأولى، ومؤسسة فقه الشيعة - بيروت، ١٤١٣-١٩٩٣م، الطبعة الأولى.

٢٩٤- ينابيع المودة لذوي القربى: للقندوزي، دار الأسوة، ١٤١٦، الطبعة الأولى.

فهرست الكتاب

فهرس الجزء الأول

المُقَدِّمَةُ ١٣

في بيان المنهج وقواعده ١٣

المبحث الأول: عظمة القرآن وآثاره ١٦

المبحث الثاني: تعريف القرآن ٢٠

المبحث الثالث: أثر القرآن في حياة الإنسان ٤٢

المبحث الرابع: موضوع التفسير وغايته ٥٢

المبحث الخامس: أدب المفسِّر المعنوي ٥٦

المبحث السادس: القرآن والنبي والإمام عليهما السلام ٦١

المبحث السابع: جامعية القرآن وعموم نوره ٧١

المبحث الثامن: في التفسير ومقتضياته ٧٨

المبحث التاسع: مناهج المفسِّرين والمنهج الأفضل ٩١

القضية الأولى: في تعريف المنهج وتحديد ضوابطه ٩٣

القضية الثانية: في مناهج التفسير ٩٨

المبحث العاشر: مزايا المنهج الجمعي ١٣١

المبحث الحادي عشر: طبقات المفسِّرين ١٣٦

المبحث الثاني عشر: أثر الروايات في التفسير ١٤٧

المبحث الثالث عشر: مشكلات التفسير وما ينبغي للمفسِّر ١٧٨
المبحث الرابع عشر: في ظهر القرآن وبطنه ٢١١
المبحث الخامس عشر: ثلاث كلمات عن التفسير.....................٢٢٧
مباحث السورة المباركة..٢٣٧
المقدمات ٢٣٩
المقدمة الأولى: في ميزة البحث القرآني................................٢٤١
المقدمة الثانية: خذ العلم الأحسن.......................................٢٤٢
المقدمة الثالثة: لماذا البحث في سورة يس؟...........................٢٤٢
تفسير الاستعاذة ٢٥٣
بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...٢٥٩
المبحث الأول: في مفردات الآية...٢٦٣
المفردة الأولى: (الباء)...٢٦٣
المفردة الثانية: ﴿اسم﴾ ٢٦٨
المفردة الثالثة: ﴿الله﴾..٢٧٦
المفردة الرابعة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾..٢٧٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية..٢٨١
اللطيفة الأولى: في خصوصيات اسم الجلالة ٢٨١
الصنف الأول: الخصوصيّات اللفظية ٢٨١
الصنف الثاني: الخصوصيّات المعنوية ٢٨٥
اللطيفة الثانية: في أقسام الاسم وآثاره...............................٢٨٧

اللطيفة الثالثة: في خصائص الاسمين.............................. ٢٩٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٣٠٥
التعليم الأول: معارف البسملة... ٣٠٥
التعليم الثاني: الاستعانة بالبسملة..................................... ٣١٢
الأول: مانع النفس.. ٣١٣
الثاني: مانع الشيطان الرجيم.................................... ٣٢٢
لماذا خلق الله الشيطان؟.. ٣٢٨
كيف يأكل الشيطان؟.. ٣٣٥
التعليم الثالث: مشاركة الشيطان في الأكل المعنوي.................. ٣٣٥
التعليم الرابع: فوائد ذكر الاسم المبارك.............................. ٣٣٧
التعليم الخامس: لماذا حرّم ما لا يذكر اسم الله عليه؟ ٣٣٨
التعليم السادس: الآثار المعنوية للتسمية ٣٤٠
الشيطان إمام صلاتهم.. ٣٤٥
يس.. ٣٤٩
المبحث الأول: في مفردة ﴿يس﴾ ٣٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٣٥٧
اللطيفة الأولى: محمد وآل محمد عليهم السلام بسملة الكتاب ٣٥٧
اللطيفة الثانية: محمد وآل محمد عليهم السلام أعظم آية................ ٣٥٩
اللطيفة الثالثة: لماذا الحروف المقطعة؟................................. ٣٦١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٣٦٣

التعليم الأول: تلازم القرآن والعترة ٣٦٣
التعليم الثاني: الانفتاح العلمي........................ ٣٦٣
التعليم الثالث: ضرورة اعادة ترقيم الآيات........................ ٣٦٤
وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ........................ ٣٦٥
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٣٦٧
المفردة الأولى: (الواو)........................ ٣٦٧
المفردة الثانية: ﴿الْقُرْآنِ﴾........................ ٣٧٠
المفردة الثالثة: ﴿الْحَكِيمِ﴾ ٣٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٣٧٣
اللطيفة الأولى: في حكمة القرآن ٣٧٣
اللطيفة الثانية: الحكمة في الرموز والإشارات ٣٧٨
اللطيفة الثالثة: لا يعرف القرآن بغير المعصوم عليه السلام........................ ٣٨١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٣٨٥
التعليم الأول: حكمة القرآن في تربية الإنسان........................ ٣٨٥
التعليم الثاني: نزول القرآن على قدر القابل........................ ٣٩٠
التعليم الثالث: تجلي القرآن وعلو النبي صلى الله عليه وآله ٣٩٢
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ........................ ٣٩٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٣٩٥
المفردة الأولى: ﴿إِنَّكَ﴾........................ ٣٩٥
المفردة الثانية: ﴿لَمِنَ﴾ ٣٩٥

المفردة الثالثة: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ٣٩٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٠٣
اللطيفة الأولى: بيان مكانة النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِه ومقامه ٤٠٣
اللطيفة الثانية: لماذا لم يذكر القرآن صفات النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَآلِه؟ ٤٠٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤١١
التعليم الأول: ٤١١
التعليم الثاني: ٤١١
التعليم الثالث: ٤١٢
عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤١٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٤١٥
المفردة الأولى: ﴿عَلَى﴾ ٤١٥
المفردة الثانية: ﴿صِرَاطٍ﴾ ٤١٥
المفردة الثالثة: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٤١٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤١٧
اللطيفة الأولى: لماذا (على) لا (إلى) صراط؟ ٤١٧
اللطيفة الثانية: أركان النجاح ٤١٨
اللطيفة الثالثة: ٤١٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٢٣
التعليم الأول: الاستقامة في المنهج ٤٢٣
التعليم الثاني: الصراط المستقيم هو المعصوم عَلَيْهِالسَّلَامُ ٤٢٧

التعليم الثالث: تجليّات الصراط المستقيم........................٤٣٤
تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٤٤١
المبحث الأول: في مفردة التنزيل........................٤٤٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................٤٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٤٥٧
التعليم الأول: التعامل بالرحمة........................٤٥٧
التعليم الثاني: التوازن والاعتدال في الأمور ٤٥٨
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ........................٤٥٩
المبحث الأول: في مفردات الآية........................٤٦١
المفردة الأولى: ﴿مَّا﴾ ٤٦١
المفردة الثانية: ﴿لِتُنذِرَ﴾ ٤٦١
المفردة الثالثة: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................٤٦٥
اللطيفة الأولى: ٤٦٥
اللطيفة الثانية: ٤٦٥
اللطيفة الثالثة: ٤٦٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٤٦٩
التعليم الأول: ٤٦٩
التعليم الثاني: مظهر الغفلة وجوهرها........................٤٦٩
التعليم الثالث: قاعدتان تربويتان........................٤٧٢

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ........ ٤٧٩
المبحث الأول: في مفردات الآية................................ ٤٨٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية................................ ٤٨٩
اللطيفة الأولى:.. ٤٨٩
اللطيفة الثانية: ٤٨٩
اللطيفة الثالثة: ٤٩٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................ ٤٩١
التعليم الأول: ما هو أساس الفساد في البشر؟.................... ٤٩١
التعليم الثاني: الإنسان يختار مصيره............................ ٤٩٢
التعليم الثالث: مصير المعاندين................................ ٤٩٣
التعليم الرابع: حقيقتان للمبلغين والسياسيين...................... ٤٩٥
الفهرس.. ٤٩٧

فهرس الجزء الثاني

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ............ ٩

المبحث الأول: في مفردات الآية ١١

المفردة الأولى: (الأغلال) ١١

المفردة الثانية: ﴿الْأَذْقَانِ﴾ ١٢

المفردة الثالثة: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾........................ ١٢

المبحث الثاني: في لطائف الآية ١٥

اللطيفة الأولى:........................ ١٥

اللطيفة الثانية:........................ ١٥

اللطيفة الثالثة:........................ ١٧

المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ١٩

التعليم الأول: سر نجاح العلاقات الأسريّة ١٩

التعليم الثاني: الترفّع عن الجاهلين........................ ٢٤

التعليم الثالث: قاعدة تجسّم الأعمال والملكات........................ ٢٦

التعليم الرابع: التعصب للحزب والجماعة من الأغلال........................ ٣١

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ إِيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ
.... ٣٥

المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٩

المفردة الأولى: (السد)........................ ٣٩

المفردة الثانية: (الغشية للبصر) ٣٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................ ٤٩
التعليم الأول: على العاقل أن يبصر ماضيه ومستقبله............ ٤٩
التعليم الثاني: التخلص من سجون النفس......................... ٥١
التعليم الثالث: ٥١
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ ٥٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٥٥
المفردة الأولى: ﴿سَوَاءٌ﴾.. ٥٥
المفردة الثانية:(الإنذار)... ٥٥
المفردة الثالثة: ﴿أَمْ لَمْ﴾.. ٥٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٥٧
اللطيفة الأولى: منهج الإيمان ومنهج الإلحاد ٥٧
اللطيفة الثانية: الجاهلية المعاصرة والعودة إلى الله................. ٦٦
اللطيفة الثالثة: لماذا أنذر من لا يستجيب؟......................... ٧٣
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................ ٧٧
التعليم الأول: قواعد تنظيم السلوك الإجتماعي ٧٧
التعليم الثاني: لا يأس مع الإيمان................................ ٧٩
التعليم الثالث: الحق ينتصر ٧٩
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ

.... ٨١
المبحث الأول: في مفردات الآية ٨٥
المفردة الأولى: ﴿الذِّكْرَ﴾ ٨٥
المفردة الثانية: (الخشية) ٨٧
المفردة الثالثة: ﴿الْغَيْبِ﴾ ٨٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٩١
اللطيفة الأولى: مراتب الذكر ٩١
اللطيفة الثانية: ما هي مهمة الأنبياء؟ ٩٢
اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصومون وما أثره؟ ٩٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٩٩
التعليم الأول: القرآن والمعصوم والحضارة ٩٩
التعليم الثاني: إصلاح النفوس قبل إصلاح الدول ١٠٣
التعليم الثالث: مراتب التقوى ١٠٥
التعليم الرابع: أركان المعرفة الإلهية ١٠٦
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١١١
المبحث الأول: في مفردات الآية ١١٥
المفردة الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ١١٥
المفردة الثانية: ﴿نَكْتُبُ﴾ ١١٦
المفردة الثالثة: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ ١١٩

المفردة الرابعة: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾..١٢١
المفردة الخامسة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾..١٢٤
المفردة السادسة: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾..١٢٥
المفردة السابعة: ﴿إِمَامٍ مُبِينٍ﴾..١٢٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية..١٣٣
اللطيفة الأولى: أقسام الحياة والموت..١٣٣
اللطيفة الثانية: بماذا تحيا الأرواح؟..١٣٥
اللطيفة الثالثة: صحيفة أعمال الأمة..١٤٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..١٤٧
التعليم الأول: ضوابط التوفيق الدلالي بين الآيات والروايات........١٤٧
التعليم الثاني: هل تناقض القرآن مع الإمام المبين؟........................١٥٧
التعليم الثالث: حياة كل شيء وبقاؤه بالإمام عليه السلام........................١٦٨
التعليم الرابع: الموت الحقيقي والحكمي..١٧٨
التعليم الخامس:..١٧٨
التعليم السادس:..١٧٨
التعليم السابع:..١٧٩
التعليم الثامن: حقائق معرفيّة..١٧٩
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ
اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٨٣
المبحث الأول: في مفردات الآيتين..١٨٥

المفردة الأولى: ﴿وَاضْرِبْ﴾.. ١٨٥
المفردة الثانية: ﴿الْقَرْيَةِ﴾ ١٨٦
المفردة الثالثة: قوله: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾........................ ١٨٧
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين ١٩١
اللطيفة الأولى: لماذا يُكذِّبون الأنبياء؟.............................. ١٩١
اللطيفة الثانية: ما علاقة قريش بأهل القرية؟........................ ١٩٦
اللطيفة الثالثة: لماذا عززهم بثالث؟................................ ١٩٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين.................................. ٢٠١
التعليم الأول: ثلاثة عناصر لنجاح الأفراد والدول.................... ٢٠١
التعليم الثاني: بالإقناع يتم الإيمان ٢٠٣
التعليم الثالث: أثر التعزيز بثالث................................... ٢٠٧
التعليم الرابع: مبادئ الإدارة والقيادة ٢١٠
التعليم الخامس: التعزيز بثالث ودلالته الاصولية...................... ٢١١
التعليم السادس: بصائر للمبلغين والمصلحين ٢١٢
التعليم السابع: علائم المتحلين والدجالين والسحرة ٢١٣
قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ
.... ٢١٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢١٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٢٣
اللطيفة الأولى: ما هي أسباب تكذيب الرسل؟ ٢٢٣

اللطيفة الثانية: هل العقل يغني عن النبوة؟ ٢٢٧
اللطيفة الثالثة: القياس من أسباب إنكار النبوات ٢٣٢
اللطيفة الرابعة: لماذا نسبوا الإنزال للرحمن؟........................ ٢٣٦
اللطيفة الخامسة: لماذا كذبوا الرسل وأقروا بصلاحهم؟ ٢٤٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٢٤٣
التعليم الأول: التعصب علامة الجهل ٢٤٣
التعليم الثاني: هفوة الحداثوية والإلحاد ٢٤٥
التعليم الثالث: إرشاد للمعلمين والمربين ٢٤٦
التعليم الرابع: لماذا لم يبعث الله النساء؟........................ ٢٤٧
قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ۝وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ........................ ٢٦١
المبحث الأول: في مفردات الآيتين ٢٦٣
المفردة الأولى: ﴿رَبُّنَا﴾........................ ٢٦٣
المفردة الثانية: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾........................ ٢٦٣
المفردة الثالثة:﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ٢٦٤
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين ٢٦٩
اللطيفة الأولى: لماذا القسم لمن لايؤمن بالله؟ ٢٦٩
اللطيفة الثانية: لماذا قسموا بالربوبية والعلم؟ ٢٧٣
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكروا العلم؟ ٢٧٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين........................ ٢٧٥
التعليم الأول: فن الإقناع ٢٧٥

التعليم الثاني: المصلحون الإلهيّون........................ ٢٧٦
التعليم الثالث: تمامية الحجة بشرطين؟ ٢٧٦
التعليم الرابع:.. ٢٧٧
التعليم الخامس: لماذا يحكم على المرتد بالقتل؟ ٢٧٨
الجمع بين لا إكراه في الدين وقتل المرتد ٢٩٣
أربع فئات تنتقد الدين جهلاً............................ ٢٩٤
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .٢٩٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٠١
المفردة الأولى: ﴿تَطَيَّرْنَا﴾................................. ٣٠١
المفردة الثانية: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ٣٠٥
المفردة الثالثة: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾.............................. ٣٠٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٠٩
اللطيفة الأولى: ثلاث عقوبات يستعملها الجبابرة ٣٠٩
اللطيفة الثانية: لماذا لم يسجنوا الرسل؟......................... ٣١٢
اللطيفة الثالثة:.. ٣١٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................... ٣١٣
التعليم الأول: ما يجب توفره في النهضات الإصلاحية ٣١٣
التعليم الثاني: للزعماء والقادة.............................. ٣١٤
التعليم الثالث: للمحاورين.................................. ٣١٥
التعليم الرابع: التشاؤم والتفاؤل فقهياً ونفسياً ٣٢٥

قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ.................٣٢٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٣٣
المفردة الأولى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ٣٣٣
المفردة الثانية: ﴿أَئِنْ﴾ ٣٣٤
المفردة الثالثة: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ ٣٣٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٣٧
اللطيفة الأولى: الإسراف والمسرفون..........................٣٣٧
اللطيفة الثانية: الإسراف الجماعي..........................٣٤٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..........................٣٤١
التعليم الأول: الجبابرة يعادون المصلحين..........................٣٤١
التعليم الثاني: أثر الأعمال على حاضر الإنسان ومستقبله ٣٤٤
التعليم الثالث: الإنسان يصنع سعادته..........................٣٤٨
طريقان يوصلانك للسعادة..........................٣٥١
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ..........................٣٦١
المبحث الأول: في مفردات الآيتين ٣٦٣
المفردة الأولى: ﴿وَجَاءَ﴾ ٣٦٣
المفردة الثانية: ﴿اتَّبِعُوا﴾ ٣٦٤
المفردة الثالثة: ﴿أَجْراً﴾ ٣٦٤
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين ٣٦٩

اللطيفة الأولى:رجولة حبيب النجار........................... ٣٦٩
اللطيفة الثانية:... ٣٧٢
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر الأجر لا الهداية؟.................... ٣٧٣
اللطيفة الرابعة: الصدّيقون الثلاثة............................. ٣٧٦
اللطيفة الخامسة: لماذا لا يطلب الأنبياء أجراً؟................ ٣٨٠
ما معنى مودة القربى وما هو ثمنها؟ ٣٨٣
السكن الزوجي ٣٨٧
واجبات المودة... ٣٨٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين.............................. ٣٩٣
التعليم الأول: القائد الذي يجب اتباعه ٣٩٣
التعليم الثاني: وجوب المبادرة لنصرة الحق..................... ٣٩٥
التعليم الثالث: الإشارات العلمية للآيتين....................... ٣٩٨
وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٤٠١
المبحث الأول: في مفردات الآية................................ ٤٠٣
المفردة الأولى: ﴿وَمَا لِيَ﴾ ٤٠٣
المفردة الثانية: ﴿لاَ أَعْبُدُ﴾.. ٤٠٣
المفردة الثالثة: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ٤٠٤
المفردة الرابعة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٤٠٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٠٧
اللطيفة الأولى: أسباب الاستفهام ٤٠٧

ميزة البحث العلمي عن غيره.................................... ٤١٠
اللطيفة الثانية: لماذا استفهم حبيب؟.................................... ٤١٢
اللطيفة الثالثة: مقام حبيب النجار العلمي.................................... ٤١٣
مزايا الخلق والفطر ٤١٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................... ٤١٩
التعليم الأول: فرق الفطرة عن العقل ٤١٩
التعليم الثاني: الفطر يقود إلى العبوديّة ٤٢٣
التعليم الثالث: أعلى مراتب العبادة.................................... ٤٢٤
ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ.................................... ٤٢٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٤٢٩
المفردة الأولى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ﴾ ٤٢٩
المفردة الثانية: ﴿آلِهَةً﴾.................................... ٤٢٩
المفردة الثالثة: ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ ٤٣١
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٣٥
اللطيفة الأولى:.................................... ٤٣٥
اللطيفة الثانية:.................................... ٤٣٥
اللطيفة الثالثة: ما هي حكمة الأضرار والأمراض؟.................................... ٤٣٧
اللطيفة الرابعة: فرق الضُر عن الضَر ٤٤٣
اللطيفة الخامسة:.................................... ٤٤٤

المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٤٤٧
التعليم الأول: الاستدلال الصحيح يقوم على الوجدان ٤٤٧
التعليم الثاني: أقسام الملاحدة وخطأ المنهج ٤٥٠
أدلة بطلان الصدفة........................٤٥٢
التعاليم الثالث:........................٤٥٤
التعليم الرابع:........................٤٥٥
إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ........................٤٥٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٤٥٩
المفردة الأولى: ﴿إِنِّي إِذاً﴾ ٤٥٩
المفردة الثانية: ﴿ضَلاَلٍ﴾ ٤٦٠
المفردة الثالثة: ﴿مُبِينٍ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٤٦٥
اللطيفة الأولى:........................٤٦٥
اللطيفة الثانية:........................٤٦٥
اللطيفة الثالثة: لماذا نسب الضلال لنفسه؟..................٤٦٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................٤٦٧
التعليم الأول: ترابط الحس والعقل والقلب........................٤٦٧
التعليم الثاني:........................٤٦٨
التعليم الثالث: ٤٦٨
الفهرس ٤٦٩

فهرس الجزء الثالث

إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ۝قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ۝بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ........ ٩
المبحث الأول: في مفردات الآيات ١٣
المفردة الأولى: (ضمير المخاطب)........ ١٣
المفردة الثانية: ﴿الْجَنَّةَ﴾ ٢٦
المفردة الثالثة: ﴿قَوْمِي﴾ ٢٩
المبحث الثاني: في لطائف الآيات المباركات ٣١
اللطيفة الأولى:........ ٣١
اللطيفة الثانية:........ ٣١
اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصوم؟ ٣٤
اللطيفة الرابعة:........ ٤١
اللطيفة الخامسة: كيف ينتفع الميت في البرزخ؟........ ٤٣
عناية رجال الله بذويهم ٤٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآيات المباركات........ ٥١
التعليم الأول: نفوذ الإقرار على النفس........ ٥١
التعليم الثاني: الدفاع عن حجج الله وشعائره ٥٣
موارد التقية وأساليبها........ ٥٤
التعليم الثالث: التخلية قبل التحلية ٥٩
التعليم الرابع: بين المرشد والمؤرّخ........ ٦٠

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّماءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٦٥
ما هي صيحة جبرئيل؟ ٦٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٦٩
المفردة الأولى: ﴿وَمَا﴾ ٦٩
المفردة الثانية: ﴿جُندٍ﴾ ٦٩
المفردة الثالثة: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٧٣
اللطيفة الأولى: الجهل بنعمة رجال الله ٧٣
اللطيفةالثانية: ٧٥
اللطيفة الثالثة: ٧٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٧٧
التعليم الأول: ٧٧
التعليم الثاني: ٧٧
التعليم الثالث: هكذا يقتلون رجال الله ٧٧
كيف هجروا القرآن؟ ٨٠
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ٨٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٨٥
المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾ ٨٥
المفردة الثانية: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ٨٥
المفردة الثالثة: ﴿خَامِدُونَ﴾ ٨٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٩١

اللطيفة الأولى:... ٩١
اللطيفة الثانية: لماذا تهلك أمة لأجل رجل؟ ٩٢
اللطيفة الثالثة:... ٩٣
اللطيفة الرابعة: ٩٣
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٩٥
التعليم الأول:.. ٩٥
التعليم الثاني: وجوب الاعتماد على الله.................. ٩٦
التعليم الثالث: الصلاح بإتباع العلماء لا الساسة ٩٦
يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ٩٩
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ١٠٣
المفردة الأول: ﴿يَاحَسْرَةً﴾................................ ١٠٣
المفردة الثانية: ﴿الْعِبَادِ﴾ ١٠٧
المفردة الثالثة: ﴿رَّسُولٍ﴾ ١٠٩
المفردة الرابعة: ﴿يَسْتَهْزِؤُون﴾ ١٠٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ١١١
اللطيفة الأولى: الإستهزاء بالقول وبالعمل.................. ١١١
ماذا يعني الاستخفاف بالصلاة؟.......................... ١١٤
اللطيفة الثانية: الإستهزاء بالمؤمن أشد..................... ١١٨
اللطيفة الثالثة: الاستخفاف بالرواية........................ ١١٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ١٢٣
التعليم الأول: الثبات على رغم المستهزئين.................. ١٢٣

التعليم الثاني: تحدي الاستهزاء..١٢٧
التعليم الثالث: أشكال الاستهزاء ١٢٨
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ۞وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ١٣٣
المبحث الأول: في مفردات الآيتين.....................................١٣٥
المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾..١٣٥
المفردة الثانية: ﴿يَرَوْا﴾...١٣٨
المفردة الثالثة: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ١٤١
المفردة الرابعة: ﴿الْقُرُونِ﴾..١٤٢
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين......................................١٤٣
اللطيفة الأولى: لماذا انتقل الخطاب إلى الحوار؟ ١٤٣
اللطيفة الثانية: فرق الموت عن الهلاك.................................١٤٦
اللطيفة الثالثة: ما معنى المعاد الجسماني؟ ١٤٧
اللطيفة الرابعة: لماذا وصفت الأمم بالقرون؟...........................١٥٠
اللطيفة الخامسة: لماذا عبرّ بالرؤية دون العلم؟ ١٥٣
اللطيفة السادسة:...١٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين الكريمتين ١٥٧
التعليم الأول: نقصان نظرية الطبيعيين والحكماء ١٥٧
التعليم الثاني: دراسة التأريخ واجبة ١٥٨
التعليم الثالث: حرمة تتبع العثرات.......................................١٦٠
التعليم الرابع: إبطال نظرية الطبيعيين والحكماء في المعاد........١٦١

التعليم الخامس: زمان الرجعة وغايته ١٦٧
دلائل الرجعة عقلاً ونقلاً..............................١٦٩
وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ١٧٧
المبحث الأول: في مفردات الآية..............................١٧٩
المفردة الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾..............................١٧٩
المفردة الثانية: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾..............................١٨٢
المفردة الثالثة: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾..........................١٨٣
المفردة الرابعة: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾..............................١٨٤
المفردة الخامسة: ضمير الجمع (نا)..............................١٨٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية..............................١٨٩
اللطيفة الأولى: كيف يصل العارفون إلى اليقين؟ ١٨٩
اللطيفة الثانية: أقسام الروح وبطلان الداروينية..........................١٩٣
اللطيفة الثالثة:..............................١٩٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..............................١٩٧
التعليم الأول: أصول المحاججة المثمرة ١٩٧
التعليم الثاني:..............................٢٠١
التعليم الثالث: اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة..........................٢٠١
التعليم الرابع: الخبز من آيات الله..............................٢٠٧
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ۝لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٢٠٩
المبحث الأول: في مفردات الآيتين..............................٢١١

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين..................................٢١٥
اللطيفة الأولى: فرق الجعل عن الخلق والإخراج ٢١٥
اللطيفة الثانية: لماذا خص العنب والتمر بالذكر؟............................٢١٨
شباهة النخل بالإنسان...٢٢١
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر العيون دون المطر؟..............................٢٢٣
اللطيفة الرابعة:..٢٢٥
اللطيفة الخامسة:...٢٢٨
اللطيفة السادسة: فوائد الشكر وآثاره ٢٢٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين..................................٢٣١
التعليم الأول: معرفة الله بالنظر لآياته ٢٣١
التعليم الثاني: حق الربوية والعبودية.....................................٢٣١
التعليم الثالث: ٢٣٢
التعليم الرابع:...٢٣٢
التعليم الخامس:..٢٣٢
التعليم السادس: قواعد وفروع أصولية وفقهية...........................٢٣٣
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ..٢٣٥
تكامل العقل والدين ٢٣٧
المبحث الأول: في مفردات الآية....................................٢٣٩
المفردة الأولى: ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.......................................٢٣٩
قضايا الدين وحقائقه..٢٤١

المفردة الثانية: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ ٢٤٢
المفردة الثالثة: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ٢٤٥
المفردة الرابعة: النفي في ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٢٤٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٤٩
اللطيفة الأولى: الأبناء صنائع الآباء ٢٤٩
اللطيفة الثانية: معنى التسبيح وآثاره ٢٥٠
بطلان نظرية الواحد ٢٥٦
وهن البرهان اللّمي في المعرفة ٢٥٧
توظيف العلم للشكر والعبودية ٢٥٩
اللطيفة الثالثة: الزوجية علة التأثير في الخلق ٢٦٠
اللطيفة الرابعة: العلم يقود إلى الإيمان ٢٦١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٦٣
التعليم الأول: كل شيء يقوم بالزوجية حتى الدول ٢٦٣
وجوب العمل بقانون الزوجية ٢٦٥
مبادىء قانون الزوجية ٢٦٩
التعليم الثاني: ٢٧٥
التعليم الثالث: ٢٧٦
التعليم الرابع: التواضع للعلم والدين ٢٧٦
وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٢٧٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٨١
المفردة الأولى: (الواو) ٢٨١

المفردة الثانية: ﴿آيَةٌ﴾ ٢٨٢
المفردة الثالثة: ﴿لَّهُمُ﴾ ٢٨٤
المفردة الرابعة: ﴿الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ٢٨٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٩٩
اللطيفة الأولى: حقيقة الموت والحياة ٢٩٩
اللطيفة الثانية: ٣٠١
اللطيفة الثالثة: ٣٠٢
اللطيفة الرابعة: النور والظلمة بيد الناس ٣٠٣
المعنى الباطن لليل والنهار ٣٠٤
أقسام الوراثة والوراثة المعنوية ٣٠٧
اللطيفة الخامسة: التكامل بين البشر لا المساواة ٣١٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٣١٣
التعليم الأول: دوام الحال من المحال فتفاءلوا ٣١٣
التعليم الثاني: كل آية مدرسة ٣١٦
التعليم الثالث: ظلمانية الأجساد ونورانية الأرواح ٣٢٣
التعليم الرابع: الزمان أمر حقيقي أم اعتباري؟ ٣٢٥
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٣٢٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٢٩
المفردة الأولى: (الواو) ٣٢٩
المفردة الثانية: ﴿تَجْرِي﴾ ٣٣٢
بطلان نظرية جمع القرآن وقراءاته ٣٣٦

المفردة الثالثة: ﴿لِّمُسْتَقَرٍّ﴾... ٣٤٠
المفردة الرابعة: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.................. ٣٤٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية... ٣٥١
اللطيفة الأولى: دلائل حركة الشمس.. ٣٥١
اللطيفة الثانية: الشمس كائن حي مختار.................................... ٣٥٣
اللطيفة الثالثة: كل شيء حي ناطق ٣٥٨
كمال الدين وقصور العلم... ٣٦٥
اللطيفة الرابعة: النبي والإمام شمسان للقلوب والبصائر ٣٦٧
كيف تشرق الأرض بنور الإمام عليه السلام؟ ٣٦٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٣٧٥
التعليم الأول: النتائج تظهر بالأعمال... ٣٧٥
التعليم الثاني: أركان النجاح في كل عمل ٣٨١
التعليم الثالث: الكون جامعة للعلوم والمعارف........................... ٣٨٣
التعليم الرابع: السعادة بالتوازن بين أمور:................................... ٣٩٠
وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ......................... ٣٩٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٣٩٩
المفردة الأولى:.. ٣٩٩
المفردة الثانية: ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾... ٤٠١
المفردة الثالثة: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾... ٤٠٢
المفردة الرابعة: ﴿الْقَدِيمِ﴾ ٤٠٧
المفردة الخامسة: ﴿عَادَ﴾ ٤٠٨

المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................................٤٠٩
اللطيفة الأولى: لماذا شبهّت منازل القمر بالعرجون؟ ٤٠٩
اللطيفة الثانية: خصائص الآية الإلهية.................................٤١٢
اللطيفة الثالثة: دلالة القمر والعرجون على المعاد الجسماني.....٤١٣
اللطيفة الرابعة: بطلان أقوال المنجمين.................................٤١٤
اللطيفة الخامسة:..٤١٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة...............................٤٢١
التعليم الأول: العروج البدني والروحي للبشر.........................٤٢١
العروج الروحي قسمان..٤٢٤
مراتب اليقين والمعرفة ٤٢٤
مقامات العروج القلبي...٤٢٦
غذاء العروج الروحي ٤٢٧
التعليم الثاني: منازل تكامل الإنسان...................................٤٣٠
ما هي وظائف الأنبياء؟ ٤٣٢
الحياة الطيبة في الدين فقط ٤٣٦
الحضارة البشرية مدينة للأنبياء..٤٣٩
التعليم الثالث: ٤٤٢
التعليم الرابع: خصائص المتفوقين في الحياة...........................٤٤٣
لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ...٤٤٧
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................................٤٥١

المفردة الأولى: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٤٥١
المفردة الثانية: ﴿لاَ﴾ ٤٥٢
المفردة الثالثة: ﴿يَنبَغِي﴾ ٤٥٥
المفردة الرابعة: ﴿تُدْرِكَ﴾ ٤٥٧
المفردة الخامسة: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ٤٦٠
المفردة السادسة: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٤٧٣
اللطيفة الأولى: آثار القمر معنوياً ٤٧٣
اللطيفة الثانية: سرّ التطور والإبداع.................................... ٤٨١
اللطيفة الثالثة:.. ٤٨٣
اللطيفة الرابعة: التسبيح يوحد المخلوقات................................ ٤٨٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٨٩
التعليم الأول: ما سبب تأخر المسلمين؟ وما هو علاجه؟ ٤٨٩
التعليم الثاني: الحياة جميلة بالجميع..................................... ٤٩١
التعليم الثالث: تطور الحياة بالحرية..................................... ٤٩٢
التعليم الرابع:.. ٤٩٢
الفهرس ٤٩٣

فهرس الجزء الرابع

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.................... ٩

المبحث الأول: في مفردات الآية.................................... ١١

المفردة الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾.................................... ١١

المفردة الثانية: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾ ١٥

المفردة الثالثة: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.................................... ١٦

المفردة الرابعة: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ٢٢

المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................... ٢٥

اللطيفة الأولى: كيف صارت السفينة آية؟ ٢٥

اللطيفة الثانية:.................................... ٢٦

اللطيفة الثالثة:.................................... ٢٧

اللطيفة الرابعة: تشابه الأرض وسفينة نوح ٢٨

ما هو أصل اللغة؟.................................... ٣٠

اللطيفة الخامسة: سفينة الحسين عليه السلام أسرع ٣١

المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................... ٣٥

التعليم الأول: السعادة في ثلاث سفن يجب ركوبها ٣٥

التعليم الثاني: عجز القوى العظمى.................................... ٤٤

التعليم الثالث: ما هي مهام العلم؟.................................... ٤٥

التعليم الرابع: ٤٦

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٤٧

المبحث الأول: في مفردات الآية.................................. ٥١
المفردة الأولى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾................................. ٥١
المفردة الثانية: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾... ٥٣
المفردة الثالثة: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾..................................... ٥٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية.................................... ٥٧
اللطيفة الأولى: لماذا قال ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾؟.............................. ٥٧
اللطيفة الثانية: الصناعات الحديثة من الله سبحانه............... ٥٨
اللطيفة الثالثة:... ٥٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة.......................... ٦١
التعليم الأول: كيف تعرف الحق من الباطل؟........................ ٦١
التعليم الثاني: انظروا إلى حياتكم يا شباب......................... ٦٢
التعليم الثالث: احذر من ركوب الموج ٦٤
وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ٦٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.................................... ٦٧
المفردة الأولى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾................................ ٦٧
المفردة الثانية: ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾.................................. ٧٠
المفردة الثالثة: ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾................................ ٧٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................................... ٧٥
اللطيفة الأولى:.. ٧٥
اللطيفة الثانية: ما جرى على الآباء يجري على الأبناء............ ٧٥
اللطيفة الثالثة: علاج الأمراض الروحية............................ ٧٦

المبحث الثالث في تعاليم الآية ٧٩
التعليم الأول: كيف تنجو من الفتن؟ ٧٩
التعليم الثاني: ٨٠
التعليم الثالث: السيادة عند الله سبحانه لا الغرب والشرق ٨١
التعليم الرابع: ٨٢
إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إلى حِينٍ ٨٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٨٥
المفردة الأولى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ٨٥
المفردة الثانية: ﴿مِّنَّا﴾ ٨٧
المفردة الثالثة: ﴿وَمَتَاعًا﴾ ٨٨
المفردة الرابعة: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ ٨٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٩١
اللطيفة الأولى: العقوبة بين الرحمة والرأفة ٩١
اللطيفة الثانية: العيش والحياة ٩٤
اللطيفة الثالثة: لماذا أبهم الأجل؟ ٩٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٩٧
التعليم الأول: بالرحمة قامت الأشياء فكن رحيماً ٩٧
لماذا خلق الإنسان؟ ٩٨
الإبتلاءات رحمة ١٠٤
الغايات الطولية للخلق ١٠٦
التعليم الثاني: النظريات الباطلة في فهم القرآن ١٠٩

العلوم التي لا يعرفها إلّا الإمامعليه السلام..................... ١١٣
التعليم الثالث: ١١٦
التعليم الرابع: لا بلاء مستمر ولا نعيم مستمر.................... ١١٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١١٩
تشابه أهل مكة وقوم نوح.................................. ١٢١
المبحث الأول: في مفردات الآية ١٢٣
المفردة الأولى: ﴿إِذَا﴾....................................... ١٢٣
المفردة الثانية: جواب الشرط................................. ١٢٤
المفردة الثالثة: ﴿مَا﴾....................................... ١٢٥
المفردة الرابعة: ﴿اتَّقُوا﴾ ١٢٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية.............................. ١٣٣
اللطيفة الأولى: لماذا أبهم القائل؟ ١٣٣
اللطيفة الثانية: سر توجيه الخطاب للحاضر...................... ١٣٥
اللطيفة الثالثة: جهتان للرحمة الإلهية........................... ١٣٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ١٣٩
التعليم الأول: ترابط العلم والرزق والتقوى ١٣٩
التعليم الثاني:.. ١٤١
التعليم الثالث: للفقهاء والأصوليين............................. ١٤١
التعليم الرابع: للمحاورين والمبلغين ١٤٣
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ١٤٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.............................. ١٤٩

المفردة الأولى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ ١٤٩
المفردة الثانية: ﴿من آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ١٥٠
المفردة الثالثة: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ١٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ١٥٥
اللطيفة الأولى: العلم والهداية من الله........................ ١٥٥
اللطيفة الثانية:........................ ١٥٦
اللطيفة الثالثة: النبي والأئمة أعظم آيات الله........................ ١٥٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة........................ ١٦١
التعليم الأول: الملاكات العقلية لوجوب المعرفة ١٦١
التعليم الثاني: الإعراض عن آيات القرآن........................ ١٦٩
التعليم الثالث: ثلاث وسائط إلهية للتربية ١٧٢
التعليم الرابع: للفقهاء والأصوليين ١٧٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ........................ ١٧٩
لماذا لم يُطعموا الجياع؟........................ ١٨١
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ١٨٧
المفردة الأولى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله﴾ ١٨٧
المفردة الثانية: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ﴾........................ ١٩٣
المفردة الثالثة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾........................ ١٩٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢٠١

اللطيفة الأولى:..٢٠١
اللطيفة الثانية: لماذا أمر الكفار بالإنفاق؟ ٢٠٢
اللطيفة الثالثة: الرزق التكويني والتشريعي ٢٠٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٠٧
التعليم الأول: علائم الإيمان والكفر ٢٠٧
التعليم الثاني: الزعماء يقلبون الحقائق..٢١٤
التعليم الثالث: خصائص رزق الله سبحانه ٢١٧
التعليم الرابع: تبرير الأخطاء مرض وتكبرّ ٢٢٢
التعليم الخامس: كيف ينجح الحوار؟..٢٢٤
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٢٥
المبحث الأول: في مفردات الآية..٢٢٧
المفردة الأولى: (الواو)..٢٢٧
المفردة الثانية: ﴿الْوَعْدُ﴾..٢٢٧
المفردة الثالثة: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ ٢٢٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية..٢٢٩
اللطيفة الأولى: سؤال الملاحدة والكفار واحد ٢٢٩
اللطيفة الثانية: لماذا الوعد دون الوعيد؟ ٢٣٠
اللطيفة الثالثة:..٢٣٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٣٥
التعليم الأول: الوفاء بالوعد واجب عقلي ٢٣٥
التعليم الثاني:..٢٣٨

التعليم الثالث: ٢٣٩
التعليم الرابع: حجية خبر الواحد ٢٣٩
التعليم الخامس: ٢٤٠
التعليم السادس: ان التجري حرام ٢٤٠
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ٢٤١
زمان الوعد وعلائمه ٢٤٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٤٥
المفردة الأولى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ٢٤٥
المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ٢٤٨
المفردة الثالثة: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ٢٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٥٥
اللطيفة الأولى: لماذا تأخذهم صيحة لا صرخة؟ ٢٥٥
اللطيفة الثانية: بين الأخذ والإهلاك ٢٥٧
اللطيفة الثالثة: لماذا يختصمون؟ ٢٥٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٦١
التعليم الأول: الصيحات الإلهية ٢٦١
التعليم الثاني: الهلاك مصير الخصومات ٢٦٣
التعليم الثالث: العقوبات الإلهية متنوعة ٢٦٧
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ٢٦٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٧١
المفردة الأولى: (الفاء) ٢٧١

المفردة الثانية: ﴿لَا﴾............................ ٢٧١
المفردة الثالثة: ﴿تَوْصِيَةً﴾......................... ٢٧٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية...................... ٢٧٣
اللطيفة الأولى: لماذا قدمت الوصية؟.................... ٢٧٣
اللطيفة الثانية: لماذا نفت عنهم الاستطاعة؟.............. ٢٧٤
اللطيفة الثالثة: ما المراد بالأهل؟...................... ٢٧٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٢٧٧
التعليم الأول: ضرورة الوصيةوغايتها ٢٧٧
التعليم الثاني: الحاجة إلى الأهل فطرية................. ٢٧٩
التعليم الثالث: العناد يحرم الإنسان من الفرص............. ٢٨٠
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٢٨٣
المبحث الأول : في مفردات الآية ٢٨٥
المفردة الأولى: (الواو).............................. ٢٨٥
المفردة الثانية: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾..................... ٢٨٦
(صُوَر الخلائق الملكوتية).......................... ٢٩٣
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ ٣٠٠
المفردة الرابعة: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾..................... ٣٠٤
كيف يكون الرجوع إلى الله؟........................ ٣١٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية...................... ٣١٧
اللطيفة الأولى: لماذا يتم الإحياء بالنفخ؟................. ٣١٧
اللطيفة الثانية: ما علاقة الصوت بالإحياء والإماتة؟ ٣٢٠

اللطيفة الثالثة : الاستنساخ نظرة قرآنية ٣٢٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٣٣٣
التعليم الأول : يحشرون بأبدانهم................................٣٣٣
التعليم الثاني:...٣٣٤
التعليم الثالث: ٣٣٤
التعليم الرابع: لا يمكن الفرار من العقاب.........................٣٣٦
التعليم الخامس : هل الاستنساخ للأبدان أم للأرواح؟ ٣٣٧
قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ
....٣٣٩
المبحث الأول: في مفردات الآية...............................٣٤١
المفردة الأولى: ﴿قَالُوا﴾...٣٤١
المفردة الثانية: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ٣٤٢
المفردة الثالثة: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾.........................٣٤٤
المفردة الرابعة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ٣٥٢
المفردة الخامسة: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ٣٥٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................................٣٥٧
اللطيفة الأولى: يستغيث المؤمن من أمرين ٣٥٧
اللطيفة الثانية: بعد الإحياء يتذكرون ٣٥٩
اللطيفة الثالثة:...٣٦٠
اللطيفة الرابعة:..٣٦٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٣٦١

التعليم الأول: أثر الاعتقاد بحياة القبر ٣٦١
التعليم الثاني: فقهي...٣٦٤
التعليم الثالث: لا ينبغي الإصرار والمعاندة ٣٦٥
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٦٧
المبحث الأول: في مفردات الآية....................................٣٧١
المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾......................................٣٧١
المفردة الثانية: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾...........................٣٧١
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾..........................٣٧٢
المفردة الرابعة: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ ٣٧٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية....................................٣٧٧
اللطيفة الأولى: عجز الطب عن الإحياء والإماتة...................٣٧٧
اللطيفة الثانية: الحشر جماعات وأفراداً.............................٣٧٨
اللطيفة الثالثة: آخر حديث لعلي عليه السلام.............................٣٨١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية....................................٣٨٣
التعليم الأول: ضرورة المعاد والإعتقاد به ٣٨٣
الأمر الأول: في حقيقة الموت......................................٣٨٣
الأمر الثاني: الأقوال في المعاد.....................................٣٨٧
الأمر الثالث: في المعاد الجسماني والروحاني.......................٤٠١
تعليق الحياة في القبور..٤١٠
التعليم الثاني: القرآن أوسع من العقل والعلم.......................٤٢٠
التعليم الثالث: كيف يحضر الناس عند ربهم؟ ٤٢٤

آثار الدعاء بالفرج.. ٤٢٨
العالم في محضر الإمام عليه السلام.. ٤٣١
فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٤٣٥
المفردة الأولى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ ٤٣٥
المفردة الثانية: ﴿نَفْسٌ﴾.. ٤٣٦
المفردة الثالثة: ﴿تُجْزَوْنَ﴾.. ٤٣٨
المفردة الرابعة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ٤٣٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٤٤٣
اللطيفة الأولى:.. ٤٤٣
اللطيفة الثانية:.. ٤٤٥
اللطيفة الثالثة: هل القضاء يضمن العدالة؟.. ٤٤٦
اللطيفة الرابعة: الاتجاهات في تجسم الأعمال.. ٤٤٨
الاستغفار وتجسُّم الأعمال.. ٤٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٤٦٣
التعليم الأول: ثلاث قواعد لصناعة الحياة.. ٤٦٣
التعليم الثاني: استعدوا للآخرة.. ٤٦٩
التعليم الثالث: كيف تتحقق العدالة؟ ٤٦٩
التعليم الرابع: ثمرة جعل الجزاء على العمل ٤٧١
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ.. ٤٧٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٤٧٥

المفردة الأولى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ ٤٧٥
المفردة الثانية: ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾........................... ٤٧٧
المفردة الثالثة: ﴿الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ ٤٧٩
المفردة الرابعة: ﴿فَاكِهُونَ﴾.................................. ٤٨١
المبحث الثاني: في لطائف الآية................................ ٤٨٥
اللطيفة الأولى: ما هو شغل أهل الجنة؟.......................... ٤٨٥
اللطيفة الثانية: مجالس أهل الجنة............................... ٤٩٥
اللطيفة الثالثة: بطلان الرؤية.................................. ٤٩٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................ ٥٠١
التعليم الأول: الأفعال تتجسّم والتروك تتعوّض ٥٠١
التعليم الثاني:... ٥٠٣
التعليم الثالث: الفراغ أساس الشرور ٥٠٤
الفهرس ٥٠٥

فهرس الجزء الخامس

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ٩

المبحث الأول: في مفردات الآية ١١

المفردة الأولى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ ١١

المفردة الثانية: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ٢٣

المفردة الثالثة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ ٢٦

المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣١

اللطيفة الأولى: التنعم في ظلال الجنة ٣١

اللطيفة الثانية: لماذا الأزواج دون الأرحام؟ ٣٤

اللطيفة الثالثة: كيف يلتذون بالأرائك؟ ٣٥

المبحث الثالث : في تعاليم الآية ٣٧

التعليم الأول: بماذا تضمن حياة سعيدة؟ ٣٧

التعليم الثاني: يجب الإمعان في اختيار الزوجة والزوج ٣٨

مقومات الأسرة السعيدة ٣٩

التعليم الثالث: لنجعل البيوت ظِلالاً ٤١

التعليم الرابع: الأرائك أفضل وسيلة للجلوس ٤٢

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٤٣

المبحث الأول: في مفردات الآية ٤٧

المفردة الأولى: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ ٤٧

المفردة الثانية: ﴿فَاكِهَةٌ﴾ ٤٩
المفردة الثالثة: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ٥١
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٥٩
اللطيفة الأولى: لماذا ذكرت الفاكهة دون غيرها؟ ٥٩
اللطيفة الثانية: معارف أهل الجنّة ٦١
اللطيفة الثالثة: لأهل الجنة ما يدّعون ٦٦
اللطيفة الرابعة: النعيم المادي في الجنة ٦٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٦٩
التعليم الأول: تشريف المجالس بالفاكهة ٦٩
التعليم الثاني: الفاكهة ضرورة للبدن ٦٩
التعليم الثالث: الاستماع واجب على المسؤول ٧٠
سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٧١
السلام قلب سورة يس ٧٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٧٧
المفردة الأولى: ﴿سَلَامٌ﴾ ٧٧
المفردة الثانية: ﴿قَوْلًا﴾ ٨٠
المفردة الثالثة: ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ٨٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٩٥
اللطيفة الأولى: مراتب السلام وأصنافه ٩٥
اللطيفة الثانية: آثار السلام في الجنة ١٠٠

اللطيفة الثالثة: سلام الجنة امتداد للدنيا.......................١٠٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..........................١٠٥
التعليم الأول: الرحمة والسلام في الشخصيّة الإلهية ١٠٥
التعليم الثاني:...١١٢
التعليم الثالث: سلامة الدنيا والآخرة عند آل محمد عليهم السلام ١١٣
التعليم الرابع: للقضاة والمعنيين بالحكم ١١٦
التعليم الخامس: تحية السلام.............................١١٦
وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ...١١٧
المبحث الأول: في مفردات الآية...........................١٢١
المفردة الأولى: ﴿وَامْتَازُوا﴾ ١٢١
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾.......................................١٢٦
المفردة الثالثة: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾...............................١٢٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية............................١٣١
اللطيفة الأولى: السلسلة الطولية لملوك الوجود ١٣١
اللطيفة الثانية: بماذا يمتاز المجرمون؟.........................١٣٣
اللطيفة الثالثة: لماذا أمروا بالامتياز؟..........................١٤٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..........................١٤١
التعليم الأول: الدين الحق يقوم على أركان ١٤١
التعليم الثاني: الظلم لا يدوم..............................١٤٤
التعليم الثالث: المجرمون صنفان...........................١٤٦

التعليم الرابع: قاعدة أصولية......................١٤٩
أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٥١
لماذا الاستفهام؟...١٥٣
المبحث الأول: في مفردات الآية.........................١٥٥
المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾...١٥٥
المفردة الثانية: ﴿أَعْهَدْ﴾......................................١٥٦
المفردة الثالثة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ١٦٢
المفردة الرابعة: ﴿أن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾.....................١٦٥
المفردة الخامسة: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية............................١٧٣
اللطيفة الأولى: علاقة الرحمن والشيطان ببني آدم ١٧٣
اللطيفة الثانية: لماذا يعادي الشيطان بني آدم؟ ١٧٧
اللطيفة الثالثة: ما هي الأحوال التي يوسوس فيها الشيطان؟..١٨٣
أساليب الشيطان وطرقه.....................................١٨٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ١٨٧
التعليم الأول: للحكماء و المقننين وأصحاب الفكر ١٨٧
التعليم الثاني: صحة قواعد الإمامية في الفقه والكلام ١٩٠
التعليم الثالث: للتربويين والمعلمين ١٩٣
التعليم الرابع: عبادة الإنسان بين محورين.......................١٩٤
التعليم الخامس: عداوة الشيطان اجتماعياً وسياسياً ١٩٧

كيف تحارب الشيطان؟........................ ١٩٨
التعليم السادس: بعض القواعد الفقهية والأصولية والكلامية ١٩٩
وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ........................ ٢٠١
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٢٠٣
المفردة الأولى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾........................ ٢٠٣
المفردة الثانية: ﴿هَذَا﴾........................ ٢٠٧
المفردة الثالثة: ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾........................ ٢٠٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢١٣
اللطيفة الأولى: من الذي أخذ عهد الله؟........................ ٢١٣
اللطيفة الثانية: عبادة الله باتباع النبي والإمام عليهما السلام........................ ٢٢٠
اللطيفة الثالثة: عداوة الشيطان خاصة بأولياء علي عليه السلام........................ ٢٢١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٢٢٥
التعليم الأول: الإصلاح يقوم على الهدم والبناء........................ ٢٢٥
المنهاج العملي للإصلاح........................ ٢٢٧
القدوة ضرورة في المجتمع والدولة........................ ٢٣٤
التعليم الثاني: كيف الخلاص من ضيق المعيشة؟........................ ٢٣٨
التعليم الثالث: كيف تتحرز من الشيطان؟........................ ٢٤٤
التعليم الرابع: فقهي........................ ٢٤٧
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ........................ ٢٤٩
أفلا يعقلون؟........................ ٢٥١

المبحث الأول: في مفردات الآية.................................٢٥٥
المفردة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾......................٢٥٥
المفردة الثانية: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾.............................٢٥٦
المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ٢٥٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................................٢٦٣
اللطيفة الأولى: الغرب والشيطان نهج واحد.......................٢٦٣
اللطيفة الثانية: لماذا وصف بنو آدم بالجبلة؟ ٢٦٦
اللطيفة الثالثة: العقل أم العلم؟ ٢٦٩
العقل والشيطنة ٢٧١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٧٣
التعليم الأول: حضارة الشياطين....................................٢٧٣
شيطنة الغرب والشرق ٢٧٨
التعليم الثاني: العقل قائد الإنسان.................................٢٨١
التعليم الثالث: ٢٨٢
التعليم الرابع: تعاضد العقل والشرع...............................٢٨٢
هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ..................................٢٨٥
هذا ما توعدون..٢٨٧
المبحث الأول: في مفردات الآية.................................٢٨٩
المفردة الأولى: ﴿هَذِهِ﴾..٢٨٩
المفردة الثانية: ﴿جَهَنَّمُ﴾ ٢٩٠

المفردة الثالثة: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ٢٩٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٢٩٥
اللطيفة الأولى: ما هي النار ومن هم أصولها؟.................... ٢٩٥
اللطيفة الثانية:... ٢٩٧
اللطيفة الثالثة: تكامل النبوّات والرسالات.......................... ٢٩٧
ثلاث حقائق في النبوات.. ٢٩٩
المبحث الثالث : في تعاليم الآية.. ٣٠٥
التعليم الأول: الناس صنفان.. ٣٠٥
العلم نوعان والغيبي أعظم...................................... ٣٠٦
التعليم الثاني: يجب تقديم النموذج الحسي للأفكار.............. ٣١٠
التعليم الثالث: الوفاء بالوعيد حسن ٣١٢
اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣١٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.. ٣١٧
المفردة الأولى: ﴿اصْلَوْهَا﴾.. ٣١٧
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ﴾.. ٣٢١
المفردة الثالثة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.............................. ٣٢٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية.. ٣٢٥
اللطيفة الأولى: أحوال أهل النار.. ٣٢٥
اللطيفة الثانية: كلّمهم بمنطقهم.. ٣٢٦
اللطيفة الثالثة: تنوّع العذاب بتنوّع الكفر ٣٢٦

خلاص أهل النار بمحمد وآله........................ ٣٣٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٣٣٣
التعليم الأول: التوبة قبل الموت........................ ٣٣٣
التعليم الثاني: لماذا يخلَّدون في النار؟........................ ٣٣٤
التعليم الثالث: للتربويين والمعنيين بتطبيق العدالة ٣٣٥
التعليم الرابع: للقضاة والفقهاء........................ ٣٣٦
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
.... ٣٣٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٣٤١
المفردة الأولى: ﴿الْيَوْمَ﴾........................ ٣٤١
المفردة الثانية: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾........................ ٣٤٤
المفردة الثالثة: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾........................ ٣٤٨
المفردة الرابعة: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ ٣٥٤
المفردة الخامسة: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾........................ ٣٥٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٣٦١
اللطيفة الأولى: لماذا الختم على الأفواه والقلوب؟ ٣٦١
حقيقتان في الختم والطبع ٣٦٤
اللطيفة الثانية: شهادة الجوارح على أهلها........................ ٣٦٥
اللطيفة الثالثة: الجوارح تتكلّم........................ ٣٦٩
اللطيفة الرابعة: فرق الكسب عن العمل والذنب ٣٧١

المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................... ٣٧٣
التعليم الأول: للمحاورين والساسة والقضاة ٣٧٣
التعليم الثاني: بالحوار لا بتكميم الأفواه ٣٧٤
التعليم الثالث: وصايا للحياة ٣٧٤
التعليم الرابع: للمتكلمين والفقهاء......................... ٣٧٥
وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ........ ٣٧٩
الجزاء بالاستحقاق...................................... ٣٨١
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................... ٣٨٥
المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾............. ٣٨٥
المفردة الثانية: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾............................ ٣٩١
المفردة الثالثة: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ٣٩٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية.......................... ٣٩٥
اللطيفة الأولى: مفهوم المشيئة والإرادة.................... ٣٩٥
اللطيفة الثانية: أسلوب الباري مع أهل النار ٣٩٨
اللطيفة الثالثة: طمس العقول والقلوب ٤٠٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.......................... ٤٠١
التعليم الأول: لماذا لم يعاجلهم بالعقوبة؟.................. ٤٠١
التعليم الثاني: ثلاثة مبادئ للنجاح ٤٠٦
التعليم الثالث: فلسفة التنافس والاستباق.................... ٤٠٧
التعليم الرابع: كل شيء يوجد بسبب وحكمة ٤٠٨

وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ....٤١٣
المسخ قسمان..٤١٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.....................................٤١٧
المفردة الأولى: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ ٤١٧
المفردة الثانية: ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ ٤١٩
المفردة الثالثة: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ٤٢٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية.....................................٤٢٩
اللطيفة الأولى: لماذا لم يمسخهم؟.................................٤٢٩
اللطيفة الثانية: العذاب يسانخ السجايا ٤٣٣
اللطيفة الثالثة: الفرق بين القدرة والإستطاعة......................٤٣٥
اللطيفة الرابعة: فرق المضي والرجوع ٤٣٧
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٣٩
التعليم الأول: مصير الإنسان بيده.................................٤٣٩
التعليم الثاني: ربك يختبرك بما لديك..............................٤٤٠
التعليم الثالث: فكر في طريق الرجوع ٤٤٠
التعليم الرابع: لا تغتر بما عندك...................................٤٤١
وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.............................٤٤٣
حكمة العطف على ما سبق ٤٤٥
المبحث الأول: في مفردات الآية.....................................٤٤٩
المفردة الأولى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ ٤٤٩

المفردة الثانية: ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾........................ ٤٥٣
المفردة الثالثة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾........................ ٤٥٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٤٥٩
اللطيفة الأولى: لماذا يعمرّه ثم ينكسه في الخلق؟........................ ٤٥٩
اللطيفة الثانية: تدبروا في أبدانكم........................ ٤٦٠
اللطيفة الثالثة: بين التعقّل والتفكّر........................ ٤٦٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٤٦٥
التعليم الأول: كل قوة وراءها ضعف........................ ٤٦٥
التعليم الثاني: انتكاس المجتمعات والحضارات........................ ٤٦٦
التعليم الثالث: لا انتكاس في الروحانيات........................ ٤٦٧
وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ........................ ٤٦٩
القرآن والشعر........................ ٤٧١
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٤٧٥
المفردة الأولى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾........................ ٤٧٥
المفردة الثانية: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾........................ ٤٨٤
المفردة الثالثة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾........................ ٤٩٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٤٩٣
اللطيفة الأولى: الشعر موهبة إلهية........................ ٤٩٣
اللطيفة الثانية: طرق علم النبي صلى الله عليه وآله........................ ٤٩٥
اللطيفة الثالثة: القرآن تنزيلي لا تعليمي........................ ٤٩٩

اللطيفة الرابعة: بين الإعجاز والسحر ٥٠٢
بين الذكر والشعر ٥٠٧
اللطيفة الخامسة: هل النبي ﷺ أنشد الشعر وأنشأه؟ ٥٠٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٥١٥
التعليم الأول: يجب العمل بالأهم دائماً.....................٥١٥
وجوب العمل بشرائط القدوة.......................٥١٧
خصائص سيرة النبي ﷺ.............................٥١٨
التعليم الثاني: لطلبة العلم وأهل الحِرَف.....................٥٢٢
خصائص العلوم الإلهية.................................٥٢٤
في الحياة ما يليق وما لا يليق..................................٥٢٧
التعليم الثالث: ما ينبغي في الحوار وما لا ينبغي..............٥٣٠
التعليم الرابع: لأصحاب الشأن..................................٥٣٤
التعليم الخامس: في الأصول والفقه ٥٣٥
التعليم السادس: المعارف الإلهية في القرآن والسنّة ٥٣٦
الفهرس ٥٣٧

فهرس الجزء السادس

لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ........................ ٩
الشاعر والمنذر والهادي.. ١١
المبحث الأول: في مفردات الآية ١٥
المفردة الأولى: ﴿لِيُنذِرَ﴾.. ١٥
المفردة الثانية: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ ١٧
المفردة الثالثة: ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٢٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٣
اللطيفة الأولى: الوحدة الموضوعية للآيات والسور ٢٣
اللطيفة الثانية: وجود المنذر ضرورة مستمرة........................... ٢٤
اللطيفة الثالثة: من هم أحياء القلوب؟ ٢٥
اللطيفة الرابعة: العذاب بالاستحقاق..................................... ٢٨
لماذا يخلدون في العذاب؟.. ٢٨
اللطيفة الخامسة: هل العذاب لأصناف الكفار؟ ٣١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٣٣
التعليم الأول: كيف نعيش حياتين؟..................................... ٣٣
التعليم الثاني: قواعد للمبلّغين و المربين.................................. ٤٠
التعليم الثالث: أركان الحجة... ٤٢
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ......... ٤٥

لماذا ماتت أرواحهم؟........................ ٤٧
المبحث الأول: في مفردات الآية ٥١
المفردة الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ ٥١
المفردة الثانية: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ ٥٧
المفردة الثالثة: ﴿أَنْعَامًا﴾ ٦٦
المفردة الرابعة: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾........................ ٦٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٧٣
اللطيفة الأولى: الحس دليل على الغيب........................ ٧٣
اللطيفة الثانية: خلق الإنسان لينعّمه........................ ٧٥
اللطيفة الثالثة:........................ ٧٦
اللطيفة الرابعة: الحياة تدور على محورين........................ ٧٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٧٩
التعليم الأول: واجبات ضيوف الله في الدنيا........................ ٧٩
التعليم الثاني: لابد للإنسان من معين........................ ٨٠
التعليم الثالث: أساسان لتطوير المهارات والجماعات........................ ٨٤
التعليم الرابع: ثروات الأرض للإنسان لا للدولة........................ ٨٥
التعليم الخامس: أغلب الفشل من الاستعجال ٨٧
التعليم السادس: للفقهاء والمجتهدين ٨٨
التعليم السابع: الطب لا يعطي الحياة........................ ٨٨
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٨٩

المبحث الأول: في مفردات الآية ٩٣
المفردة الأولى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ ٩٣
المفردة الثانية: ﴿فمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ٩٥
المفردة الثالثة: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾........................ ٩٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٩٩
اللطيفة الأولى: تذليل الأنعام نعمة عظيمة........................ ٩٩
اللطيفة الثانية: بين التذليل والذلول........................ ١٠٠
اللطيفة الثالثة: أثر أكل لحوم الأنعام........................ ١٠١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ١٠٥
التعليم الأول: لا إرتقاء بلا غاية ١٠٥
التعليم الثاني: كل صعب يسهل بالتذليل ١٠٦
التعليم الثالث: للأكل آثار ١٠٧
التعليم الرابع: هكذا تعلّمنا الأنعام........................ ١٠٧
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ١٠٩
ما نحتاجه من الأنعام........................ ١١١
المبحث الأول: في مفردات الآية ١١٣
المفردة الأولى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾........................ ١١٣
المفردة الثانية: ﴿مَنَافِعُ﴾........................ ١١٤
المفردة الثالثة: ﴿مَشَارِبُ﴾ ١١٥
المفردة الرابعة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾........................ ١١٦

المبحث الثاني: في لطائف الآية ١١٩
اللطيفة الأولى: فرق المنافع عن الفوائد ١١٩
اللطيفة الثانية:........................١٢٠
اللطيفة الثالثة: ١٢٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................١٢١
التعليم الأول: للعصاة والمذنبين........................١٢١
التعليم الثاني: أفضل ثروة اقتصادية ١٢٢
التعليم الثالث: طريقان لتنمية الثروة........................١٢٣
التعليم الرابع: طهارة المعصوم شاملة........................١٢٤
التعليم الخامس:........................١٢٥
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ........................١٢٧
دلائل الواو........................١٢٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ١٣١
المفردة الأولى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾........................١٣١
المفردة الثانية: ﴿مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ ١٣٢
المفردة الثالثة: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾........................١٣٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية ١٣٧
اللطيفة الأولى: فرق الإتخاذ عن الإتباع........................١٣٧
اللطيفة الثانية: لماذا وردت الألهة نكرة؟........................١٣٨
اللطيفة الثالثة:........................١٣٩

المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................١٤١
التعليم الأول: مظاهر الرقي الفكري...........................١٤١
التعليم الثاني: لا تربط مصيرك بالظالمين.......................١٤٢
التعليم الثالث: لا تعدد في العقيدة.............................١٤٣
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ.......................١٤٥
المبحث الأول: في مفردات الآية ١٤٩
المفردة الأولى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ١٤٩
المفردة الثانية: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾..................................١٥٢
المفردة الثالثة: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ ١٥٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية ١٥٧
اللطيفة الأولى: لماذا نفت الاستطاعة؟ ١٥٧
اللطيفة الثانية: لماذا وصفوا بالجند؟.............................١٥٨
اللطيفة الثالثة: كيف يحضرون؟ ١٥٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................١٦١
التعليم الأول: إرشادان للمحاورين.............................١٦١
التعليم الثاني: اتخذوا الله سنداً لكم ١٦٢
ثلاث معضلات منهجية...................................١٦٤
التعليم الثالث: النظام الهرمي في المجتمع البشري وقادته ١٦٦
فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.......................١٧١
ما أحزن النبي صلى الله عليه وآله؟.......................................١٧٣

المبحث الأول: في مفردات الآية ١٧٧
المفردة الأولى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ ١٧٧
المفردة الثانية: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ١٧٩
المفردة الثالثة: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ ١٨٥
المفردة الرابعة: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾................................١٨٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ١٨٩
اللطيفة الأولى: لماذا نهاه عن الحزن؟................................١٨٩
اللطيفة الثانية: ما علاقة العلم بالحزن؟................................١٩١
اللطيفة الثالثة: بين الإسرار والإخفاء................................١٩٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية................................١٩٥
التعليم الأول: جراحات اللسان أشد من السنان................................١٩٥
التعليم الثاني: آثار البعد عن الله ١٩٨
التعليم الثالث: لا يبقى سر مخفي................................١٩٩
أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٢٠١
أرجعهم إلى وجدانهم ليؤمنوا................................٢٠٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٠٧
المفردة الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾................................٢٠٧
المفردة الثانية: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ٢١٣
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾................................٢١٧
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٢١

اللطيفة الأولى: بين الرؤية والتعقل ٢٢١
اللطيفة الثانية: ثلاثة مدعيات للملاحدة والحكماء ٢٢٥
اللطيفة الثالثة: الإبداع الروحي أعظم من البدني........................ ٢٢٨
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٢٣١
التعليم الأول: الفكر سبيل الخلاص ٢٣١
التعليم الثاني: كيف يقمع الإنسان غروره؟........................... ٢٣٢
التعليم الثالث: كيف تتعامل مع الخصومات؟......................... ٢٣٤
التعليم الرابع: أصناف الخصومة مع الله ٢٣٦
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٢٣٩
الإلحاد بالمعاد.. ٢٤١
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٤٣
المفردة الأولى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾... ٢٤٣
المفردة الثانية: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ٢٤٤
المفردة الثالثة: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾........................ ٢٤٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٤٩
اللطيفة الأولى: تعاضد الحس والعقل في البرهان......................... ٢٤٩
اللطيفة الثانية: هل للعظام حياة؟.. ٢٥٠
اللطيفة الثالثة: هفوة الإلحاد في الاستدلال............................. ٢٥١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.. ٢٥٣
التعليم الأول: مناشئ الإلحاد... ٢٥٣

التعليم الثاني:..................................٢٥٤
التعليم الثالث: حقيقتان في سياسة النبي صلى الله عليه وآله.........................٢٥٤
التعليم الرابع: قواعد منهجية في المعرفة..........................٢٥٥
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ...............٢٥٧
قول النبي صلى الله عليه وآله قول الله سبحانه.........................٢٥٩
المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٦١
المفردة الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ ٢٦١
المفردة الثانية: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾..........................٢٦٣
المفردة الثالثة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ٢٦٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٧١
اللطيفة الأولى: للإحياء ثلاث دلائل ٢٧١
اللطيفة الثانية: شبهة الملحدين في الإمكان الوقوعي..........................٢٧٣
اللطيفة الثالثة: بين الإنشاء والخلق ٢٧٤
اللطيفة الرابعة: بين الإنشاء والعلم..........................٢٧٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية..........................٢٧٧
التعليم الأول: يجب رد الشبهة العقدية ٢٧٧
التعليم الثاني: حياة القلوب بيده سبحانه ٢٧٨
التعليم الثالث: جملة من القواعد المنطقية ٢٨١
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٢٨٣
دلائل إيجاد النار من الشجر الأخضر..........................٢٨٥

المبحث الأول: في مفردات الآية ٢٨٩
المفردة الأولى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾........................... ٢٨٩
المفردة الثانية: ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ٢٩١
المفردة الثالثة: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ٢٩٣
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٢٩٥
اللطيفة الأولى: دلائل بعث النار على المعاد........................... ٢٩٥
اللطيفة الثانية: الباري يجعل الأشياء وقوانينها ٢٩٨
اللطيفة الثالثة: مناشئ الحياة في المبدأ والمعاد ٣٠١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٣٠٣
التعليم الأول: ضرورة الدلائل الحسية في الحوار........................... ٣٠٣
التعليم الثاني: بطلان نظرية التوافي ٣٠٤
التعليم الثالث: تشابه النار والأفكار........................... ٣٠٥
التعليم الرابع: العلوم تستثمر القوانين الإلهية........................... ٣٠٥
التعليم الخامس: مدار العلاقات الإنسانية........................... ٣٠٦
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ........................... ٣٠٩
إقرار الكفار بأمرين في العقيدة........................... ٣١١
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣١٥
المفردة الأولى: ﴿أَوَلَيْسَ﴾........................... ٣١٥
المفردة الثانية: ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ٣١٦

المفردة الثالثة: ﴿بَلَى﴾...٣٢١
المفردة الرابعة: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾............................٣٢٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٢٥
اللطيفة الأولى: لماذا يلحدون؟...................................٣٢٥
اللطيفة الثانية: خلق المِثل أيسر ٣٢٨
اللطيفة الثالثة: بين بلى ونعم في الجواب........................٣٣٠
اللطيفة الرابعة: أنواع الخلق وأصنافه............................٣٣١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.................................٣٣٥
التعليم الأول: طرق الإقناع في المحاورات.......................٣٣٥
التعليم الثاني: الخلق نظام دائم ٣٣٦
التعليم الثالث: بعض القواعد الكلامية والفقهية والأصولية.........٣٣٦
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.............٣٣٩
ختام الكلام مع الكفار ٣٤١
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٤٣
المفردة الأولى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾....................................٣٤٣
المفردة الثانية: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾...............................٣٤٥
المفردة الثالثة: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.........................٣٥٠
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٥٣
اللطيفة الأولى: ما يوجد بكن من الموجودات ٣٥٣
اللطيفة الثانية: ما المراد بقوله كن؟..............................٣٥٦

اللطيفة الثالثة: بين الإرادة والمشيئة ٣٦٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٣٦٣
التعليم الأول: مزايا الفعل الإلهي ٣٦٣
التعليم الثاني: مزايا الناجحين والفاشلين ٣٦٤
التعليم الثالث: المدارس الفلسفية والكلامية في الإرادة ٣٦٦
التعليم الرابع: حقائق علمية في التكوين........................ ٣٦٧
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٧١
ملكوتهم بيده.. ٣٧٣
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٧٧
المفردة الأولى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي﴾ ٣٧٧
المفردة الثانية: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ٣٧٨
المفردة الثالثة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.............................. ٣٨٤
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٨٥
اللطيفة الأولى: هذه يد الله سبحانه ٣٨٥
اللطيفة الثانية: لكل شيء ملكوت.............................. ٣٩٠
اللطيفة الثالثة: الكل يرجع إلى الله سبحانه وأوليائه ٣٩٢
المبحث الثالث: في تعاليم الآية............................ ٣٩٧
التعليم الأول: لا داعي لليأس ٣٩٧
التعليم الثاني: لا عبث في الخلق.............................. ٣٩٧
التعليم الثالث: حقائق الأشياء وآثارها بملكوتها ٣٩٨

التعليم الرابع: جملة من الحقائق الإعتقادية........ ٣٩٩
المصادر.............................. ٤٠١
فهرست الكتاب........................ ٤٣٥
فهرس الجزء الأول..................... ٤٣٥
فهرس الجزء الثاني..................... ٤٤٣
فهرس الجزء الثالث.................... ٤٥٥
فهرس الجزء الرابع..................... ٤٦٧
فهرس الجزء الخامس................... ٤٧٩
فهرس الجزء السادس.................. ٤٩١